سورة القلم

وهي اثنتان وخمسون آية مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾

﴿نٓ﴾ فيه مسألتان:

المسألة الأولى: الأقوال المذكورة في هذا الجنس قد شرحناها في أول سورة البقرة والوجوه الزائدة التي يختص بها هذا الموضع أولها: أن النون هو السمكة، ومنه في ذكر يونس ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وهذا القول مروي عن ابن عباس ومجاهد ومقاتل والسدي ثم القائلون بهذا منهم من قال: إنه قسم بالحوت الذي على ظهره الأرض وهو في بحر تحت الأرض السفلى، ومنهم من قال: إنه قسم بالحوت الذي احتبس يونس عليه السلام في بطنه، ومنهم من قال: إنه قسم بالحوت الذي لطخ سهم نمروذ بدمه. **والقول الثاني**: وهو أيضًا مروي عن ابن عباس واختيار الضحاك والحسن وقتادة أن النون هو الدواة، ومنه قول الشاعر:

إِذَا مَا الشَّوْقُ يَرْجِعُ بِي إِلَيْهِمْ ... أَلْقَتِ النُّونُ بِالدَّمْعِ السَّجُومِ

فيكون هذا قسمًا بالدواة والقلم، فإن المنفعة بهما بسبب الكتابة عظيمة، فإن التفاهم تارة يحصل بالنطق وتَارَةً يتحرى بالكتابة. **والقول الثالث**: أن النون لوح تكتب الملائكة ما يأمرهم الله به فيه رواه معاوية بن قرة مرفوعًا. **والقول الرابع**: أن النون هو المداد الذي تكتب به الملائكة واعلم أن هذه الوجوه ضعيفة لأنا إذا جعلناه مقسمًا به وجب إن كان جنسًا أن نجره وننونه، فإن القسم على هذا التقدير يكون بدواة منكرة أو بسمكة منكرة، كأنه قيل: وسمكة والقلم، أو قيل: ودواة والقلم، وإن كان علمًا أن نصرفه ونجره أو لا نصرفه ونفتحه إن جعلناه غير منصرف. **والقول الخامس**: أن نون هاهنا آخر حروف الرحمن فإنه يجتمع من الرحمن ن اسم الرحمن فذكر الله هذا الحرف الأخير من هذا الاسم، والمقصود القسم بتمام هذا الاسم، وهذا أيضًا ضعيف لأن تجويزه يفتح باب ترهات الباطنية، بل الحق أنه إما أن يكون اسمًا للسورة أو يكون الغرض منه التحدي أو سائر الوجوه المذكورة في أول سورة البقرة.

المسألة الثانية: القراء مختلفون في إظهار النون وإخفائه من قوله: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ فمن أظهرها فلأنه ينوي بها الوقف بدلالة اجتماع الساكنين فيها، وإذا كانت موقوفة كانت في تقدير الانفصال مما بعدها، وإذا انفصلت مما بعدها وجب التبيين، لأنها إنما تخفى في حروف الفم

عند الاتصال، ووجه الإخفاء أن همزة الوصل لم تقطع مع هذه الحروف في نحو ﴿الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١] وقولهم في العدد: واحد اثنان فمن حيث لم تقطع الهمزة معها علمنا أنها في تقدير الوصل وإذا وصلتها أخفيت النون وقد ذكرنا هذا في ﴿طسٓ﴾ [النمل: ١] و﴿يسٓ﴾ [يس: ١] وقال الفراء: وإظهارها أعجب إليّ لأنها هجاء والهجاء كالموقوف عليه وإن اتصل.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن القسم به هو الجنس وهو واقع على كل قلم يكتب به من في السماء ومن في الأرض، قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ [العلق: ٣-٥] فمنّ بتيسير الكتابة بالقلم كما منَّ بالنطق فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣، ٤] ووجه الانتفاع به أن يُنَزّل الغائب منزلة المخاطب فيتمكن المرء من تعريف البعيد به ما يتمكن باللسان من تعريف القريب، والثاني: أن المقسم به هو القلم المعهود الذي جاء في الخبر أن أول ما خلق الله القلم، قال ابن عباس: أول ما خلق الله القلم ثم قال له اكتب ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة، فجرى بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة من الآجال والأعمال، قال: وهو قلم من نور طوله كما بين السماء والأرض، وروى مجاهد عنه قال: أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب القدر فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة وإنما يجري الناس على أمر قد فرغ منه. قال القاضي: هذا الخبر يجب حمله على المجاز، لأن القلم الذي هو آلة مخصوصة في الكتابة لا يجوز أن يكون حيًّا عاقلاً فيؤمر وينهى فإن الجمع بين كونه حيوانًا مكلفًا وبين كونه آلة للكتابة محال، بل المراد منه أنه تعالى أجراه بكل ما يكون وهو كقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] فإنه ليس هناك أمر ولا تكليف، بل هو مجرد نفاذ القدرة في المقدور من غير منازعة ولا مدافعة، ومن الناس من زعم أن القلم المذكور هاهنا هو العقل، وأنه شيء هو كالأصل لجميع المخلوقات، قالوا: والدليل عليه أنه روي في الأخبار أن أول ما خلق الله القلم، وفي خبر آخر: أول ما خلق الله تعالى جوهرة فنظر إليها بعين الهيبة فذابت وتسخنت فارتفع منها دخان وزبد فخلق من الدخان السموات ومن الزبد الأرض، قالوا: فهذه الأخبار بمجموعها تدل على أن القلم والعقل وتلك الجوهرة التي هي أصل المخلوقات شيء واحد وإلا حصل التناقض.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾.

اعلم أن (مَا) مع ما بعدها في تقدير المصدر، فيحتمل أن يكون المراد وسطرهم، فيكون القسم واقعًا بنفس الكتابة، ويحتمل أن يكون المراد المسطور والمكتوب، وعلى التقديرين فإن حملنا القلم على كل قلم في مخلوقات الله كان المعنى ظاهرًا، وكأنه تعالى أقسم بكل قلم، وبكل ما يكتب بكل قلم، وقيل: بل المراد ما يسطره الحفظة والكرام الكاتبون، ويجوز أن يراد بالقلم أصحابه، فيكون الضمير في ﴿يَسْطُرُونَ﴾ لهم، كأنه قيل: وأصحاب القلم وسطرهم، أي ومسطوراتهم. وأما إن حملنا القلم على ذلك القلم المعين، فيحتمل أن يكون المراد بقوله:

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي وما يسطرون فيه وهو اللوح المحفوظ، ولفظ الجمع في قوله: ﴿يَسْطُرُونَ﴾ ليس المراد منه الجمع بل التعظيم، أو يكون المراد تلك الأشياء التي سطرت فيه من الأعمال والأعمار، وجميع الأمور الكائنة إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾

واعلم أنه تعالى لما ذكر المقسم به أتبعه بذكر المقسم عليه فقال: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

اعلم أن قوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ فيه مسألتان:

المسألة الأولى: روي عن ابن عباس أنه عليه السلام غاب عن خديجة إلى حراء، فطلبته فلم تجده، فإذا به وجهه متغير بلا غبار، فقالت له مالك؟ فذكر نزول جبريل عليه السلام وأنه قال له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] فهو أول ما نزل من القرآن، قال: ثم نزل بي إلى قرار الأرض فتوضأ وتوضأت، ثم صلى وصليت معه ركعتين، وقال: هكذا الصلاة يا محمد، فذكر عليه الصلاة والسلام ذلك لخديجة، فذهبت خديجة إلى ورقة بن نوفل، وهو ابن عمها، وكان قد خالف دين قومه، ودخل في النصرانية، فسألته فقال: أرسلي إليَّ محمدًا، فأرسلته فأتاه فقال له: هل أمرك جبريل عليه السلام أن تدعو إلى الله أحدًا؟ فقال: لا، فقال: والله لئن بقيت إلى دعوتك لأنصرنك نصرًا عزيزًا، ثم مات قبل دعاء الرسول، ووقعت تلك الواقعة في ألسنة كفار قريش فقالوا: إنه لمجنون، فأقسم الله تعالى على أنه ليس بمجنون، وهو خمس آيات من أول هذه السورة، ثم قال ابن عباس: وأول ما نزل قوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ [الأعلى: ١] وهذه الآية هي الثانية.

المسألة الثانية: قال الزجاج: ﴿أَنتَ﴾ هو اسم ﴿مَآ﴾ و﴿بِمَجْنُونٍ﴾ الخبر، وقوله: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ كلام وقع في البين والمعنى انتفى عنك الجنون بنعمة ربك كما يقال: أنت بحمد الله عاقل، وأنت بحمد الله لست بمجنون، وأنت بنعمة الله فهم، وأنت بنعمة الله لست بفقير، ومعناه أن تلك الصفة المحمودة إنما حصلت، والصفة المذمومة إنما زالت بواسطة إنعام الله ولطفه وإكرامه، وقال عطاء وابن عباس: يريد بنعمة ربك عليك بالإيمان والنبوة، وهو جواب لقولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] واعلم أنه تعالى وصفه هاهنا بثلاثة أنواع من الصفات.

الصفة الأولى: نفي الجنون عنه ثم إنه تعالى قرن بهذه الدعوى ما يكون كالدلالة القاطعة على صحتها، وذلك لأن قوله: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ يدل على أن نعم الله تعالى كانت ظاهرة في حقه من الفصاحة التامة والعقل الكامل والسيرة المرضية، والبراءة من كل عيب، والاتصاف بكل مكرمة

وإذا كانت هذه النعم محسوسة ظاهرة فوجودها ينافي حصول الجنون، فالله تعالى نبه على هذه الدقيقة لتكون جارية مجرى الدلالة اليقينية على كونهم كاذبين في قولهم له: إنه مجنون.

الصفة الثانية: قوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ وفي الممنون: قولان: أحدهما: وهو قول الأكثرين، أن المعنى غير منقوص ولا مقطوع يقال: منَّه السير أي أضعفه، والمنين: الضعيف ومنَّ الشيء إذا قطعه، ومنه قول لبيد:

غبش كَوَاسِبُ مَا يُمَنُّ طَعَامُهَا(١)

يصف كلابًا ضارية، ونظيره قوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨].

والقول الثاني: وهو قول مجاهد ومقاتل والكلبي، إنه غير مقدر عليك بسبب المنة، قالت المعتزلة في تقرير هذا الوجه: إنه غير ممنون عليك لأنه ثواب تستوجبه على عملك، وليس بتفضل ابتداء، والقول الأول أشبه لأن وصفه بأنه أجر يفيد أنه لا منة فيه فالحمل على هذا الوجه يكون كالتكرير، ثم اختلفوا في أن هذا الأجر على أي شيء حصل؟ قال قوم: معناه: إن لك على احتمال هذا الطعن والقول القبيح أجرًا عظيمًا دائمًا، وقال آخرون: المراد إن لك في إظهار النبوة والمعجزات، في دعاء الخلق إلى الله، وفي بيان الشرع لهم هذا الأجر الخالص الدائم، فلا تمنعك نسبتهم إياك إلى الجنون عن الاشتغال بهذا المهم العظيم، فإن لك بسببه المنزلة العالية عند الله.

الصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: اعلم أن هذا كالتفسير لما تقدم من قوله: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ وتعريف لمن رماه بالجنون بأن ذلك كذب، وخطأ وذلك لأن الأخلاق الحميدة والأفعال المرضية كانت ظاهرة منه، ومن كان موصوفًا بتلك الأخلاق والأفعال لم يجز إضافة الجنون إليه لأن أخلاق المجانين سيئة، ولما كانت أخلاقه الحميدة كاملة لا جرم وصفها الله بأنها عظيمة، ولهذا قال: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦] أي لست متكلفًا فيما يظهر لكم من أخلاقي لأن المتكلف لا يدوم أمره طويلاً بل يرجع إلى الطبع، وقال آخرون: إنما وصف خلقه بأنه عظيم وذلك لأنه تعالى قال له: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] وهذا الهدى الذي أمر الله تعالى محمدًا بالاقتداء به ليس هو معرفة الله لأن ذلك تقليد وهو غير لائق بالرسول، وليس هو الشرائع لأن شريعته مخالفة لشرائعهم فتعين أن يكون المراد منه أمره عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بكل واحد من الأنبياء المتقدمين فيما اختص به من الخلق الكريم، فكأن كل واحد منهم كان مختصًا بنوع واحد، فلما أُمِرَ محمد عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بالكل فكأنه أُمِرَ بمجموع ما كان متفرقًا فيهم، ولما كان ذلك درجة عالية لم تتيسر لأحد من الأنبياء قبله، لا جرم وصف الله خلقه بأنه عظيم، وفيه دقيقة أخرى وهي قوله: ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وكلمة على

(١) تقدمت ترجمة لبيد.

للاستعلاء، فدل اللفظ على أنه مُسْتَعْلٍ على هذه الأخلاق ومستول عليها، وأنه بالنسبة إلى هذه الأخلاق الجميلة كالمولى بالنسبة إلى العبد وكالأمير بالنسبة إلى المأمور.

المسألة الثانية: الخُلُق: ملكة نفسانية يسهل على المتصف بها الإتيان بالأفعال الجميلة. واعلم أن الإتيان بالأفعال الجميلة غير وسهولة الإتيان بها غير، فالحالة التي باعتبارها تحصل تلك السهولة هي الخلق ويدخل في حسن الخلق التحرز من الشح والبخل والغضب، والتشديد في المعاملات والتحبب إلى الناس بالقول والفعل، وترك التقاطع والهجران والتساهل في العقود كالبيع وغيره والتسمح بما يلزم من حقوق من له نسب أو كان صهرًا له وحصل له حق آخر. وروي عن ابن عباس أنه قال معناه: وإنك لعلى دين عظيم، وروي أن الله تعالى قال له: (لَمْ أَخْلُقْ دِينًا أَحَبَّ إِلَيَّ وَلاَ أَرْضَى عِنْدِي مِنْ هَذَا الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَيْتُهُ لَكَ وَلِأُمَّتِكَ) يعني الإسلام، واعلم أن هذا القول ضعيف، وذلك لأن الإنسان له قوتان، قوة نظرية وقوة عملية، والدين يرجع إلى كمال القوة النظرية، والخلق يرجع إلى كمال القوة العملية، فلا يمكن حمل أحدهما على الآخر، ويمكن أيضًا أن يجاب عن هذا السؤال من وجهين: الوجه الأول: أن الخُلُق في اللغة هو العادة سواء كان ذلك في إدراك أو في فعل، الوجه الثاني: أنا بينا أن الخلق هو الأمر الذي باعتباره يكون الإتيان بالأفعال الجميلة سهلاً، فلما كانت الروح القدسية التي له شديدة الاستعداد للمعارف الإلهية الحقة وعديمة الاستعداد لقبول العقائد الباطلة، كانت تلك السهولة حاصلة في قبول المعارف الحقة، فلا يبعد تسمية تلك السهول بالخُلُق.

المسألة الثالثة: قال سعيد بن هشام: قلت لعائشة: (أَخْبِرِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّه، قَالَتْ ألست تقرأ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: بَلَى قَالَتْ: فَإِنَّهُ كَانَ خُلُقَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ)(١) وسئلت مرة أخرى فقالت: كان خلقه القرآن، ثم قرأت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] إلى عشرة آيات، وهذا إشارة إلى أن نفسه المقدسة كانت بالطبع منجذبة إلى عالم الغيب، وإلى كل ما يتعلق بها، وكانت شديدة النفرة عن اللذات البدنية والسعادة الدنيوية بالطبع ومقتضى الفطرة، اللهم ارزقنا شيئًا من هذه الحالة. وروى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: (مَا كَانَ أَحَدٌ أَحْسَنَ خُلُقًا مِنْ رَسُولِ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا دَعَاهُ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَلاَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ إِلاَّ قَالَ:

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في كتاب (صلاة المسافرين) باب (جامع صلاة الليل) (١/ ١٣٩/ ٥١٢/ ٥١٤) وأبو داود في كتاب (التطوع) باب (في صلاة الليل) (٢/ ٤١/ ٤٢) حديث رقم (١٣٤٢) والترمذي في كتاب (الصلاة) باب (إذا نام عن صلاته بالليل صلى بالنهار) (٢/ ٣٠٦) حديث رقم (٤٤٥) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح وابن ماجه في كتاب (إقامة الصلاة) باب (في الوتر ثلاث وخمس وسبع وتسع) (١/ ٣٧٦) حديث رقم (١١٩١) وأحمد في (مسنده) (٦/ ٥٣/ ٩٤/ ١٠٩/ ١٦٣/ ١٦٨) والدارمي في كتاب (الصلاة) باب (صفة صلاة رسول الله ﷺ) (١/ ٣٧٤) حديث رقم (١٤٧٥) وابن خزيمة في (صحيحه) (٢) حديث رقم (١٠٧٨/ ١١٢٨) جميعًا من طريق زرارة بن أبي أوفى... به.

لَبَّيْكَ)(١) فلهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وقال أنس: (خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ سِنِينَ، فما قال لي في شيء فَعَلْتُهُ لِمَ فَعَلْتَ، وَلاَ فِي شَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ هَلاَّ فَعَلْتَ)(٢) وأقول: إن الله تعالى وصف ما يرجع إلى قوته النظرية بأنه عظيم، فقال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[النساء: ١١٣] ووصف ما يرجع إلى قوته العملية بأنه عظيم فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ فلم يبق للإنسان بعد هاتين القوتين شيء، فدل مجموع هاتين الآيتين على أن روحه فيما بين الأرواح البشرية كانت عظيمة عالية الدرجة، كأنها لقوتها وشدة كمالها كانت من جنس أرواح الملائكة.

واعلم أنه تعالى لما وصفه بأنه على خلق عظيم قال:

قوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾: أي فسترى يا محمد ويرون يعني المشركين، وفيه قولان: منهم من حمل ذلك على أحوال الدنيا، يعني فستبصر ويبصرون في الدنيا أنه كيف يكون عاقبة أمرك وعاقبة أمرهم، فإنك تصير معظمًا في القلوب، ويصيرون ذليلين ملعونين، وتستولي عليهم بالقتل والنهب، قال مقاتل: هذا وعيد بالعذاب ببدر، ومنهم من حمله على أحوال الآخرة وهو كقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾[القمر: ٢٦].

وأما قوله تعالى: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ ففيه وجوه:

أحدها: وهو قول الأخفش وأبي عبيدة وابن قتيبة: أن الباء صلة زائدة، والمعنى: أيكم المفتون وهو الذي فتن بالجنون كقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾[المؤمنون: ٢٠] أي تنبت الدهن وأنشد أبو عبيدة:

نَضْرِبُ بِالسَّيْفِ وَنَرْجُو بِالْفَرَجْ(٣)

والفراء طعن في هذا الجواب وقال: إذا أمكن فيه بيان المعنى الصحيح من دون طرح الباء كان ذلك أولى، وأما البيت فمعناه نرجو كشف ما نحن فيه بالفرج أو نرجو النصر بالفرج وثانيها: وهو اختيار الفراء والمبرد أن المفتون هاهنا بمعنى الفتون وهو الجنون، والمصادر

---

(١) صحيح: أبو الشيخ في (أخلاق النبي ﷺ) (١/ ٣/ ٢) الواحدي في (أسباب النزول) (١/ ٢٩٣) كلاهما من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة. . . به.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (المناقب) باب (صفة النبي ﷺ) (٦/ ٦٥٤) حديث رقم (٣٥٦١) قال: حدثنا سليمان بن حرب وأحمد في (مسنده) (٣/ ٢٢٧) قال: حدثنا يونس والدارمي في كتاب (المقدمة) باب (في حُسن النبي ﷺ) (١/ ٣٢) حديث رقم (٦٢) قال: حدثنا أبو النعمان. جميعًا (سلمان، يونس، أبو النعمان) عن حماد بن زيد. . . به.

(٣) أبو عبيدة تقدمت ترجمته.

تجيء على المفعول نحو المعقود والميسور بمعنى العقد واليسر، يقال: ليس له معقود رأي أي عقد رأى، وهذا قول الحسن والضحاك ورواية عطية عن ابن عباس، وثالثها: أن الباء بمعنى (في) ومعنى الآية: فستبصر ويبصرون في أي الفريقين المجنون، أفي فرقة الإسلام أم في فرقة الكفار، ورابعها: المفتون هو الشيطان إذ لا شك أنه مفتون في دينه وهم لما قالوا إنه مجنون فقد قالوا: إن به شيطانًا فقال تعالى: سيعلمون غدًا بأيهم شيطان الذي يحصل من مسه الجنون واختلاط العقل ثم قال تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ **وفيه وجهان:**

الأول: هو أن يكون المعنى: إن ربك هو أعلم بالمجانين على الحقيقة، وهم الذي ضلوا عن سبيله وهو أعلم بالعقلاء وهم المهتدون.

الثاني: أن يكون المعنى إنهم رموك بالجنون ووصفوا أنفسهم بالعقل وهم كذبوا في ذلك، ولكنهم موصوفون بالضلال، وأنت موصوف بالهداية والامتياز الحاصل بالهداية والضلال أولى بالرعاية من الامتياز الحاصل بسبب العقل والجنون، لأن ذاك ثمرته السعادة الأبدية أو الشقاوة، وهذا ثمرته السعادة أو الشقاوة في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

اعلم أنه تعالى لما ذكر ما عليه الكفار في أمر الرسول ونسبته إلى الجنون مع الذي أنعم الله به عليه من الكمال في أمر الدين والخلق، أتبعه بما يدعوه إلى التشدد مع قومه وقوى قلبه بذلك مع قلة العدد وكثرة الكفار، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل فقال: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني رؤساء أهل مكة، وذلك أنهم دعوه إلى دين آبائه فنهاه الله أن يطيعهم، وهذا من الله إلهاب وتهييج للتشدد في مخالفتهم.

ثم قال: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: قال الليث: الإدهان: اللين والمصانعة والمقاربة في الكلام، قال المبرد: داهن الرجل في دينه وداهن في أمره إذا خان فيه وأظهر خلاف ما يضمر، والمعنى تترك بعض ما أنت عليه مما لا يرضونه مصانعة لهم فيفعلوا مثل ذلك ويتركوا بعض مالا ترضى فتلين لهم ويلينون لك، وروى عطاء عن ابن عباس: لو تكفر فيكفرون.

المسألة الثانية: إنما رفع ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ ولم ينصب بإضمار أن وهو جواب التمني لأنه قد عدل به إلى طريق آخر وهو أن جعل خبر مبتدأ محذوف أي فهم يدهنون كقوله: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا

﴿يَخَافُ﴾[الجن: ١٣] على معنى: ودوا لو تدهن فهم يدهنون حينئذ، قال سيبويه: وزعم هارون وكان من القراء أنها في بعض المصاحف: (ودوا لو تدهن فيدهنوا). واعلم أنه تعالى لما نهاه عن طاعة المكذبين، وهذا يتناول النهي عن طاعة جميع الكفار إلا أنه أعاد النهي عن طاعة من كان من الكفار موصوفًا بصفات مذمومة وراء الكفر، وتلك الصفات هي هذه:

الصفة الأولى: كونه حلافًا، والحلاف: من كان كثير الحلف في الحق والباطل، وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف ومثله قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾[البقرة: ٢٢٤].

الصفة الثانية: كونه مهينًا، قال الزجاج: هو فعيل من المهانة، ثم فيه وجهان: أحدهما: أن المهانة هي القلة والحقارة في الرأي والتمييز، والثاني: أنه إنما كان مهينًا لأن المراد الحلاف في الكذب، والكذاب حقير عند الناس. وأقول: كونه حلافًا يدل على أنه لا يعرف عظمة الله تعالى وجلاله، إذ لو عرف ذلك لما أقدم في كل حين وأوان بسبب كل باطل على الاستشهاد باسمه وصفته ومن لم يكن عالمًا بعظمة الله وكان متعلق القلب بطلب الدنيا كان مهينًا، فهذا يدل على أن عزة النفس لا تحصل إلا لمن عرف نفسه بالعبودية، وأن مهانتها لا تحصل إلا لمن غفل عن سر العبودية.

الصفة الثالثة: كونه همازًا وهو العياب الطعان، قال المبرد: هو الذي يهمز الناس أي يذكرهم بالمكروه وأثر ذلك يظهر العيب، وعن الحسن يلوي شدقيه في أقفية الناس وقد استقصينا القول فيه في قوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾[الهمزة: ١].

الصفة الرابعة: كونه مشاء بنميم أي يمشي بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم، يقال: نَمَّ يَنُمُّ ويَنِمُّ نمًّا ونميمًا ونميمة.

الصفة الخامسة: كونه مناعًا للخير، وفيه قولان: أحدهما: أن المراد أنه بخيل والخير المال والثاني: كان يمنع أهله من الخير وهو الإسلام، وهذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان له عشرة من البنين وكان يقول لهم وما قاربهم: لئن تبع دين محمد منكم أحد لا أنفعه بشيء أبدًا فمنعهم الإسلام فهو الخير الذي منعهم، وعن ابن عباس: أنه أبو جهل وعن مجاهد: الأسود بن عبد يغوث، وعن السدي: الأخنس بن شريق.

الصفة السادسة: كونه معتديًا، قال مقاتل: معناه أنه ظلوم يتعدى الحق ويتجاوزه فيأتي بالظلم ويمكن حمله على جميع الأخلاق الذميمة يعني أنه نهاية في جميع القبائح والفضائح.

الصفة السابعة: كونه أثيمًا، وهو مبالغة في الإثم.

الصفة الثامنة: العتل وأقوال المفسرين فيه كثيرة، وهي محصورة في أمرين: أحدهما: أنه ذم في الخَلْق، والثاني: أنه ذم في الخُلُق، وهو مأخوذ من قولك: عَتَلَه إذا قاده بعنف وغلظة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾[الدخان: ٤٧] أما الذين حملوه على ذم الخَلْق فقال ابن عباس في رواية عطاء: يريد قوي ضخم. وقال مقاتل: واسع البطن، وثيق الخلق، وقال الحسن: الفاحش

الخَلْق، اللئيم النفس، وقال عبيدة بن عمير: هو الأكول الشروب، القوي الشديد، وقال الزجاج: هو الغليظ الجافي. أما الذين حملوه على ذم الأخلاق، فقالوا: إنه الشديد الخصومة، الفظ العنيف.

الصفة التاسعة: قوله: ﴿زَنِيمٍ﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: في الزنيم أقوال: الأول: قال الفراء: الزنيم هو الدعي الملصق بالقوم وليس منهم، قال حسان:

وَأَنْتَ زَنِيمٌ نِيطَ فِي آلِ هَاشِمٍ   كَمَا نِيطَ خَلْفَ الرَّاكِبِ القدح الفرد[1]

والزنمة من كل شيء: الزيادة، وزنمت الشاة أيضًا إذا شقت أذنها فاسترخت ويبست وبقيت كالشيء المعلق، فالحاصل أن الزنيم هو ولد الزنا الملحق بالقوم في النسب وليس منهم، وكان الوليد دعيًا في قريش وليس من سنخهم ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة لَيْلَةً من مولده. وقيل: بغت أمه ولم يعرف حتى نزلت هذه الآية، والقول الثاني: قال الشعبي: هو الرجل يعرف بالشر واللؤم كما تعرف الشاة بزنمتها، والقول الثالث: روى عن عكرمة عن ابن عباس قال: معنى كونه زنيمًا أنه كانت له زنمة في عنقه يعرف بها، وقال مقاتل: كان في أصل أذنه مثل زنمة الشاة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ معناه أنه بعدما عدَّ له من المثالب والنقائص فهو عتل زنيم وهذا يدل على أن هذين الوصفين وهو كونه عتلاً زنيمًا أشد معايبه لأنه إذا كان جافيًا غليظ الطبع قسا قلبه واجترأ على كل معصية، ولأن الغالب أن النطفة إذا خبثت خبث الولد، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَلَدُ الزِّنَا وَلاَ وَلَدُهُ وَلاَ وَلَدُ وَلَدِهِ» وقيل: هاهنا ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ نظير ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ١٧] وقرأ الحسن (عُتُلٌ) رفعًا على الذم.

ثم إنه تعالى بعد تعديد هذه الصفات قال:

قوله تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: اعلم أن قوله: ﴿أَن كَانَ﴾ يجوز أن يكون متعلقًا بما قبله وأن يكون متعلقًا بما بعده، أما الأول: فتقديره: ولا تطع كل حلاف مهين أن كان ذا مال وبنين، أي لا تطعه مع هذه المثالب ليساره وأولاده وكثرته، وأما الثاني: فتقديره لأجل أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال: أساطير الأولين، والمعنى لأجل أن كان ذا مال وبنين جعل مجازاة هذه النعم التي خولها الله له الكفر بآياته قال أبو علي الفارسي: العامل في قوله: ﴿أَن كَانَ﴾ إما أن يكون هو قوله: ﴿تُتْلَىٰ﴾ أو قوله ﴿قَالَ﴾. أو شيئًا ثالثًا، والأول باطل لأن ﴿تُتْلَىٰ﴾ قد أضيفت ﴿إِذَا﴾

(١) تقدمت ترجمة حسان.

إليه والمضاف إليه لا يعمل فيما قبله ألا ترى أنك لا تقول: القتال زيدًا حين يأتي تريد حين يأتي زيدًا، ولا يجوز أن يعمل فيه أيضًا ﴿قَالَ﴾ لأن ﴿قَالَ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾، وحكم الجواب أن يكون بعدما هو جواب له ولا يتقدم عليه، ولما بطل هذان القسمان علمنا أن العامل فيه شيء ثالث دل ما في الكلام عليه وذلك هو يجحد أو يكفر أو يمسك عن قبول الحق أو نحو ذلك، وإنما جاز أن يعمل المعنى فيه، وإن كان متقدمًا عليه لشبهه بالظرف، والظرف قد تعمل فيه المعاني وإن تقدم عليها، ويدلك على مشابهته للظرف تقدير اللام معه، فإن تقدير الآية: لأن كان ذا مال وإذا صار كالظرف لم يمتنع المعنى من أن يعمل فيه، كما لم يمتنع من أن يعمل في نحو قوله: ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧] لما كان ظرفًا، والعامل فيه القسم الدال عليه قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧] فكذلك قوله: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ تقديره: إنه جحد آياتنا، لأن كان ذا مال وبنين أو كفر بآياتنا، لأن كان ذا مال وبنين.

المسألة الثانية: قرئ: (أَأَنْ كَانَ) على الاستفهام، والتقدير: ألأن كان ذا مال كذب، أو التقدير: أتطيعه لأن كان ذا مال. وروى الزهري عن نافع: إن كان بالكسر، والشرط للمخاطب، أي لا تطع كل حلاف شارطًا يساره، لأنه إذا أطاع الكافر لغناه فكأنه اشترط في الطاعة الغنى، ونظير صرف الشرط إلى المخاطب صرف الترجي إليه في قوله: ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه: ٤٤].

واعلم أنه تعالى لما حكى عنه قبائح أفعاله وأقواله قال متوعدًا له:

قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الوسم: أثر الكية وما يشبهها، يقال: وسمتُه فهو موسوم بسمة يعرف بها إما كية، وإما قطع في أذن علامة له.

المسألة الثانية: قال المبرد: الخرطوم هاهنا الأنف، وإنما ذكر هذا اللفظ على سبيل الاستخفاف به، لأن التعبير عن أعضاء الناس بالأسماء الموضوعة لأشباه تلك الأعضاء من الحيوانات يكون استخفافًا، كما يعبر عن شفاه الناس بالمشافر، وعن أيديهم وأرجلهم بالأظلاف والحوافر.

المسألة الثالثة: الوجه أكرم موضع في الجسد، والأنف أكرم موضع من الوجه لارتفاعه عليه، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية، واشتقوا منه الأنفة، وقالوا: الأنف في الأنف وحمى أنفه، وفلان شامخ العرنين، وقالوا في الذليل: جدع أنفه، ورغم أنفه، فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة، لأن السمة على الوجه شين، فكيف على أكرم موضع من الوجه.

المسألة الرابعة: منهم من قال: هذا الوسم يحصل في الآخرة، ومنهم من قال: يحصل في

الدنيا، أما على القول الأول: ففيه وجوه: أولها: وهو قول مقاتل وأبي العالية واختيار الفراء: أن المراد أنه يسود وجهه قبل دخول النار، والخرطوم وإن كان قد خص بالسمة فإن المراد هو الوجه لأن بعض الوجه يؤدي عن بعض، وثانيها: أن الله تعالى سيجعل له في الآخرة العلم الذي يعرف به أهل القيامة، إنه كان غاليًا في عداوة الرسول، وفي إنكار الدين الحق، وثالثها: أن في الآية احتمالاً آخر عندي، وهو أن ذلك الكافر إنما بالغ في عداوة الرسول وفي الطعن في الدين الحق بسبب الأنفة والحمية، فلما كان منشأ هذا الإنكار هو الأنفة والحمية كان منشأ عذاب الآخرة هو هذه الأنفة والحمية، فعبر عن هذا الاختصاص بقوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾، وأما على القول الثاني: وهو أن هذا الوسم إنما يحصل في الدنيا: ففيه وجوه: أحدها: قال ابن عباس: سنخطمه بالسيف فنجعل ذلك علامة باقية على أنفه ما عاش. وروي أنه قاتل يوم بدر فخطم بالسيف في القتال، وثانيها: أن معنى هذا الوسم أنه يصير مشهورًا بالذكر الرديء والوصف القبيح في العالم، والمعنى سنلحق به شيئًا لا يفارقه ونبين أمره بيانًا واضحًا حتى لا يخفى كما لا تخفى السمة على الخراطيم، تقول العرب للرجل الذي تسبه في مسبة قبيحة باقية فاحشة: قد وسمه ميسم سوء، والمراد أنه ألصق به عارًا لا يفارقه كما أن السمة لا تنمحي ولا تزول ألبتة، قال جرير:

لَمَّا وَضَعْتُ عَلَى الْفَرَزْدَقِ مِيسَمِي ... وَعَلَى الْبَعِيثِ جَدَعْتُ أَنْفَ الأَخْطَلِ(١)

يريد أنه وسم الفرزدق وَالْبَعِيثَ وجدع أنف الأخطل بالهجاء أي ألقى عليه عارًا لا يزول، ولا شك أن هذه المبالغة العظيمة في مذمة الوليد بن المغيرة بقيت على وجه الدهر فكان ذلك كالميسم على الخرطوم، ومما يشهد لهذا الوجه قول من قال في ﴿زَنِيمٍ﴾[القلم: ١٣] إنه يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها، وثالثها: يروى عن النضر بن شميل أن الخرطوم هو الخمر وأنشد:

تَظَلُّ يَوْمَكَ فِي لَهْوٍ وَفِي طَرَبٍ ... وَأَنْتَ بِاللَّيْلِ شَرَّابُ الْخَرَاطِيمِ(٢)

فعلى هذا معنى الآية: سنحده على شرب الخمر وهو تعسف، وقيل للخمر الخرطوم كما يقال لها السلافة، وهي ما سلف من عصير العنب، أو لأنها تطير في الخياشيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما قال: لأجل أن كان ذا مال وبنين، جحد وكفر وعصى وتمرد، وكان هذا استفهامًا على سبيل الإنكار بيّن في هذه الآية أنه تعالى إنما أعطاه المال والبنين على سبيل

(١) تقدمت ترجمة جرير.

(٢) النضر بن شميل (١٢٢-٢٠٣هـ = ٧٤٠-٨١٩م) وهو: النضر بن شميل بن خرشة بن يزيد المازني التميمي، أبو الحسن: أحد الأعلام بمعرفة أيام العرب ورواية الحديث وفقه اللغة. ولد بمرو (من بلاد خراسان) وانتقل إلى البصرة مع أبيه (سنة ١٢٨) وأصله منها، فأقام زمنًا. وعاد إلى مرو فولي قضاءها واتصل بالمأمون العباسي فأكرمه وقربه. وتوفي بمرو.

الابتلاء والامتحان، وليصرفه إلى طاعة الله، وليواظب على شكر نعم الله، فإن لم يفعل ذلك فإنه تعالى يقطع عنه تلك النعم، ويصب عليه أنواع البلاء والآفات فقال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي كلفنا هؤلاء أن يشكروا على النعم، كما كلفنا أصحاب الجنة ذات الثمار، أن يشكروا ويعطوا الفقراء حقوقهم، روي أن واحدًا من ثقيف وكان مسلمًا، كان يملك ضيعة فيها نخل وزرع بقرب صنعاء، وكان يجعل من كل ما فيها عند الحصاد نصيبًا وافرًا للفقراء، فلما مات ورثها منه بنوه، ثم قالوا: عيالنا كثير، والمال قليل، ولا يمكننا أن نعطي المساكين، مثل ما كان يفعل أبونا، فأحرق الله جنتهم، وقيل: كانوا من بني إسرائيل، وقوله: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟﴾ إذ حلفوا: ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ ليقطعن ثمر نخيلهم مصبحين، أي في وقت الصباح، قال مقاتل: معناه أغدوا سرًّا إلى جنتكم، فاصرموها، ولا تخبروا المساكين، وكان أبوهم يخبر المساكين، فيجتمعون عند صرام جنتهم، يقال: قد صرم العذق عن النخلة، وأصرم النخل إذا حان وقت صرامه، وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ يعني ولم يقولوا: إن شاء الله، هذا قول جماعة المفسرين، يقال: حلف فلان يمينًا ليس فيها ثنيا ولا ثنوى، ولا ثنية ولا مثنوية ولا استثناء وكله واحد، وأصل هذا كله من الثني وهو الكف والرد، وذلك أن الحالف إذا قال: والله لأفعلن كذا إلا أن يشاء الله غيره، فقد رد انعقاد ذلك اليمين، واختلفوا في قوله: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ فالأكثرون أنهم إنما لم يستثنوا بمشيئة الله تعالى لأنهم كانوا كالواثقين بأنهم يتمكنون من ذلك لا محالة، وقال آخرون: بل المراد أنهم يصرمون كل ذلك ولا يستثنون للمساكين من جملة ذلك القدر الذي كان يدفعه أبوهم إلى المساكين.

قوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي عذاب من ربك، والطائف لا يكون إلا ليلًا أي طرقها طارق من عذاب الله، قال الكلبي: أرسل الله عليها نارًا من السماء فاحترقت وهم نائمون فأصبحت الجنة كالصريم.

واعلم أن الصريم فعيل، فيحتمل أن يكون بمعنى المفعول، وأن يكون بمعنى الفاعل وهاهنا احتمالات أحدها: أنها لما احترقت كانت شبيهة بالمصرومة في هلاك الثمر وإن حصل الاختلاف في أمور أخر، فإن الأشجار إذا احترقت فإنها لا تشبه الأشجار التي قطعت ثمارها، إلا أن هذا الاختلاف وإن حصل من هذا الوجه، لكن المشابهة في هلاك الثمر حاصلة، وثانيها: قال الحسن: أي صرم عنها الخير فليس فيها شيء، وعلى هذين الوجهين الصريم بمعنى المصروم، وثالثها: الصريم من الرمل قطعة ضخمة تنصرم عن سائر الرمال وجمعه الصرائم، وعلى هذا شبهت الجنة وهي محترقة لا ثمر فيها ولا خير بالرملة المنقطعة عن الرمال، وهي لا تنبت شيئًا ينتفع به، ورابعها: الصبح يسمى صريمًا لأنه انصرم من الليل، والمعنى أن تلك الجنة

يبست وذهبت خضرتها ولم يبق فيها شيء، من قولهم: بيض الإناء إذا فرغه، وخامسها: أنها لما احترقت صارت سوداء كالليل المظلم، والليل يسمى صريمًا وكذا النهار يسمى أيضًا صريمًا، لأن كل واحد منهما ينصرم بالآخر، وعلى هذا الصريم بمعنى الصارم، وقال قوم: سمي الليل صريمًا، لأنه يقطع بظلمته عن التصرف وعلى هذا هو فعيل بمعنى فاعل، وقال آخرون: سميت الليلة بالصريم، لأنها تصرم نور البصر وتقطعه.

ثم قال تعالى: ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

قال مقاتل: لما أصبحوا قال بعضهم لبعض: اغدوا على حرثكم ويعني بالحرث الثمار والزروع والأعناب، ولذلك قال: صارمين لأنهم أرادوا قطع الثمار من هذه الأشجار. فإن قيل: لِمَ لم يقل اغدوا إلى حرثكم، وما معنى على؟ قلنا: لما كان الغدو إليه ليصرموه ويقطعوه كان غدوًّا عليه كما تقول: غدا عليهم العدو، ويجوز أن يضمن الغدو معنى الإقبال، كقولهم: يغدي عليهم بالجفنة ويراح، أي فأقبلوا على حرثكم باكرين.

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ أي يتسارون فيما بينهم، وخفي وخفت وخفد ثلاثتها في معنى كتم ومنه الخفدود للخفاش، قال ابن عباس: غدوا إليها بسدفة يسر بعضهم إلى بعض الكلام لئلا يعلم أحد من الفقراء والمساكين.

ثم قال تعالى: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ ﴿أَن﴾ مفسرة، وقرأ ابن مسعود بطرحها بإضمار القول أي يتخافتون يقولون لا يَدْخُلَنَّها والنهي للمسكين عن الدخول نهي لهم عن تمكينه منه، أي لا تمكنوه من الدخول، كقولك لا أرينك هاهنا.

ثم قال: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ **وفيه أقوال:**

الأول: الحرد: المنع يقال: حاردت السنة إذا قل مطرها ومنعت ريعها، وحاردت الناقة إذا منعت لبنها فقل اللبن، والحرد: الغضب، وهما لغتان الحَرْد والحَرَد والتحريك أكثر، وإنما سمي الغضب بالحرد لأنه كالمانع من أن يدخل المغضوب منه في الوجود، والمعنى وغدوا وكانوا عند أنفسهم وفي ظنهم قادرين على منع المساكين، الثاني: قيل: الحرد القصد والسرعة، يقال: حردت حردك قال الشاعر:

أَقْبَلَ سَيْلٌ جَاءَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ... يَحْرِدُ حَرْدَ الْجَنَّةِ الْمُغِلَّهْ(١)

وقطًا حرَّاد أي سراع، يعني وغدوا قاصدين إلى جنتهم بسرعة ونشاط قادرين عند أنفسهم يقولون: نحن نقدر على صرامها، ومنع منفعتها عن المساكين، والثالث: قيل: حرد علم لتلك

---

(١) هذا البيت لحسان بن ثابت وتقدمت ترجمته.

الجنة أي غدوا على تلك الجنة قادرين على صرامها عند أنفسهم، أو مقدرين أن يتم لهم مرادهم من الصرام والحرمان.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ۝٢٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ **فيه وجوه:**

أحدها: أنهم لما رأوا جنتهم محترقة ظنوا أنهم قد ضلوا الطريق فقالوا: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ ثم لما تأملوا وعرفوا أنها هي قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ حرمنا خيرها بشؤم عزمنا على البخل ومنع الفقراء.

وثانيها: يحتمل أنهم لما رأوا جنتهم محترقة قالوا: إنا لضالون حيث كنا عازمين على منع الفقراء، وحيث كنا نعتقد كوننا قادرين على الانتفاع بها، بل الأمر انقلب علينا فصرنا نحن المحرومين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٢٩ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ يعني أعدلهم وأفضلهم وبينا وجهه في تفسير قوله: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ يعني هلا تسبحون، وفيه وجوه: الأول: قال الأكثرون: معناه هلا تستثنون فتقولون: إن شاء الله، لأن الله تعالى إنما عابهم بأنهم لا يستثنون، وإنما جاز تسمية قول: إن شاء الله بالتسبيح لأن التسبيح عبارة عن تنزيه الله عن كل سوء، فلو دخل شيء في الوجود على خلاف إرادة الله، لكان ذلك يوجب عودة نقص إلى قدرة الله، فقولك: إن شاء الله، يزيل هذا النقص، فكان ذلك تسبيحًا.

واعلم أن لفظ القرآن يدل على أن القوم كانوا يحلفون ويتركون الاستثناء وكان أوسطهم ينهاهم عن ترك الاستثناء ويخوفهم من عذاب الله، فلهذا حكى عن ذلك الأوسط أنه قال بعد وقوع الواقعة: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾. الثاني: أن القوم حين عزموا على منع الزكاة واغتروا بمالهم وقوتهم قال الأوسط لهم: توبوا عن هذه المعصية قبل نزول العذاب، فلما رأوا العذاب ذكرهم ذلك الكلام الأول وقال: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ فلا جرم اشتغل القوم في الحال بالتوبة: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فتكلموا بما كان يدعوهم إلى التكلم به لكن بعد خراب البصرة، الثالث: قال الحسن: هذا التسبيح هو الصلاة كأنهم كانوا يتكاسلون في الصلاة وإلا لكانت ناهية لهم عن الفحشاء والمنكر ولكانت داعية لهم إلى أن يواظبوا على ذكر الله وعلى قول: إن شاء الله، ثم إنه تعالى لما حكى عن ذلك الأوسط أنه أمرهم بالتوبة وبالتسبيح حكى عنهم أشياء أولها: أنهم اشتغلوا بالتسبيح وقالوا في الحال ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ عن أن يجري في ملكه شيء إلا بإرادته ومشيئته، ولما وصفوا الله تعالى بالتنزيه والتقديس اعترفوا بسوء أفعالهم وقالوا ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

وثانيها: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ أي يلوم بعضهم بعضًا يقول: هذا لهذا أنت أشرت

علينا بهذا الرأي، ويقول: ذاك لهذا أنت خوفتنا بالفقر، ويقول الثالث لغيره: أنت الذي رغبتني في جمع المال فهذا هو التلاوم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ۝٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ۝٣٢ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٣٣ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٣٤﴾

ثم نادوا على أنفسهم بالويل: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ والمراد أنهم استعظموا جرمهم. ثم قالوا عند ذلك ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ قرئ (يُبْدِلَنا) بالتخفيف والتشديد ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ طالبون منه الخير راجون لعفوه، واختلف العلماء هاهنا، فمنهم من قال: إن ذلك كان توبة منهم، وتوقف بعضهم في ذلك قالوا: لأن هذا الكلام يحتمل أنهم إنما قالوه رغبة منهم في الدنيا.

ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ يعني كما ذكرنا من إحراقها بالنار، وهاهنا تم الكلام في قصة أصحاب الجنة، واعلم أن المقصود من ذكر هذه القصة أمران: أحدهما: أنه تعالى قال: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٤، ١٥] والمعنى: لأجل أن أعطاه المال والبنين كفر بالله كلا بل الله تعالى إنما أعطاه ذلك للابتلاء، فإذا صرفه إلى الكفر دمَّر الله عليه بدليل أن أصحاب الجنة لما أتوا بهذا القدر اليسير من المعصية دمر الله جنتهم فكيف يكون الحال في حق من عاند الرسول وأصر على الكفر والمعصية، والثاني: أن أصحاب الجنة خرجوا لينتفعوا بالجنة ويمنعوا الفقراء عنها فقلب الله عليهم القضية فكذا أهل مكة لما خرجوا إلى بدر حلفوا على أن يقتلوا محمدًا وأصحابه، وإذا رجعوا إلى مكة طافوا بالكعبة وشربوا الخمور، فأخلف الله ظنهم فقُتِلُوا وأُسِرُوا كأهل هذه الجنة، ثم إنه لما خوف الكفار بعذاب الدنيا قال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ وهو ظاهر لا حاجة به إلى التفسير.

ثم إنه تعالى ذكر بعد ذلك أحوال السعداء فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي في الآخرة ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي جنات ليس لهم فيها إلا التنعم الخالص لا يشوبه ما ينغصه، كما يشوب جنات الدنيا، قال مقاتل: لما نزلت هذه الآية قال كفار مكة للمسلمين: إن الله تعالى فضلنا عليكم في الدنيا، فلا بد وأن يفضلنا عليكم في الآخرة، فإن لم يحصل التفضيل، فلا أقل من المساواة.

قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۝٣٧ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝٣٨﴾

ثم إنَّ الله تعالى أجاب عن هذا الكلام بقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ومعنى الكلام أن التسوية بين المطيع والعاصي غير جائزة، **وفي الآية مسائل:**

المسألة الأولى: قال القاضي: فيه دليل واضح على أن وصف الإنسان بأنه مسلم ومجرم كالمتنافي، فالفاسق لما كان مجرمًا وجب أن لا يكون مسلمًا، والجواب: أنه تعالى أنكر جعل المسلم مثلاً للمجرم، ولا شك أنه ليس المراد إنكار المماثلة في جميع الأمور، فإنهما يتماثلان في الجوهرية والجسمية والحدوث والحيوانية، وغيرها من الأمور الكثيرة، بل المراد إنكار استوائهما في الإسلام والجرم، أو في آثار هذين الأمرين، أو المراد إنكار أن يكون أثر إسلام المسلم مساويًا لأثر جرم المجرم عند الله، وهذا مسلم لا نزاع فيه، فمن أين يدل على أن الشخص الواحد يمتنع أن يجتمع فيه كونه مسلمًا ومجرمًا؟.

المسألة الثانية: قال الجبائي: دلت الآية على أن المجرم لا يكون ألبتة في الجنة؛ لأنه تعالى أنكر حصول التسوية بينهما، ولو حصلا في الجنة، لحصلت التسوية بينهما في الثواب، بل لعله يكون ثواب المجرم أزيد من ثواب المسلم إذا كان المجرم أطول عمرًا من المسلم، وكانت طاعاته غير محبطة، الجواب: هذا ضعيف لأنا بينا أن الآية لا تمنع من حصول التسوية في شيء أصلاً بل تمنع من حصول التسوية في درجة الثواب، ولعلهما يستويان فيه بل يكون ثواب المسلم الذي لم يعص أكثر من ثواب من عصى، على أنا نقول: لِمَ لا يجوز أن يكون المراد من المجرمين هم الكفار الذين حكى الله عنهم هذه الواقعة وذلك لأن حمل الجمع المحلى بالألف واللام على المعهود السابق مشهور في اللغة والعرف.

المسألة الثالثة: أن الله تعالى استنكر التسوية بين المسلمين والمجرمين في الثواب، فدل هذا على أنه يقبح عقلاً ما يحكى عن أهل السنة أنه يجوز أن يدخل الكفار في الجنة والمطيعين في النار، والجواب: أنه تعالى استنكر ذلك بحكم الفضل والإحسان، لا أن ذلك بسبب أن أحدًا يستحق عليه شيئًا.

واعلم أنه تعالى لما قال على سبيل الاستبعاد: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ قرر هذا الاستبعاد بأن قال على طريقة الالتفات: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم المعوج ثم قال ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۝٣٧ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ وهو كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ۝١٥٦ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ﴾ [الصافات: ١٥٦] والأصل تدرسون أن لكم ما تتخيرون بفتح أن لأنه مدرس، فلما جاءت اللام كسرت، وتخير الشيء واختاره، أي أخذ خيره ونحوه تنخله وانتخله إذا أخذ منخوله.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ۝٣٩ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝٤٠ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ۝٤١ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٤٢﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: يقال لفلان: عليَّ يمين بكذا إذا ضمنته منه وحَلفت له على الوفاء به يعني أم

ضمنا منكم وأقسمنا لكم بأيمان مغلظة متناهية في التوكيد. فإن قيل: إلى في قوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بم يتعلق؟ قلنا: فيه وجهان: الأول: أنها متعلقة بقوله: ﴿بَالِغَةٌ﴾ أي هذه الأيمان في قوتها وكمالها بحيث تبلغ إلى يوم القيامة، والثاني: أن يكون التقدير أيمان ثابتة إلى يوم القيامة. ويكون معنى بالغة مؤكدة كما تقول جيدة بالغة، وكل شيء متناه في الصحة والجودة فهو بالغ، وأما قوله: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ فهو جواب القسم لأن معنى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا﴾ أم أقسمنا لكم.

المسألة الثانية: قرأ الحسن: (بَالِغَةً) بالنصب وهو نصب على الحال من الضمير في الظرف، ثم قال للرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ والمعنى أيهم بذلك الحكم زعيم، أي قائم به وبالاستدلال على صحته، كما يقوم زعيم القوم بإصلاح أمورهم.

ثم قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ وفي تفسيره وجهان: الأول: المعنى أم لهم أشياء يعتقدون أنها شركاء الله فيعتقدون أن أولئك الشركاء يجعلونهم في الآخرة مثل المؤمنين في الثواب والخلاص من العقاب، وإنما أضاف الشركاء إليهم لأنهم جعلوها شركاء لله وهذا كقوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ [الروم: ٤٠]، الوجه الثاني: في المعنى: أم لهم ناس يشاركونهم في هذا المذهب وهو التسوية بين المسلمين والمجرمين، فليأتوا بهم إن كانوا صادقين في دعواهم، والمراد بيان أنه كما ليس لهم دليل عقلي في إثبات هذا المذهب، ولا دليل نقلي وهو كتاب يدرسونه، فليس لهم من يوافقهم من العقلاء على هذا القول، وذلك يدل على أنه باطل من كل الوجوه.

واعلم أنه تعالى لما أبطل قولهم، وأفسد مقالتهم شرح بعد ذلك عظمة يوم القيامة.

فقال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ **وفيه مسائل**:

المسألة الأولى: يوم منصوب بماذا؟ فيه ثلاثة أوجه: أحدها: أنه منصوب، بقوله: ﴿فَلْيَأْتُوا﴾ في قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ [القلم: ٤١] وذلك أن ذلك اليوم يوم شديد، فكأنه تعالى قال: إن كانوا صادقين في أنها شركاء فليأتوا بها يوم القيامة، لتنفعهم وتشفع لهم، وثانيها: أنه منصوب بإضمار: اذكر، وثالثها: أن يكون التقدير: يوم يكشف عن ساق، كان كيت وكيت فحذف للتهويل البليغ، وأن ثم من الكوائن مالا يوصف لعظمته.

المسألة الثانية: هذا اليوم الذي يكشف فيه عن ساق، أهو يوم القيامة أو في الدنيا؟ فيه قولان: الأول: وهو الذي عليه الجمهور، أنه يوم القيامة، ثم في تفسير الساق وجوه: الأول: أنه الشدة، وروي أنه سئل ابن عباس عن هذه الآية، فقال: إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر، فإنه ديوان العرب، أما سمعتم قول الشاعر:

سَنَّ لَنَا قَوْمُكَ ضَرْبَ الأَعْنَاقِ وَقَامَتِ الْحَرْبُ بِنَا عَلَى سَاقِ

ثم قال: وهو كرب وشدة، وروى مجاهد عنه قال: هو أشد ساعة في القيامة، وأنشد أهل اللغة أبياتًا كثيرة منها:

فَإِنْ شمرت لك عن ساقها فدنها رَبِيعَ وَلاَ تَسْأَمِ

ومنها:

كَشَفَتْ لَكُمْ عَنْ سَاقِهَا وَبَدَا مِنَ الشَّرِّ الصُّرَاحُ

وقال جرير:

أَلاَ رُبَّ سَامِ الطَّرْفِ مِنْ آلِ مَازِنٍ إِذَا شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ شَمَّرَا

وقال آخر:

فِي سَنَةٍ قَدْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا حَمْرَاءُ تَبْرِي اللَّحْمَ عَنْ عُرَاقِهَا

وقال آخر:

قَدْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا فَشُدُّوا وَجَدَّتِ الْحَرْبُ بِكُمْ فَجِدُّوا

ثم قال ابن قتيبة: أصل هذا أن الرجل إذاوقع في أمر عظيم يحتاج إلى الجد فيه، يشمر عن ساقه، فلا جرم يقال في موضع الشدة: كشف عن ساقه، واعلم أن هذا اعتراف من أهل اللغة بأن استعمال الساق في الشدة مجاز، وأجمع العلماء على أنه لا يجوز صرف الكلام إلى المجاز إلا بعد تعذر حمله على الحقيقة، فإذا أقمنا الدلائل القاطعة على أنه تعالى يستحيل أن يكون جسمًا، فحينئذ يجب صرف اللفظ إلى المجاز، واعلم أن صاحب (الكشاف) أورد هذا التأويل في معرض آخر فقال: الكشف عن الساق مَثَلٌ في شدة الأمر، فمعنى قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ يوم يشتد الأمر ويتفاقم، ولا كشف ثم، ولا ساق، كما تقول للأقطع الشحيح: يده مغلولة، ولا يد ثم ولا غل وإنما هو مثل في البخل، ثم أخذ يعظم علم البيان ويقول: لولاه لما وقفنا على هذه الأسرار وأقول: إما أن يدعى أنه صرف اللفظ عن ظاهره بغير دليل، أو يقول: إنه لا يجوز ذلك إلا بعد امتناع حمله على الحقيقة، والأول باطل بإجماع المسلمين، ولأنا إن جوزنا ذلك انفتحت أبواب تأويلات الفلاسفة في أمر المعاد فإنهم يقولون في قوله: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥] ليس هناك لا أنهار ولا أشجار، وإنما هو مثل للذة والسعادة، ويقولون في قوله: ﴿ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ [الحج: ٧٧] ليس هناك لا سجود ولا ركوع. وإنما هو مثل للتعظيم، ومعلوم أن ذلك يفضي إلى رفع الشرائع وفساد الدين، وأما إن قال: بأنه لا يصار إلى هذا التأويل إلا بعد قيام الدلالة على أنه لا يجوز حمله على ظاهره، فهذا هو الذي لم يزل كل أحد من المتكلمين إلا قال به وعول عليه، فأين هذه الدقائق، التي استبد هو بمعرفتها والاطلاع عليها بواسطة علم البيان، فرحم الله امْرَأً عرف قدره، وما تجاوز طوره، القول الثاني: وهو قول أبي سعيد الضرير: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، أي عن أصل الأمر، وساق الشيء أصله الذي به قوامه كساق الشجر، وساق الإنسان، أي يظهر يوم القيامة حقائق الأشياء وأصولها، القول الثالث: يوم يكشف عن ساق جهنم، أو عن ساق العرش، أو عن ساق ملك مهيب عظيم، واللفظ لا يدل إلا على ساق، فأما أن ذلك الساق ساق أي شيء هو فليس في اللفظ ما يدل عليه، والقول

الرابع: وهو اختيار المشبهة، أنه ساق الله، تعالى الله عنه روي عن ابن مسعود عنه عليه الصلاة والسلام: «أَنَّهُ تَعَالَى يَتَمَثَّلُ لِلْخَلْقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَمُرُّ الْمُسْلِمُونَ، فَيَقُولُ: مَنْ تَعْبُدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعْبُدُ اللَّهَ فَيُشْهِدُهُمْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ثُمَّ يَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ رَبَّكُمْ، فَيَقُولُونَ: سُبْحَانَهُ إِذَا عَرَّفَنَا نَفْسَهُ عَرَفْنَاهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَكْشِفُ عَنْ سَاقٍ، فَلَا يَبْقَى مُؤْمِنٌ إِلاَّ خَرَّ سَاجِدًا، وَيَبْقَى الْمُنَافِقُونَ ظُهُورُهُمْ كَالطَّبَقِ الْوَاحِدِ كَأَنَّمَا فِيهَا السَّفَافِيدُ»(١) واعلم أن هذا القول باطل لوجوه: أحدها: أن الدلائل دلت على أن كل جسم محدث؛ لأن كل جسم متناهٍ، وكل متناه محدث ولأن كل جسم فإنه لا ينفك عن الحركة والسكون، وكل ما كان كذلك فهو محدث، ولأن كل جسم ممكن، وكل ممكن محدث، وثانيها: أنه لو كان المراد ذلك لكان من حق الساق أن يعرَّف، لأنها ساق مخصوصة معهودة عنده وهي ساق الرحمن، أما لو حملناه على الشدة، ففائدة التنكير الدلالة على التعظيم، كأنه قيل: يوم يكشف عن شدة، وأي شدة، أي شدة لا يمكن وصفها، وثالثها: أن التعريف لا يحصل بالكشف عن الساق، وإنما يحصل بكشف الوجه، القول الثاني: أن قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ ليس المراد منه يوم القيامة، بل هو في الدنيا، وهذا قول أبي مسلم قال: إنه لا يمكن حمله على يوم القيامة لأنه تعالى قال في وصف هذا اليوم: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ ويوم القيامة ليس فيه تعبد ولا تكليف، بل المراد منه، إما آخر أيام الرجل في دنياه كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ﴾[الفرقان: ٢٢] ثم إنه يرى الناس يدعون إلى الصلوات إذا حضرت أوقاتها، وهو لا يستطيع الصلاة لأنه الوقت الذي لا ينفع نفسًا إيمانها، وإما حال الهرم والمرض والعجز وقد كانوا قبل ذلك اليوم يدعون إلى السجود وهم سالمون مما بهم الآن، وإما من الشدة النازلة بهم من هول ما عاينوا عند الموت أو من العجز والهرم، ونظير هذه الآية قوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾[الواقعة: ٨٣] واعلم أنه لا نزاع في أنه يمكن حمل اللفظ على ما قاله أبو مسلم، فأما قوله: إنه لا يمكن حمله على القيامة بسبب أن الأمر بالسجود حاصل هاهنا، والتكاليف زائلة يوم القيامة فجوابه أن ذلك لا يكون على سبيل التكليف، بل على سبيل التقريع والتخجيل، فلم قلتم: إن ذلك غير جائز.

المسألة الثالثة: قرئ: (يَوْمَ نَكْشِفُ) بالنون و(تكشف) بالتاء المنقوطة من فوق على البناء للفاعل والمفعول جميعًا والفعل للساعة أو للحال، أي يوم يشتد الحال أو الساعة، كما تقول: كشف الحرب عن ساقها على المجاز. وقرئ (تُكْشِفُ) بالتاء المضمومة وكسر الشين من أكشف إذا دخل في الكشف، ومنه أكشف الرجل فهو مكشف إذا انقلبت شفته العليا.

---

(١) أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٤/ ٥٤١) حديث رقم (٨٥١٩) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وحنبل بن إسحاق في (الفتن) (١/ ٤٥/ ٤٤) الطبري في (تفسيره) (٢٣/ ٥٥٥) جميعًا من طريق سلمة بن كهيل قال حدثنا أبو الزهراء عن عبد الله. . . به.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٤٢ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ۝٤٣ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤﴾

اعلم أنا بينا أنهم لا يدعون إلى السجود تعبدًا وتكليفًا، ولكن توبيخًا وتعنيفًا على تركهم السجود في الدنيا، ثم إنه تعالى حال ما يدعوهم إلى السجود يسلب عنهم القدرة على السجود، ويحول بينهم وبين الاستطاعة حتى تزداد حسرتهم وندامتهم على ما فرطوا فيه، حين دعوا إلى السجود وهم سالمو الأطراف والمفاصل. قال الجبائي: لما خصص عدم الاستطاعة بالآخرة دل ذلك على أنهم في الدنيا كانوا يستطيعون، فبطل بهذا قول من قال: الكافر لا قدرة له على الإيمان، وأن القدرة على الإيمان لا تحصل إلا حال وجود الإيمان، والجواب عنه أن علم الله بأنه لا يؤمن مناف لوجود الإيمان والجمع بين المتنافيين محال، فالاستطاعة في الدنيا أيضًا غير حاصلة على قول الجبائي.

أما قوله: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ فهو حال من قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يعني يلحقهم ذل بسبب أنهم ما كانوا مواظبين على خدمة مولاهم مثل العبد الذي أعرض عنه مولاه، فإنه يكون ذليلًا فيما بين الناس، وقوله: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ يعني حين كانوا يدعون إلى الصلوات بالأذان والإقامة وكانوا سالمين قادرين على الصلاة، وفي هذا وعيد لمن قعد عن الجماعة ولم يُجِبِ المؤذن إلى إقامة الصلاة في الجماعة.

قوله تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

اعلم أنه تعالى لما خوف الكفار بعظمة يوم القيامة زاد في التخويف فخوفهم بما عنده، وفي قدرته من القهر، فقال: ذرني وإياه، يريد كِلْه إليَّ، فإني أكفيكه، كأنه يقول: يا محمد حسبك انتقامًا منه أن تكل أمره إليَّ، وتخلي بيني وبينه، فإني عالم بما يجب أن يفعل به قادر على ذلك، ثم قال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ يقال: استدرجه إلى كذا إذا استنزله إليه درجة فدرجة، حتى يورطه فيه. وقوله: ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال أبو روق: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ أي كلما أذنبوا ذنبًا جددنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار، فالاستدراج إنما حصل في الاغتناء الذي لا يشعرون أنه استدراج، وهو الإنعام عليهم لأنهم يحسبونه تفضيلًا لهم على المؤمنين، وهو في الحقيقة سبب لهلاكهم.

قوله تعالى: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ۝٤٥ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٦﴾

ثم قال: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ أي أمهلهم، كقوله: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] وأطيل لهم المدة والملاوة، المدة من الدهر، يقال: أملى الله له أي أطال الله له الملاوة والملوان الليل والنهار، والملا مقصورًا الأرض الواسعة سميت به لامتدادها. وقيل: ﴿وَأُمْلِى

لَهُمْ﴾ أي بالموت فلا أعاجلهم به، ثم إنه إنما سمى إحسانه كيدًا كما سماه استدراجًا لكونه في صورة الكيد، ووصفه بالمتانة لقوة أثر إحسانه في التسبب للهلاك، واعلم أن الأصحاب تمسكوا بهذه الآية في مسألة إرادة الكائنات فقالوا: هذا الذي سماه بالاستدراج وذلك الكيد، إما ألاَّ يكون له أثر في ترجيح جانب الفعل على جانب الترك، أو يكون له فيه أثر، والأول باطل، وإلا لكان هو وسائر الأشياء الأجنبية بمثابة واحدة، فلا يكون استدراجًا ألبتة ولا كيدًا، وأما الثاني فهو يقتضي كونه تعالى مريدًا لذلك الفعل الذي ينساق إليه ذلك الاستدراج وذلك الكيد، لأنه إذا كان تعالى لا يزال يؤكد هذا الجانب، ويفتر ذلك الجانب الآخر، واعلم أن تأكيد هذا الجانب لا بد وأن ينساق بالآخرة إلى فعله ودخوله في الوجود، فلا بد وأن يكون مريدًا لدخول ذلك الفعل في الوجود وهو المطلوب، أجاب الكعبي عنه فقال: المراد سنستدرجهم إلى الموت من حيث لا يعلمون، وهذا هو الذي تقتضيه الحكمة فإنهم لو عرفوا الوقت الذي يموتون فيه لصاروا آمنين إلى ذلك الوقت ولأقدموا على المعاصي. وفي ذلك إغراء بالمعاصي، وأجاب الجبائي عنه، فقال: سنستدرجهم إلى العذاب من حيث لا يعلمون في الآخرة، وأملي لهم في الدنيا توكيدًا للحجة عليهم إن كيدي متين فأمهله وأزيح الأعذار عنه ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة فهذا هو المراد من الكيد المتين، ثم قال: والذي يدل على أن المراد ما ذكرنا أنه تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤] ولا شك أن هذا التهديد إنما وقع بعقاب الآخرة، فوجب أن يكون المراد من الاستدراج والكيد المذكورين عقيبه هو عذاب الآخرة، أو العذاب الحاصل عند الموت، واعلم أن أصحابنا قالوا الحرف الذي ذكرناه وهو: أن هذا الإمهال إذا كان متأديًا إلى الطغيان كان الراضي بالإمهال العالم بتأديه إلى الطغيان لا بد وأن يكون راضيًا بذلك الطغيان، واعلم أن قولهم: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ - إلى قوله ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ مفسر في سورة الأعراف [١٨٢].

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ وهذه الآية مع ما بعدها مفسرة في سورة الطور [٤٠]، وأقول: إنه أعاد الكلام إلى ما تقدم من قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾ [القلم: ٤١] والمغرم الغرامة أي لم يطلب منهم على الهداية والتعليم أجرًا فيثقل عليهم حمل الغرامات في أموالهم فيثبطهم ذلك عن الإيمان.

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ **وفيه وجهان الأول:** أن عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون منه ثواب ما هم عليه من الكفر والشرك، فلذلك أصروا عليه، وهذا استفهام على سبيل

الإنكار، **الثاني:** أن الأشياء الغائبة كأنها حضرت في عقولهم حتى إنهم يكتبون على الله أي يحكمون عليه بما شاءوا وأرادوا.

ثم إنه تعالى لما بالغ في تزييف طريقة الكفار وفي زجرهم عما هم عليه قال لمحمد ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وفيه وجهان: الأول: فاصبر لحكم ربك في إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم والثاني: فاصبر لحكم ربك في أن أوجب عليك التبليغ والوحي وأداء الرسالة، وتحمل ما يحصل بسبب ذلك من الأذى والمحنة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: العامل في ﴿إِذْ﴾ معنى قوله: ﴿كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ يريد لا تكن كصاحب الحوت حال ندائه وذلك لأنه في ذلك الوقت كان مكظومًا فكأنه قيل: لا تكن مكظومًا.

المسألة الثانية: صاحب الحوت يونس عليه السلام، إذ نادى في بطن الحوت بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ مملوء غيظًا من كظم السقاء إذا ملأه، والمعنى لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة، فتبلى ببلائه.

ثم قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ وقرئ (رحمة من ربه).

وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: لِمَ لم يقل: لولا أن تداركته نعمة من ربه؟ الجواب: إنما حسن تذكير الفعل لفصل الضمير في تداركه، وقرأ ابن عباس وابن مسعود تداركته، وقرأ الحسن: تداركه، أي تتداركه على حكاية الحال الماضية، بمعنى لولا أن كان، يقال: فيه تتداركه، كما يقال: كان زيد سيقوم فمنعه فلان، أي كان يقال فيه: سيقوم، والمعنى كان متوقعًا منه القيام.

السؤال الثاني: ما المراد من قوله: ﴿نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؟ الجواب: المراد من تلك النعمة، هو أنه تعالى أنعم عليه بالتوفيق للتوبة، وهذا يدل على أنه لا يتم شيء من الصالحات والطاعات إلا بتوفيقه وهدايته.

السؤال الثالث: أين جواب لولا؟ الجواب: من وجهين: الأول: تقدير الآية: لولا هذه النعمة لنبذ بالعراء مع وصف المذمومية، فلما حصلت هذه النعمة لا جرم لم يوجد النبذ بالعراء مع هذا الوصف، لأنه لما فقد هذا الوصف فقد فقد ذلك المجموع، الثاني: لولا هذه النعمة لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة، ثم نبذ بعراء القيامة مذمومًا، ويدل على هذا قوله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤] وهذا كما يقال: عرصة القيامة؛ وعراء القيامة.

السؤال الرابع: هل يدل قوله: ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ على كونه فاعلًا للذنب؟ الجواب: من ثلاثة أوجه الأول: أن كلمة ﴿لَّوْلَآ﴾ دلت على أن هذه المذمومية لم تحصل، الثاني: لعل المراد من المذمومية ترك الأفضل، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين، الثالث: لعل هذه الواقعة كانت قبل النبوة لقوله: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [القلم: ٥٠] والفاء للتعقيب.

السؤال الخامس: ما سبب نزول هذه الآيات؟ الجواب: يروى أنها نزلت بأحد حين حل برسول الله ما حل، فأراد أن يدعو على الذين انهزموا، وقيل: حين أراد أن يدعو على ثقيف.

قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فيه مسألتان:

المسألة الأولى: في الآية وجهان: أحدهما: قال ابن عباس: رد الله إليه الوحي وشفعه في قومه، والثاني: قال قوم: ولعله ما كان رسولاً صاحب وحي قبل هذه الواقعة ثم بعد هذه الواقعة جعله الله رسولاً، وهو المراد من قوله: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ والذين أنكروا الكرامات والإرهاص لا بد وأن يختاروا القول الأول. لأن احتباسه في بطن الحوت وعدم موته هناك لما لم يكن إرهاصًا ولا كرامة فلا بد وأن يكون معجزة وذلك يقتضي أنه كان رسولاً في تلك الحالة.

المسألة الثانية: احتج الأصحاب على أن فعل العبد خلق الله تعالى بقوله: ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فالآية تدل على أن ذلك الصلاح إنما حصل بجعل الله وخلقه، قال الجبائي: يحتمل أن يكون معنى جعله أنه أخبر بذلك، ويحتمل أن يكون لطف به حتى صلح إذ الجعل يستعمل في اللغة في هذه المعاني، والجواب: أن هذين الوجهين اللذين ذكرتم مجاز، والأصل في الكلام الحقيقة.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ فيه مسألتان:

المسألة الأولى: إن مخففة من الثقيلة واللام علمها.

المسألة الثانية: قرئ: (لَيُزْلِقُونَكَ) بضم الياء وفتحها، وزلقه وأزلقه بمعنى ويقال: زلق الرأس وأَزْلَقه: حلقه، وقرئ: (ليزهقونك) من زهقت نفسه وأزهقها، ثم فيه وجوه أحدها: أنهم من شدة تحديقهم ونظرهم إليك شزرًا بعيون العداوة والبغضاء يكادون يُزِلُّون قدمك من قولهم: نظر إليَّ نظرًا يكاد يصرعني، ويكاد يأكلني، أي لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله، قال الشاعر:

يَتَقَارَضُونَ إِذَا الْتَقَوْا فِي مَوْطِنٍ نَظَرًا يزل مَوَاطِئَ الْأَقْدَامِ

وأنشد ابن عباس لما مر بأقوام حددوا النظر إليه:

نَظَرُوا إِلَيَّ بِأَعْيُنٍ مُحَمَّرَةٍ نَظَرَ التُّيُوسِ إِلَى شِفَارِ الْجَازِرِ

وبيَّن الله تعالى أن هذا النظر كان يشتد منهم في حال قراءة النبي ﷺ للقرآن وهو قوله: ﴿لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾، الثاني: منهم من حمله على الإصابة بالعين، وهاهنا مقامان: أحدهما: الإصابة بالعين، هل لها في الجملة حقيقة أم لا؟ الثاني: أن بتقدير كونها صحيحة، فهل الآية هاهنا مفسرة بها أم لا؟.

المقام الأول: من الناس من أنكر ذلك، وقال: تأثير الجسم في الجسم لا يعقل إلا بواسطة المماسة، وهاهنا لا مماسة، فامتنع حصول التأثير.

واعلم أن المقدمة الأولى ضعيفة، وذلك لأن الإنسان إما أن يكون عبارة عن النفس أو عن البدن، فإن كان الأول لم يمتنع اختلاف النفوس في جواهرها وماهياتها، وإذا كان كذلك لم يمتنع أيضًا اختلافها في لوازمها وآثارها، فلا يستبعد أن يكون لبعض النفوس خاصية في التأثير، وإن كان الثاني لم يمتنع أيضًا أن يكون مزاج إنسان واقعًا على وجه مخصوص يكون له أثر خاص، وبالجملة فالاحتمال العقلي قائم، وليس في بطلانه شبهة فضلاً عن حجة، والدلائل السمعية ناطقة بذلك، كما يروى أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**الْعَيْنُ حَقٌّ**» وقال: «**الْعَيْنُ تُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ وَالْجَمَلَ الْقِدْرَ**»

والمقام الثاني: من الناس من فسر الآية بهذا المعنى قالوا: كانت العين في بني أسد، وكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام فلا يمر به شيء، فيقول فيه: لم أر كاليوم مثله إلا عَانَه، فالتمس الكفار من بعض من كانت له هذه الصفة أن يقول في رسول الله ﷺ ذلك، فعصمه الله تعالى، وطعن الجبائي في هذا التأويل وقال: الإصابة بالعين تنشأ عن استحسان الشيء، والقوم ما كانوا ينظرون إلى الرسول عليه السلام على هذا الوجه، بل كانوا يمقتونه ويبغضونه، والنظر على هذا الوجه لا يقتضي الإصابة بالعين.

واعلم أن هذا السؤال ضعيف، لأنهم وإن كانوا يبغضونه من حيث الدين لعلهم كانوا يستحسنون فصاحته، وإيراده للدلائل. وعن الحسن: دواء الإصابة بالعين قراءة هذه الآية.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ وهو على ما افتتح به السورة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾

﴿وَمَا هُوَ﴾ أي وما هذا القرآن الذي يزعمون أنه دلالة جنونه ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنه تذكير لهم، وبيان لهم، وأدلة لهم، وتنبيه لهم على ما في عقولهم من أدلة التوحيد، وفيه من الآداب والحكم، وسائر العلوم مالا حد له ولا حصر، فكيف يدعى من يتلوه مجنونًا، ونظيره مما يذكرون، مع أنه من أدلة الأمور على كمال الفضل والعقل، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تفسير سورة «نٓ وَالقَلَمِ»

مَكِيَّةٌ في قول الحسن وعكرمةَ وعطاء وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: من أوّلها إلى قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ [الآية:١٦] مكيّ. ومن بعد ذلك إلى قوله تعالى: ﴿أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [الآية:٣٣] مدنيّ. ومن بعد ذلك إلى قوله: ﴿يَكۡتُبُونَ﴾ [الآية:٤٧] مكّيّ. ومن بعد ذلك إلى قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الآية:٥٠] مدنِيّ، وما بقي مكيّ. قاله الماورديّ[١].

وهي ثنتان وخمسون آية.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ﴾ أدغم النونَ الثانية في هجائها في الواو أبو بكر والمفضَّلُ وهُبَيرةُ ووَرْشٌ وابن مُحَيْصِن وابنُ عامر والكسائيُّ ويعقوب. والباقون بالإظهار[٢].

وقرأ عيسى بن عمر بفتحها، كأنَّه أضمر فعلاً[٣]. وقرأ ابن عباس ونصر وابنُ أبي إسحاقَ بكسرها على إضمار حرف القسم[٤].

وقرأ هارون ومحمد بن السَّمَيْفَع بضمها على البناء[٥].

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٥٩ ، دون ذكرقتادة.

(٢) السبعة ص٥٣٨، والتيسير ص ١٨٣، والنشر ٢/ ١٨ . ولورش الوجهان.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٣ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٤٥ .

(٤) القراءات الشاذة ص ١٥٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٤٦ .

(٥) ذكر القراءة ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٣٢٦ عن الحسن وأبي عمران وأبي نهيك.

واختلِف في تأويله، فَرَوَى معاوية بن قُرّة عن أبيه يرفعه إلى النبيّ ﷺ أنه قال: «ن لَوْحٌ من نور»[١]. وروَى ثابت البُنَانيّ أنَّ «نَ» الدواة[٢]. وقاله الحسن وقتادة[٣].

وروى الوليد بن مسلم قال: حدّثنا مالك بن أنس، عن سُمَيّ مولى أبي بكر، عن أبي صالح السّمان، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أولُ ما خلق الله القلمُ، ثمَّ خلق النُّون ـ وهي الدواة ـ وذلك قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾، ثمَّ قال له: اكتبْ، قال: وما أكتب؟ قال: ما كان وما هو كائنٌ إلى يوم القيامة من عمل أو أجلٍ أو رزقٍ أو أثَر، فجرى القلمُ بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة ـ قال ـ ثم خُتم فَمُ القلم، فلم ينطقْ ولا ينطق إلى يوم القيامة، ثم خلق العقل فقال الجبّار: ما خلَقت خلقاً أعجبَ إليّ منك، وعِزّتي وجلالي لأكَمِّلنّك فيمن أحببت، ولأنقصنّك فيمن أبغضت» قال: ثم قال رسولُ الله ﷺ: «أكملُ الناس عقلاً أطوعُهم لله وأعملُهم بطاعته»[٤].

وعن مجاهد قال: «ن» الحوتُ الذي تحت الأرض السابعة. قال: «وَالْقَلَم» الذي كُتب به الذِّكر. وكذا قال مقاتل ومُرّة الهَمْدانيّ وعطاء الخراساني والسُّدّي والكَلْبي: إنَّ النون هو الحوت الذي عليه الأرضون[٥].

وروى أبو ظَبيان عن ابن عباس قال: أوّلُ ما خلق الله القلمُ فجرى بما هو كائنٌ،

(١) النكت والعيون ٦/ ٦٠ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٤٤ ، وعزاه ابن كثير في تفسيره لهذه الآية للطبري، ثم قال: وهذا مرسل غريب.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٤٣ وفيه: عن ثابت الثمالي، عن ابن عباس.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٩٢ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٤٣ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٤٣ ، والأثر أخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٢٧٢ - ٢٢٧٣ وقال: وهذا بهذا الإسناد باطل منكر، وقال الذهبي في الميزان ٤/ ٦١ : فصدق ابن عدي في أن هذا الحديث باطل. اهـ. والصحيح ما أخرجه أحمد (٢٢٧٠٥) عن عبادة بن الصامت ﷺ مرفوعاً: «إن أول ما خلق الله القلمُ، ثم قال: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة» وسيرد.

(٥) تفسير الطبري ٢٣/ ١٤١-١٤٢ ، وتفسير البغوي ٤/ ٣٧٤، وهذه الأخبار من الإسرائيليات .

ثمَّ رفع بخار الماء فخلق منه السماء، ثم خلق النُّونَ، فبسط الأرض على ظهره، فمادت الأرضُ فأُثْبِتَت بالجبال، وإنَّ الجبالَ لتَفْخَرُ على الأرض. ثم قرأ ابن عباس: «ن وَالْقَلَمِ» الآية. وقال الكَلْبي ومقاتل: اسمه البَهْمُوت[١]. قال الراجز:

مـالـي أراكُـم كـلّـكـم سـكـوتَـا والـلـه رَبِّـي خـلـق الـبَـهْـمُـوتَـا[٢]

وقال أبو اليقظان والواقدي: ليوثا[٣]. وقال كعب: لوثوثا. وقال: بلهموثا[٤].

قال كعب: إنَّ إبليسَ تغلغلَ إلى الحوت الذي على ظهره الأرضون، فوسوس في قلبه وقال: أتدري ما على ظهركَ يا لوثوثا من الدَّوابِّ والشجر والأرضين وغيرها، لو لفظتَهم ألقيتَهم عن ظهرك أجمع؛ فهمّ ليوثا أن يفعلَ ذلك، فبعث الله إليه دابَّةً فدخلت مِنْخَرَه ووصلت إلى دماغه، فضجّ[٥] الحوتُ إلى الله عزَّ وجلَّ منها، فأذن الله لها فخرجت. قال كعب: فو الله إنَّه لينظُرُ إليها وتنظر إليه، إن همَّ بشيء من ذلك عادت كما كانت[٦].

وقال الضحاك عن ابن عباس: إنَّ «ن» آخرُ حرف[٧] من حروف الرحمن. قال: الر، وحم، ون، الرحمن تعالى مقطعة[٨].

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٤، وقيّده الآلوسي في روح المعاني ٢٩/ ٢٣: اليَهْموت؛ بفتح الياء المثناة التحتية وسكون الهاء. وأثر ابن عباس أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٩٨، والطبري في تفسيره ٢٣/ ١٤٠، وسلف ١/ ٣٨٥.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٣٧٤ عن الواقدي.

(٤) اضطرب اسمه في النسخ والمصادر.

(٥) كذا في النسخ، والذي في المصادر ـ الآتية ـ (فعجّ). والعج: رفع الصوت بالتلبية. النهاية (عجج).

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤٧٥، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/ ٨، وهو خبر إسرائيلي باطل، وسلف ١/ ٣٨٥.

(٧) في (م) حروف.

(٨) النكت والعيون ٦/ ٦٠، وذكره النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٣، والبغوي في تفسيره ٤/ ٤٧٥، وأخرجه الطبري ٢٣/ ١٤٢ عن ابن عباس من رواية عكرمة عنه.

وقال ابن زيد: هو قسمٌ أقسم الله تعالى به[١]. وقال ابن كَيْسان: هو فاتحةُ السورة[٢]. وقيل: اسمُ السورة[٣]. وقال عطاء وأبو العالية: هو افتتاح اسمه نصير ونور وناصر. وقال محمد بن كعب: أقسم الله تعالى بنصره للمؤمنين؛ وهو حقّ[٤]. بيانه قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]. وقال جعفر الصادق: هو نهرٌ من أنهار الجنة يقال له نون[٥]. وقيل: هو المعروفُ من حروف المعجم[٦]؛ لأنَّه لو كان غيرَ ذلك لكان مُعْرَباً؛ وهو اختيار القُشَيْريّ أبو نصر عبد الرحيم في تفسيره. قال: لأنَّ «ن» حرف لم يُعْرَب، فلو كان كلمة تامَّة أعرِب كما أعرب القلم، فهو إذاً حرفُ هجاء كما في سائر مفاتيح السور. وعلى هذا قيل: هو اسم السورة، أي: هذه سورة «ن». ثم قال: «وَالْقَلَمِ» أقسم بالقلم لما فيه من البيان كاللسان؛ وهو واقعٌ على كل قلم مما يَكتب به مَن في السماء ومَن في الأرض، ومنه قول أبي الفتح البُسْتيّ:

إذا أقسم اَلأبطالُ يوماً بسيفهم ... وعَدُّوه مما يُكسِبُ المجدَ والكَرَمْ
كَفَى قَلَمُ الكُتَّابِ عِزّاً ورفعةً ... مَدَى الدهرِ أنَّ الله أقسم بالقَلَمْ[٧]

وللشعراء في تفضيل القلم على السيف أبيات كثيرة، ما ذكرناه أعلاها. وقال ابن عباس: هذا قسم بالقلم الذي خلقه الله، فأمره فجرى بكتابة جميع ما هو كائن إلى يوم القيامة.

قال: وهو قلم من نورٍ، طولُه كما بين السماء والأرض. ويقال. خلق الله القلم،

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٤٤ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٥ دون نسبة.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٦٠ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٥ .

(٥) زاد المسير ٨/ ٣٢٧ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ٦٠ .

(٧) البيتان في زهر الآداب للقيرواني ١/ ٤٣٢ . وفيه (مجداً) بدل (عزّاً). وأبو الفتح هو علي بن محمد البستي الكاتب، شاعر زمانه، مات سنة إحدى وأربع مائة. السير ١٧/ ١٤٧ - ١٤٨ .

ثم نظر إليه فانشق نصفين، فقال: اجرِ؛ فقال: يا ربّ، بِمَ أجري؟ قال: بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، فجرى على اللوح المحفوظ[١]. وقال الوليد بن عُبادة بنِ الصامت: أوصاني أبي عند موته فقال: يا بُنَيّ، اتقِ الله، واعلمْ أنّك لن تتقيَ ولن تبلغ العلمَ حتى تؤمنَ بالله وحدَه، والقدرِ خيره وشرّه، سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتبْ، فقال: يا ربّ وما أكتب، فقال: اكتبْ القدرَ، فجرى القلمُ في تلك الساعة بما كان وما هو كائن إلى الأبد»[٢]. وقال ابن عباس: أوّلُ ما خلق الله القلم، فأمره أن يكتب ما هو كائن، فكتب فيما كتب: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾[٣] [المسد: ١]. وقال قتادة: القلم نعمةٌ من الله تعالى على عباده[٤].

قال غيره: فخلق الله القلم الأوّل، فكتب ما يكون في الذكر، ووضعه عنده فوق عرشه، ثم خلق القلم الثاني ليكتب به في الأرض، على ما يأتي بيانه في سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾[٥] [العلق: ١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: وما يكتبون. يريد الملائكة؛ يكتبون أعمال بني آدم قاله ابن عباس[٦]. وقيل: وما يكتبون، [أي:] الناس، وما يتفاهمون به.

وقال ابن عباس: معنى «وَمَا يَسطُرونَ» وما يعلمون[٧].

و«ما» موصولة أو مصدرية؛ أي: ومسطوراتِهم أو: وسطرِهم، ويراد به كلُّ من يسطر، أو الحفظة، على الخلاف[٨].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٥ .

(٢) أخرجه بطوله الطيالسي في مسنده (٥٧٧)، وأخرجه بنحوه أحمد (٢٢٧٠٥)، والترمذي (٢١٥٥) وقال: وهذا حديث غريب من هذا الوجه.

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه ١٤/ ٢٠٥ .

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٤/ ٥٢٧ ، وأخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي ١/ ٣٩١ - ٣٩٢ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٤٣ وفيه (ليعلم به من في الأرض) بدل (ليكتب به في الأرض).

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٩٨ ، والطبري في تفسيره ٢٣/ ١٤٨ ، وينظر تفسير البغوي ٤/ ٣٧٥ .

(٧) النكت والعيون ٦/ ٦٠ .

(٨) الكشاف ٤/ ١٤١ .

﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ هذا جواب القسم وهو نفي.

وكان المشركون يقولون للنبيّ ﷺ: إنَّه مجنون، به شيطان. وهو قولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الحجر: ٦]، فأنزل الله تعالى ردّاً عليهم وتكذيباً لقولهم: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ أي: برحمة ربك. والنعمةُ هاهنا الرحمة. ويحتمل ثانياً: أنَّ النعمةَ هاهنا قَسَم، وتقديره: ما أنت ونعمةِ ربك بمجنون؛ لأنَّ الواو والباء من حروف القسم[(١)].

وقيل: هو كما تقول: ما أنت بمجنون، والحمد لله. وقيل: معناه ما أنت بمجنون، والنعمة لربك، كقولهم: سبحانك اللهم وبحمدك؛ أي: والحمد لله[(٢)]. ومنه قول لبِيد:

وأفردْتُ في الدنيا بفقدِ عشيرتي ... وفارقَني جارٌ بأرْبَدَ نافِعُ[(٣)]

أي: وهو أربد. وقال النابغة:

لم يُحْرَمُوا حُسْنَ الغِذاء وأمُّهم ... طَفَحتْ عليك بناتقٍ مِذْكارِ[(٤)]

أي: هو ناتق.

والباء في «بِنِعْمَةِ رَبِّكَ» متعلقة «بمجنون» منفيّاً، كما يتعلق بغافل مثبتاً. كما في قولك: أنت بنعمة ربك غافل. ومحله النصب على الحال؛ كأنَّه قال: ما أنت بمجنون مُنْعَماً عليك بذلك. ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا﴾ أي: ثواباً على ما تحملت من أثقال النبوّة.

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٦١.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٥ وفيه (والحمد لك) بدل (والحمد لله).

(٣) ديوان لبيد ص٨٨ في قصيدة يرثي أخاه أربد، وروايته «وقد كنت في أكنافِ جارِ مَضِنَّة... ففارقني...» والبيت أيضاً في الأغاني ١٧/ ٦٣ وفيه (دار) بدل (جار)...، والمضنة: بكسر الضاد وفتحها؛ أي: نفيس مما يضن به. الصحاح (ضنن).

(٤) ديوان النابغة الذبياني ص ٦١ ، والبيت أيضاً في المعاني الكبير لابن قتيبة ١/ ٥١٠ وفيه: دحقت بدل: طفحت. قال ابن قتيبة: ويروى: طفحت عليك، أي: اتسعت، أي: غذوا غذاء حسناً فنموا وكثروا، والناتق: الكثيرة الولد، ومذكار: تلد الذكور.

﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غيرَ مقطوع ولا منقوص؛ يقال: مننتُ الحبل: إذا قطعتَه[١]. وحبل منين: إذا كان غير متين. قال الشاعر:

غُبْساً كواسِبُ لا يُمَنّ طعامُها[٢]

أي: لا يقطع.

وقال مجاهد: «غَيْرَ مَمْنُونٍ»: غير محسوب[٣]. الحسن: «غَيْرَ مَمْنُونٍ»: غيرَ مكدّر بالمَنّ[٤].

الضحَّاك: أجراً بغير عمل. وقيل: غيرَ مقدَّر، وهو التفضُّل؛ لأنَّ الجزاء مقدّر، والتفضُّل غيرُ مقدَّر. ذكره الماوَرْدِيّ، وهو معنى قول مجاهد[٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: على خُلُقٍ: على دينٍ عظيم من الأديان، ليس دينٌ أحبّ إلى الله تعالى ولا أرضى عنده منه[٦]. وفي صحيح مسلم عن عائشة: أنَّ خُلُقه كان القرآن[٧]. وقال عليٌّ ﷺ وعَطِيّة:

(١) تفسير غريب القرآن ص٤٧٧ .

(٢) هذا عجز بيت للبيد، وصوره: لِمُعَفَّر قَهْدٍ تنازعَ شِلْوَهُ، وهو في ديوانه ص١٧١ ، والمعاني الكبير لابن قتيبة ٢/ ٧٠٩ ، وفيهما (غبس) بدل(غبساً). وأورد ابن منظور في اللسان (متن) شطر البيت أعلاه كرواية المصنف، ونقد عن ابن بري أنه في نسخة ابن القطاع من الصحاح. ثم قال: وهو غلط. . . إلخ. قال ابن قتيبة: المعفَّر: الولد إذا أرادت أمه أن تفطمه تركته يومين لا تسقيه، ثم ترضعه، ثم تتركه ثلاثة أيام، ثم ترضعه حتى يستمر ويعتاد، والقهد: الغنم الصغار الأذناب، تنازع شلوه؛ أي: تجاذب بقية جسده، غبس: ذئاب في ألوانها لا يمن طعامها من عطاء أحد يمتن به إنّما هو كسبها.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٦١ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٤٩ .

(٤) مجمع البيان للطبرسي ٢٩/ ٢٣ دون نسبة.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٦١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٤٦ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٥ .

(٧) صحيح مسلم (٧٤٦): (١٣٩) مطول، وهو في مسند أحمد (٢٤٢٦٩).

هو أدب القرآن[(١)]. وقيل: هو رِفْقُه بأمّته وإكرامُه إيّاهم.

وقال قتادة: هو ما كان يأتمر به من أمر الله، وينتهي[(٢)] عنه مما نهى الله عنه.

وقيل: أي: إنَّك على طبع كريم. الماورديّ: وهو الظاهر.

وحقيقة الخُلُق في اللغة: هو ما يأخذ به الإنسانُ نفسَه من الأدب يُسَمَّى خُلُقاً؛ لأنَّه يصير كالخِلْقة فيه. وأما ما طُبع عليه من الأدب فهو الخِيم[(٣)] ـ بالكسر ـ: السَّجِيَّة والطبيعة، لا واحد له من لفظه. وخِيم: اسم جبل[(٤)]. فيكون الخُلُقُ الطبعَ المتكلَّف، والخِيمُ الطبعَ الغريزي. وقد أوضح الأعشى ذلك في شعره فقال:

وإذا ذُو الـفـضـول ضَـنَّ عـلـى الـمَـوْ لَـى وعـادت لِـخِـيـمـهـا الأخـلاقُ

أي: رجعت الأخلاقُ إلى طبائعها[(٥)].

قلت: ما ذكرته عن عائشةَ في صحيح مسلم أصحُّ الأقوال. وسئلت أيضاً عن خُلُقه عليه الصلاة والسلام، فقرأت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] إلى عشر آيات[(٦)]، وقالت: ما كان أحدٌ أحسنَ خُلُقاً من رسول الله ﷺ، ما دعاه أحد من الصحابة ولا من أهل بيته إلا قال: لَبَّيْك؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[(٧)]. ولم يُذكر خُلُقٌ محمود إلا وكان للنبيّ ﷺ منه الحظُّ الأوفر.

---

(١) قول علي ﷺ في المحرر الوجيز ٥/ ٣٤٦، وقول عطية في النكت والعيون ٦/ ٦١ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٥٢ .

(٢) المثبت من (م) وهو الموافق لما في تفسير البغوي ٤/ ٣٧٥ وقول قتادة منه.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٦١ .

(٤) الصحاح (خيم).

(٥) النكت والعيون ٦/ ٦١ - ٦٢ ، والبيت في ديوان الأعشى ص ٣٢ وروايته فيه: وصارت، بدل: وعادت.

(٦) تفسير الرازي ٣٠/ ٨١، وأخرجه النسائي في الكبرى (١١٢٨٧).

(٧) أخرجه أبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ ص١٧-١٨ ، وأبو نعيم في دلائل النبوة (١١٩)، والواحدي في أسباب النزول ص٤٧١ وفي إسناده حسين بن علوان؛ قال في المجروحين. ١/ ٢٤٤: كان يضع الحديث، وكذبه أحمد بن حنبل، وذكر ابن عدي في الكامل ٢/ ٧٧٠ عن يحيى بن معين: حسين بن علوان كذّاب، وقال النسائي: متروك الحديث.

وقال الجُنَيْد: سُمِّيَ خلقه عظيماً؛ لأنَّه لم تكن له همة سوى الله تعالى[١]. وقيل: سُمِّيَ خُلُقُه عظيماً؛ لاجتماع مكارم الأخلاق فيه، يدلّ عليه قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الله بعثني لأتمِّم مكارمَ الأخلاق»[٢]. وقيل: لأنه امتثل تأديبَ الله تعالى إياه بقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[٣] [الأعراف: ١٩٩]. وقد روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أَدَّبَني رَبِّي تأديباً حسناً إذ قال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] فلما قبلت ذلك منه قال: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٤].

الثانية: روى الترمذيّ عن أبي ذَرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقِ اللهَ حيثما كنتَ، وأتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها، وخالقِ الناسَ بِخُلُق حَسَن». قال: حديث حسن صحيح[٥].

وعن أبي الدَّرداء أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ما شيءٌ أثقلَ في ميزان المؤمن يومَ القيامة من خُلُق حَسَنٍ، وإنَّ الله تعالى لَيُبْغِضُ الفاحشَ البذيءَ». قال: حديث حسن صحيح[٦].

وعنه قال: سمعت النبيّ ﷺ يقول: « ما من شيء يوضع في الميزان أثقلَ من حُسْنِ الخُلُق، وإنَّ صاحبَ حُسنِ الخلق ليبلغُ به درجةَ صاحب الصلاة والصوم».

---

(١) المحرر الوجيز ٥/٣٤٦.

(٢) أخرجه البيهقي ١٠/١٩٢، بلفظ «إنما بعثت»، وهو من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه أحمد (٨٩٥٢) بلفظ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق». وسلف ٩/٤٢٠.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٥.

(٤) أخرجه ابن السمعاني في أدب الإملاء والاستملاء ص١ من حديث عبد الله. قال السخاوي في المقاصد الحسنة ص٧٣: أخرجه ابن السمعاني في أدب الإملاء بسند منقطع، فيه من لم أعرفه عن عبد الله أظنه ابن مسعود. وقال ابن تيمية في مجموعة الرسائل الكبرى ص٣٥٣: المعنى صحيح، لكن لا يعرف له إسناد ثابت.

(٥) سنن الترمذي (١٩٨٧)، وهو في مسند أحمد (٢١٣٥٤).

(٦) سنن الترمذي (٢٠٠٢).

قال: حديثٌ غريب من هذا الوجه[١].

وعن أبي هريرة قال: سُئل رسولُ الله ﷺ عن أكثرِ ما يُدْخِل الناسَ الجنةَ؟ فقال: «تقوى الله وحسنُ الخُلُق». وسئل عن أكثر ما يُدْخِل الناسَ النارَ؟ فقال: «الفَمُ والفَرْجُ» قال: هذا حديث صحيح غريب[٢].

وعن عبد الله بن المبارك أنَّه وصف حُسْنَ الخُلُق فقال: هو بَسْط الوجه، وبَذْل المعروف، وكَفُّ الأذى[٣].

وعن جابر: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ مِن أحبِّكم إليَّ وأقربِكم منّي مجلساً يومَ القيامة أحاسنَكم أخلاقاً ـ قال ـ وإنّ أبغضَكم إليّ وأبعدَكم مني مجلساً يومَ القيامة الثرثارون والمُتَشدِّقون والْمُتَفَيْهِقُون». قالوا: يا رسول الله، قد عَلِمْنا الثرثارون والمتشدّقون، فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون». قال: وفي الباب عن أبي هريرةَ، وهذا حديث حسن غريب[٤].

قوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ قال ابن عباس: معناه: فستعلم ويعلمون يومَ القيامة. وقيل: فسترى ويرون يومَ القيامة حين يتبين الحقّ والباطل[٥]. ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾الباء زائدة، أي: فستبصر ويبصرون أيّكم المفتون، أي: الذي فُتِن بالجنون،

---

(١) سنن الترمذي (٢٠٠٣)، وأخرجه أحمد (٢٧٥١٧)، وأبو داود (٤٧٩٩) مختصراً.

(٢) سنن الترمذي(٢٠٠٤)، وهو عند أحمد (٩٦٩٦)، وابن ماجه (٤٢٤٦).

(٣) أخرجه عنه الترمذي في سننه (٢٠٠٥).

(٤) سنن الترمذي (٢٠١٨) . وحديث أبي هريرة أخرجه أحمد (٨٨٢٢) بنحوه مختصراً، وفي الباب عن أبي ثعلبة الخشني أخرجه أحمد (١٧٧٣٢)، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أخرجه أحمد (٦٥٠٤).

قال الترمذي: الثرثار: هو الكثير الكلام، والمُتَشَدِّق: الذي يتطاول على الناس في الكلام ويبذو عليهم.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٦٢ .

كقوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] و﴿يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] وهذا قول قتادة وأبي عُبيد[١] والأخفش[٢]. وقال الراجز:

نحن بنو جَعْدَة أصحاب الفَلَجْ نَضربُ بالسيف ونرجو بالفَرَجْ[٣]

وقيل: الباء ليست بزائدة، والمعنى: «بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ» أي: الفتنة. وهو مصدر على وزن المفعول، ويكون معناه: الفُتُون، كما قالوا: ما لفلان مجلود ولا معقول؛ أي: عقل ولا جلادة. وقاله الحسن والضحاك وابن عباس[٤]. وقال الراعي[٥]:

حتى إذا لَمْ يَتْركوا لعظامِهِ لحماً ولا لفؤادِهِ معقولا

أي: عقلاً.

وقيل: في الكلام تقديرُ حذف مضاف، والمعنى: بأيكم فتنة المفتون[٦].

وقال الفرّاء[٧]: الباء بمعنى في، أي: فستبصِر ويبصرون في أيِّ الفريقين المجنون؛ أبالفِرْقة التي أنت فيها من المؤمنين، أم بالفِرقة الأخرى.

والمفتون: المجنون الذي فتنه الشيطان[٨].

وقيل: المفتون المعذَّب. من قول العرب: فتنتُ الذهبَ بالنار: إذا حَمّيتَه. ومنه قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣] أي: يعذّبون[٩].

---

(١) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٠٤ -٢٠٥ ، وتفسير الرازي ٣٠/ ٨٢ وفيهما (أبي عبيدة) بدل (أبي عبيد) وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن له ٢/ ٢٦٤ ، وذكر قول قتادة النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٧ .

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٧١٢ .

(٣) الرجز للنابغة الجعدي، وهو في ديوانه ص٢١٦ برواية: نضرب بالبِيض. وسلف ١٤/ ٣٥٧ .

(٤) تفسير الرازي ٣٠/ ٨٢ بنحوه، وينظر تفسير البغوي ٤/ ٣٧٧ .

(٥) ديوانه ص٢٣٦ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٣٤٦ .

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ١٧٣ ، وينظر تفسير الرازي ٣٠/ ٨٢ .

(٨) مجمع البيان ٢٩/ ٢٤ .

(٩) النكت والعيون ٦/ ٦٢ .

ومعظم السورة نزلتْ في الوليد بن المغيرة وأبي جهل[١].

وقيل: المفتون هو الشيطان؛ لأنَّه مفتون في دينه. وكانوا يقولون: إنَّ به شيطاناً، وعَنَوْا بالمجنون هذا؛ فقال الله تعالى: فسيعلمون غداً بأيِّهم المجنون، أي: الشيطان الذي يحصل من مسّه الجنونُ واختلاطُ العقل[٢].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: إنَّ الله هو العالم بمن حادَ عن دينه. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي: الذين هم على الهدى، فيجازِي كُلّاً غداً بعمله.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ⑧﴾

نهاه عن ممايلة المشركين، وكانوا يدعونه إلى أن يكُفّ عنهم ليكفُّوا عنه، فبيّن الله تعالى أنَّ مُمايلتَهم كفر. وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤][٣]. وقيل: أي: فلا تطع المكذبين فيما دَعوْك إليه من دينهم الخبيث. نزلت في مشركي قريش حين دَعَوْه إلى دين آبائه[٤].

قوله تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ⑨﴾

قال ابن عباس وعطية والضحاك والسُّدّيّ: ودّوا لو تكفر فيتمَادَوْن على كفرهم[٥]. وعن ابن عباس أيضاً: ودّوا لو تُرَخِّص لهم فَيُرخِّصون لك[٦]. وقال الفرّاء[٧] والكَلْبيُّ: لو تلين فيلينون لك. والإدْهان: التَّليين لمن لا ينبغي له التَّليين. قاله الفرّاء.

(١) ينظر الكشاف ٤/ ١٤١.

(٢) تفسير الرازي ٣٠/ ٨٢.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٤٧، وتفسير الطبري ٢٣/ ١٥٧ بنحوه.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٧، والوسيط ٤/ ٣٣٥.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٦٢، وزاد المسير ٨/ ٣٣١. وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٥٦ عن ابن عباس والضحاك.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٦٢، وزاد المسير ٨/ ٣٣٠، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٥٦.

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ١٧٣، ونقله المصنف عنه بواسطة النكت والعيون ٦/ ٦٢، وقول الكلبي الآتي في تفسير البغوي ٤/ ٣٧٧.

وقال مجاهد: المعنى: ودّوا لو رَكَنْتَ إليهم وتركت الحقَّ فيُمالئونك[١]. وقال الربيع بنُ أنس: ودّوا لو تكذب فيكذبون. وقال قتادة: ودّوا لو تذهب عن هذا الأمرِ فيذهبون معك[٢]. الحسن: ودّوا لو تصانعهم في دينك فيصانعونك في دينهم. وعنه أيضاً: ودّوا لو ترفض بعضَ أمرك فيرفضون بعضَ أمرهم. زيد بن أسلم: لو تنافق وترائي فينافقون ويراؤون[٣]. وقيل: ودّوا لو تضعف فيضعفون. قاله أبو جعفر[٤].

وقيل: ودّوا لو تداهن في دينك فيداهنون في أديانهم. قاله القُتَبيُّ. وعنه: طلبوا منه أن يعبدَ آلهتهم مدّة ويعبدوا إلهه مدّة[٥]. فهذه اثنا عشر قولاً.

ابن العربيّ[٦]: ذكر المفسرون فيها نحوَ عشرة أقوال، كلُّها دعاوَى على اللغة والمعنى. أمثلُها قولهم: ودّوا لو تكذب فيكذبون، ودّوا لو تكفر فيكفرون.

قلت: كلُّها إن شاء الله تعالى صحيحةٌ على مقتضى اللغة والمعنى؛ فإنَّ الإدْهان: اللينُ والمصانعة[٧]. وقيل: مجاملة العدُوّ وممايلته[٨]. وقيل: المقاربة في الكلام والتَّليين في القول[٩]. قال الشاعر:

لَبَعضُ الغَشْمِ أحزمُ في أمورٍ تنوبُك من مداهنةِ العدوّ[١٠]

(١) الوسيط ٤/ ٣٣٥، وتفسير أبي الليث ٣/ ٣٩٢، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٥٧.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٦٢، وأخرج قول قتادة الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٥٧ بلفظ: «لو أدهنت عن هذا الأمر فأدهنوا معك».

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٧، وزاد المسير ٨/ ٣٣٠-٣٣١.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٦٢.

(٥) تفسير غريب القرآن ص٤٧٨.

(٦) في أحكام القرآن له ٤/ ١٨٤٣.

(٧) تفسير الرازي ٣٠/ ٨٣.

(٨) النكت والعيون ٦/ ٦٣.

(٩) تفسير الرازي ٣٠/ ٨٣.

(١٠) في (م) العده، والمثبت من (د) و(ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٦/ ٦٣ والبيت فيه، ولم نقف على قائله. الغَشْم: الظلم. اللسان (غشم).

وقال المفضَّل: النفاق وتركُ المناصحة، فهي على هذا الوجه مذمومةٌ، وعلى الوجه الأوّل غيرُ مذمومة[(١)]، وكلُّ شيء منها لم يكن.

قال المبرد: يقال: أدهن في دينه وداهن في أمره؛ أي: خان فيه وأظهر خلاف ما يضمر[(٢)].

وقال قومٌ: داهنتُ بمعنى: واريت، وأدهنت بمعنى: غششت. قاله الجوهريُّ[(٣)].

وقال: «فَيُدْهِنُونَ» فساقه على العطف، ولو جاء به جواب التمني[(٤)] لقال: فيدهنوا. وإنما أراد: إنهم[(٥)] تمنوا لو فعلت فيفعلون مثل فعلك، عطفاً لا جزاءً عليه ولا مكافأة، وإنَّما هو تمثيل وتنظير.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾

يعني الأخنسَ بنَ شَرِيق، في قول الشعبيَ والسُّدِّيّ وابن إسحاق. وقيل: الأسود ابن عبد يغوث، أو عبد الرحمن بن الأسود. قاله مجاهد. وقيل: الوليد بن المغيرة، عرضَ على النبيّ ﷺ مالاً، وحلف أن يعطيَه إن رجع عن دينه. قاله مقاتل[(٦)]. وقال ابن عباس: هو أبو جهل بن هشام[(٧)]. والحلّاف: الكثير الحَلِف[(٨)].

والمَهِين: الضعيف القلب؛ عن مجاهد. ابن عباس: الكذّاب. والكذَّاب مهين.

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٦٣ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠/ ٨٣ .

(٣) في الصحاح (دهن).

(٤) في النسخ: النهي، والمثبت من أحكام ابن العربي ٤/ ١٨٤٤ ، والكلام منه، ووقع في بعض نسخه: النهي، كما ذكر في حواشيه.

(٥) في النسخ: إن، والمثبت من أحكام القرآن.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٦٣ ، ٦٥ دون ذكر عبد الرحمن بن الأسود، والشعبي.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٣٤٧ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٧ ، وتفسير الرازي ٣٠/ ٨٣ .

وقيل: المِكثار في الشَّر. قاله الحسن وقتادة[١]. وقال الكلبيّ: المَهِين: الفاجر العاجز.

وقيل: معناه الحقير عند الله[٢].

وقال ابن شجرة: إنه الذليل[٣]. الرُّمّاني: المَهين: الوضيع لإكثاره من القبيح.

وهو فعيل من المهانة بمعنى القلة، وهي هنا القلة في الرأي والتمييز[٤]. أو هو فعيل بمعنى مُفْعَل؛ والمعنى مُهان.

﴿هَمَّازٍ﴾ قال ابن زيد: الهمّاز الذي يهمز الناس بيده ويضربهم. واللَّمّاز باللسان[٥]. وقال الحسن: هو الذي يهمز بأخيه[٦] في المجلس، كقوله تعالى: ﴿هُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

وقيل: الهَمّاز: الذي يذكر الناسَ في وجوههم. واللَّمّاز: الذي يذكرهم في مغيبهم. قاله أبو العالية وعطاء ابن أبي رباح والحسن أيضاً[٧].

وقال مقاتل ضدّ هذا الكلام: إنَّ الهُمَزَة الذي يغتاب بالغيبة، واللُّمَزَة الذي يغتاب في الوجه. وقال مرّة: هما سواء[٨]. وهو القَتّات الطّعّان للمرء إذا غاب. ونحوه عن ابن عباس وقتادة[٩]. قال الشاعر:

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٦٣ دون ذكر الحسن، وأخرج أثر ابن عباس والحسن وقتادة الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٥٨ .

(٢) ذكره أبو الليث في تفسيره ٣/ ٣٩٢ بنحوه.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٦٣ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٠٥ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٦٣ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٥٩ .

(٦) في النسخ (ناحية)، والمثبت من تفسير البغوي ٤/ ٣٧٨ . وينظر تفسير الرازي ٣٢/ ٩٢ .

(٧) زاد المسير ٩/ ٢٢٧ .

(٨) المحرر الوجيز ٥/ ٥٢١ .

(٩) أخرجه الطبري عنهما في تفسيره ٢٤/ ٦١٨ .

تُـدْلـي بِـوُدٍّ إذا لاقـيـتَـنـي كـذبـاً وإنْ أغـيَّـب[١] فـأنـت الـهـامـزُ الـلُّـمَـزَهْ

﴿مَشَّآءِ بِنَمِيمٍ﴾ أي: يمشي بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم. يقال: نَمّ يَنُمّ نَمًّا ونَمِيماً ونَمِيمَةً[٢]، أي: يمشي ويسعى بالفساد.

وفي صحيح مسلم عن حُذيفة: أنَّه بلغَهُ أنَّ رجلاً ينُمُّ الحديثَ، فقال حذيفةُ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا يدخلُ الجنةَ نمّامٌ»[٣]. وقال الشاعر[٤]:

ومَوْلـىً كـبَـيْـتِ الـنَّـمـلِ لا خـيـرَ عـنـده لـمـولاه إلا سَـعْـيُـه بـنـمـيـم

قال الفرّاء: هما لغتان. وقيل: النَّميم جمع نَميمة[٥].

﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ أي: للمال أن ينفَق في وجوهه. وقال ابن عباس: يمنع عن الإسلام ولَدَه وعشيرتَه. وقال الحسن: يقول لهم: من دخل منكم في دين محمد، لا أنفعه بشيء أبداً[٦].

﴿مُعْتَدٍ﴾ أي: على الناس في الظلم، متجاوز للحدّ، صاحب باطل. ﴿أَثِيمٍ﴾ أي: ذي إثم، ومعناه أَثُوم، فهو فَعيل بمعنى فَعول.

﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ العُتُلّ: الجافي الشديد في كفره[٧]. وقال الكلبيّ والفراء: هو الشديد الخصومة بالباطل. وقيل: إنه الذي يعتِلُ الناس فيجرّهم إلى حبس أو عذاب. مأخوذ من العَتْل، وهو الجرّ، ومنه قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾[٨] [الدخان: ٤٧].

(١) في (م) أغب، والشاعر هو زياد الأعجم كما في مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٣١١، والبيت أيضاً في إصلاح المنطق ص٤٧٥ وروايتهما (بودِّي) بدل (بودٍّ).

(٢) تفسير الرازي ٣٠/ ٨٤.

(٣) صحيح مسلم (١٠٥): (١٦٨)، وهو في مسند أحمد (٢٣٣٢٥).

(٤) هو البعيث ـ خِداش بن بشر ـ كما في المعاني الكبير لابن قتيبة ٢/ ٦٣٧، والحيوان للجاحظ ٤/ ٣٢.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٦٤، وكلام الفراء بنحوه في معاني القرآن له ٣/ ١٧٣.

(٦) ذكر القولين البغوي في تفسيره ٤/ ٣٧٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٧) تفسير الطبري ٢٣/ ١٦١.

(٨) النكت والعيون ٦/ ٦٤ دون ذكر الفراء، وكلامه في معاني القرآن له ٣/ ١٧٣.

وفي الصِّحاح[١]: وعتَلْتُ الرجلَ أعْتِلُه وأعْتُلُه: إذا جذبتَه جذباً عنِيفاً. ورجل مِعْتَل؛ بالكسر. وقال[٢] يصف فرساً:

نَفْرَعُهُ فَرْعاً ولسنا نَعْتِلُهْ

قال ابن السِّكِّيت: عَتَله وعَتَنه، باللام والنون جميعاً. والعُتُلّ: الغليظ الجافي. والعُتُلّ أيضاً: الرمح الغليظ. ورجل عَتِلٌ؛ بالكسر: بَيِّن العَتَل، أي: سريع إلى الشرّ. ويقال: لا أنْعتِلُ معك، أي: لا أبرح مكاني[٣].

وقال عُبيد بن عمير: العُتُلّ: الأكولُ الشروب القويّ الشديد؛ يوضع في الميزان فلا يزن شعيرة، يدفع المَلَكُ من أولئك في جهنم بالدُّفعة الواحدة سبعين ألفاً. وقال عليّ بن أبي طالب والحسن: العُتُلّ الفاحش السيِّء الخلق[٤].

وقال مَعْمَر: هو الفاحش اللئيم[٥]. قال الشاعر:

بعُتُلّ من الرجال زَنيم غيرِ ذي نجدة وغيرِ كريم[٦]

وفي صحيح مسلم عن حارثة بن وهب سمع النبيّ ﷺ قال: «ألَا أخبرُكم بأهل الجنة؟» قالو: بلى. قال: «كلُّ ضعيفٍ مُتَضَعَّف، لو أقسم على الله لأبرَّه. ألا أخبرُكم بأهل النار؟» قالوا: بلى. قال: «كلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُستَكبِر». في رواية عنه: «كلُّ جوّاظ زَنيمٍ متكبِّر»[٧]. الجَوّاظ: قيل: هو الجَمُوع المنوع. وقيل: الكثير اللحم المختال[٨].

---

(١) مادة (عتل).

(٢) هو أبو النجم، وسلف البيت ١٦/ ١٥٠ .

(٣) الصحاح (عتل).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٨ دون ذكر علي بن أبي طالب، وأخرج أثر عبيد بن عمير ابن أبي شيبة ١٣/ ٤٣٩ - ٤٤٠ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٦٤ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٦٢ عن القاسم مولى معاوية، مرفوعاً.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٦٤ . ولم نقف على قائل البيت.

(٧) صحيح مسلم (٢٨٥٣)، وأخرجه أحمد (١٨٧٢٨)، والبخاري (٦٠٧١).

(٨) المفهم ٧/ ١٧٠ .

وذكر الماوردي[١] عن شَهْر بن حَوْشَب، عن عبد الرحمن بن غَنْم، ورواه ابن مسعود أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا يدخل الجنةَ جَوّاظ ولا جَعْظَرِيّ، ولا الْعُتُلّ الزَّنيم». فقال رجل: ما الجَوّاظ وما الجَعْظَرِيّ وما العتلُّ الزَّنيم؟ فقال رسول الله ﷺ: «الجوّاظ: الذي جَمعَ ومنع، والجَعْظَريّ: الغليظ، والعُتُلّ الزَّنيم: الشديد الخَلْق، الرّحيب الجوف، المصَحَّح، الأكول الشروب الواجد للطعام، الظلوم للناس».

وذكره الثعلبي عن شدّاد بن أوس: «لا يدخلُ الجنةَ جَوّاظ ولا جَعْظَرِيّ ولا عُتُلٌّ زنيم» سمعتهن من النبيّ ﷺ. قلت: وما الجَوّاظ؟ قال: الجَمّاع المنّاع. قلت: وما الجَعْظَرِيّ؟ قال: الفَظّ الغليظ. قلت: وما العُتُلّ الزنيم؟ قال: الرّحِيب الجوف، الوَثِير الخَلْق، الأكول الشروب، الغَشوم الظلوم[٢].

قلت: فهذا التفسير من النبيّ ﷺ في العُتُلّ قد أربى على أقوال المفسرين. ووقع في كتاب أبي داود في تفسير الجَوّاظ أنه الفظُّ الغليظ. ذكره من حديث حارثة بن وهب الخُزاعي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخلُ الجنةَ الجَوّاظ ولا الجَعْظَرِيّ». قال: والجَوّاظ: الفظُّ الغليظ[٣]. ففيه تفسيران مرفوعان حسب ما ذكرناه أوّلاً. وقد قيل: إنه الجافي القلب[٤].

وعن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿عُتُلِّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ قال: قال النبيّ ﷺ: «تبكي السماءُ من رجل أصحّ الله جِسْمَه، ورحّب جَوْفَه، وأعطاه من الدنيا بعضاً.

---

(١) في النكت والعيون ٦/ ٦٤ - ٦٥ ، وأخرجه أحمد (١٧٩٩٣) عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غَنْم مختصراً. وشهر كثير الإرسال والأوهام، وعبد الرحمن بن غَنْم مختلف في صحبته، كما ذكر الحافظ ابن حجر في التقريب.

وله شواهد؛ منها الحديث السالف.

(٢) أخرجه الجصاص في أحكام القرآن ٣/ ٤٦٧ دون قوله: الوثير الخلق...، والوثارة: كثرة الشحم. الصحاح (وثر).

(٣) سنن أبي داود (٤٨٠١).

(٤) المفهم ٧/ ١٧٠ عن ابن دريد.

فكان للناس ظَلوماً، فذلك الْعُتُلُّ الزنيم. وتبكي السماءُ من الشيخ الزاني ما تكاد الأرض تُقِلّه»[١].

والزّنِيم: المُلْصَق بالقوم الدَّعِيّ؛ عن ابن عباس وغيره. قال الشاعر:

زَنِـيـمٌ تـداعـاه الـرجـالُ زيـادةً كما زِيد في عَرْضِ الأدِيم الأكارعُ[٢]

وعن ابن عباس أيضاً: أنه رجل من قريش كانت له زَنَمة كزنمة الشاة[٣]. وروى عنه ابن جُبَير: أنه الذي يُعرف بالشرِّ؛ كما تُعرف الشاة بزنمتها[٤]. وقال عِكرِمة: هو اللئيم الذي يُعرف بلؤمه؛ كما تُعرف الشاة بزنمتها[٥].

وقيل: إنه الذي يعرف بالأُبْنةِ[٦]. وهو مرويّ عن ابن عباس أيضاً. وعنه أنه الظَّلوم[٧].فهذه ستة أقوال.

وقال مجاهد: زَنِيم كانت له ستة أصابع في يده، في كل إبهام له إصبع زائدة. وعنه أيضاً وسعيدِ بن المسيّب وعكرمة: هو ولد الزّنى الملحق في النسب بالقوم[٨]. وكان الوَلِيد دَعِيّاً في قريش ليس من سِنْخهم، ادّعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة من مولده[٩]. قال الشاعر:

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٠٨، والطبري ٢٣/ ١٦٣ وفيهما: «وأعطاه من الدنيا مقضماً». والخبر مرسل.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٩٣، والبيت نسب لحسان بن ثابت، ونسب للخطيم التميمي، وسلف ١/ ٤٥.

(٣) أخرجه البخاري (٤٩١٧)، والزَّنَمة: شيء يكون للمعز في أذنها كالقُرط، أو شيءٌ يقطع من أذن البعير فيترك معلقاً. الصحاح (زنم).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٦٦ - ١٦٧، والحاكم ٢/ ٤٩٩.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٦٨.

(٦) الأُبْنة: العيب في الكلام. اللسان (أبن).

(٧) النكت والعيون ٦/ ٦٥، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٦٧.

(٨) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٦٤ - ١٦٥ عن ابن عباس وسعيد وعكرمة.

(٩) الكشاف ٤/ ١٤٢، وتفسير الرازي ٣٠/ ٨٥، وقوله: سنخهم؛ السنخ: الأصل. الصحاح (سنخ).

زنـيـمٌ لـيـس يُـعـرفُ مَـن أبـوه بـغـيُّ الأُمِّ ذو حَـسَـب لـئـيـمِ[١]

وقال حَسَّان:

وأنـتَ زَنـيـمٌ نِـيـطَ فـي آل هـاشـمٍ كما نِيطَ خَلْفَ الراكبِ القَدَحُ الفَرْدُ[٢]

قلت: وهذا هو القول الأول بعينه. وعن عليٍّ رضي الله تعالى عنه: أنَّه الذي لا أصل له، والمعنى واحد.

ورُوِيَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا يدخلُ الجنةَ وَلَدُ زنىً، ولا ولدُه، ولا ولدُ ولدِه»[٣]. قال عبد الله بن عمر: إنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ أولادَ الزنى يُحشرون يومَ القيامة في صورة القردةِ والخنازير»[٤].

وقالت ميمونة: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «لا تزالُ أمتي بخير ما لم يَفْشُ فيهم ولدُ الزِّنَى، فإذا فَشَا فيهم ولدُ الزنى، يوشك[٥] أن يعمَّهم الله بعقاب»[٦]. وقال عكرمة: إذا كثر ولدُ الزنى قَحَطَ المَطَرُ.

قلت: أما الحديث الأول والثاني، فما أظنُّ لهما سنداً يصح، وأما حديثُ ميمونةَ وما قاله عكرمةُ؛ ففي صحيح مسلم عن زينب بنت جَحْش زوجِ النبيِّ ﷺ

(١) سلف ١/ ٤٤.

(٢) ديوان حسان ص٢١٦ . وقوله: نيط، أي: عُلق، والمنوط بالقوم، أي: الدخيل فيهم.

(٣) الكشاف ٤/ ١٤٣ ، وتفسير الرازي ٣٠/ ٨٥ ، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/ ٣٠٨ ، ٨/ ٢٤٩ عن مجاهد واضطربت الرواية عنه، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٣٠٠ ، وقال: ثم أيّ ذنب لولد الزنى حتى يمنعه من دخول الجنة، فهذه الأحاديث تخالف الأصول، وأعظمها في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. وقال صاحب تنزيه الشريعة ٢/ ٢٢٨ : لا يصح.

(٤) أخرجه العقيلي في الضعفاء ٢/ ٧٥ من طريق زيد بن عياض. قال في الفوائد المجموعة ص٢٠٤ : هو موضوع. وقال في لسان الميزان ٢/ ٥١٠ : ذكره العقيلي في الضعفاء وكناه أبا عياض.

(٥) في النسخ عدا (ظ) أوشك.

(٦) أخرجه أحمد (٢٦٨٣٠) وفيه ضعفاء، وله شاهد من حديث ابن عباس عند الحاكم ٢/ ٣٧ بلفظ: إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله، وحديث زينب الآتي ذكره.

قالت: خرج النبيُّ ﷺ يوماً فَزِعاً مُحْمَرّاً وَجْهُهُ يقول: «لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتح اليوم من رَدْم يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذه» وحلّق بإصبعيه الإبهام والتي تليها. قالت: فقلت: يا رسول الله، أَنَهْلِك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثُر الخَبَث» خرّجه البخارِيّ[١]. وكثرةُ الخبث ظهورُ الزنى وأولادُ الزنى. كذا فسّره العلماء[٢].

وقول عكرمة «قَحَطَ المطر» تبيينٌ لما يكون به الهلاك، وهذا يحتاج إلى توقيف، وهو أعلم من أين قاله.

ومعظم المفسرين على أنَّ هذا نزل في الوليد بن المغيرة، وكان يُطعم أهلَ مِنىً حَيْساً[٣] ثلاثة أيام، وينادي: ألَا لا يوقدنّ أحد تحت بُرْمَةٍ[٤]، ألا لا يدخلنّ أحد بكُراع، ألا ومن أراد الحَيْس فليأت الوليدَ بن المغيرة. وكان ينفق في الحجة الواحدة عشرين ألفاً وأكثر، ولا يعطي المسكين[٥] درهماً واحداً؛ فقيل: «مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ». وفيه نزل: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ . ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت:٦-٧].

وقال محمد بن إسحاق: نزلت في الأَخْنَس بن شَرِيق؛ لأنه حليفٌ مُلْحق في بني زُهْرة، فلذلك سُمِّيَ زَنِيماً[٦].

وقال ابن عباس: في هذه الآية نُعِت، فلم يعرف حتى قيل[٧]، فعُرف، وكان له زَنَمة في عنقه معلّقة يُعرف بها. وقال مُرّة الهَمْدانيّ: إنما ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة[٨].

---

(١) في صحيحه (٧٠٥٩)، وهو عند مسلم (٢٨٨٠)، وأحمد (٢٧٤١٣).

(٢) ينظر إكمال المعلم ٨/ ٤١٢، والمفهم ٧/ ٢٠٨.

(٣) الحيس: هو تمر يخلط بسمنٍ أو أقِطٍ. الصحاح (حيس).

(٤) البُرْمة: هي القِدر. الصحاح (برم).

(٥) في (ظ) المسلمين.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٦٥.

(٧) المثبت من (د)، وفي غيرها: قتل، وفي تفسير البغوي ٤/ ٣٧٨ حتى قيل: زنيم، فعرف. . .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٨.

قوله تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ قرأ أبو جعفر وابنُ عامر وأبو حَيْوة والمغيرة والأعرج: «آن كان» بهمزة واحدة ممدودة على الاستفهام. وقرأ المُفَضّل وأبو بكر وحمزةُ: «أأن كان» بهمزتين مُحَقّقتين. وقرأ الباقون بهمزة واحدة على الخبر[١]، فمن قرأ بهمزة مطولة أو بهمزتين محققتين، فهو استفهام والمراد به التوبيخ[٢].

ويحسن له أن يقف على «زنيم»، ويبتدئ: «آنْ كَانَ» على معنى: أَلِأَنْ كان ذا مال وبنين تطيعه؟ ويجوز أن يكون التقدير: أَلِأَنْ كان ذا مال وبنين يقول إِذَا تُتْلَى عليهِ آيَاتُنَا: أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ[٣]!

ويجوز أن يكون التقدير: أَلِأَنْ كان ذا مال وبنين يكفر ويستكبر. ودلّ عليه ما تقدم من الكلام، فصار كالمذكور بعد الاستفهام.

ومن قرأ: «أَنْ كَانَ» بغير استفهام، فهو مفعول من أجله، والعاملُ فيه فعل مضمر، والتقدير: يكفر لأن كان ذا مال وبنين. ودلَّ على هذا الفعل: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. ولا يعمل في «أَنْ»: «تُتْلَى» ولا «قَالَ»؛ لأنَّ ما بعد «إِذَا» لا يعمل فيما قبلها؛ لأنَّ «إِذَا» تضاف إلى الجمل التي بعدها، ولا يعمل المضاف إليه فيما قبل المضاف. و«قال» جواب الجزاء، ولا يعمل فيما قبل الجزاء؛ إذ حكم العامل أن يكونَ قبل المعمول فيه، وحكم الجواب أن يكونَ بعد الشرط، فيصير مقدماً مؤخراً في حال[٤]. ويجوز أن يكون المعنى: لا تطعه لأن كان ذا يسار وعدد.

---

(١) السبعة ص٦٤٦، والتيسير ص٢١٣. والنشر ١/٣٦٧.

(٢) الوسيط ٤/٣٣٦.

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ٢/٩٤٣ - ٩٤٤ ووقع في (ز) و(ظ): قال أساطير الأولين.

(٤) مشكل إعراب القرآن ٢/٧٤٨ - ٧٤٩.

قال ابن الأنباري[١]: ومن قرأ بلا استفهام، لم يحسن أن يقف على «زَنِيم»؛ لأنَّ المعنى: لأنْ كان وبأنْ كان، فـ «أن» متعلقة بما قبلها.

قال غيره: يجوز أن يتعلق بقوله: «مَشَّاءٍ بِنَمِيم»، والتقدير: يمشي بنميم لأن كان ذا مال وبنين.

وأجاز أبو عليّ أن يتعلق بـ «عُتُلٍّ»[٢]. وأساطير الأولين: أباطيلُهم وتُرّهاتُهم وخرافاتُهم. وقد تقدم[٣].

قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ قال ابن عباس: معنى «سَنَسِمُهُ»: سَنَخْطِمُه بالسيف. قال: وقد خُطم الذي نزلت فيه يومَ بدر بالسيف، فلم يزل مخطوماً إلى أن مات. وقال قتادة: سنسمه يومَ القيامة على أنفه سِمةً يُعرف بها[٤]. يقال: وسَمْته وَسْماً وسِمَةً: إذا أثّرتَ فيه بِسِمَةٍ وَكَيّ[٥].

وقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، فهذه علامة ظاهرة. وقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢]. وهذه علامة أخرى ظاهرة. فأفادت هذه الآية علامة ثالثةً وهي الوسم على الأنف بالنار[٦]، وهذا كقوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١] قاله الكلبي وغيره[٧].

---

(١) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٤٤ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٤٨ بنحوه.

(٣) ٨/ ٣٤٦ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٠٩ ، والطبري ٢٣/ ١٧٠ .

(٥) الصحاح (وسم).

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٤٥ .

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٦٦ بنحوه.

وقال أبو العالية ومجاهد: «سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ» أي: على أنفه، ونسوّد وجهَه في الآخرة، فَيُعْرف بسواد وجهه[(١)].

والخُرطوم: الأنفُ من الإنسانُ، ومن السباع: موضعُ الشَّفَة[(٢)]. وخراطيم القوم: ساداتُهم[(٣)].

قال الفراء[(٤)]: وإن كان الخُرْطُوم قد خُصّ بالسِّمة؛ فإنه في معنى الوجه؛ لأنَّ بعض الشيء يعبّر به عن الكلّ.

وقال الطبري[(٥)]: نبيّن أمرَه تِبياناً واضحاً حتى يعرفوه، فلا يخفى عليهم كما لا تخفى السِّمة على الخراطيم.

وقيل: المعنى سَنُلْحِقُ به عاراً وسُبَّةً حتى يكون كمن وُسِم على أنفه[(٦)].

قال القُتَبيّ[(٧)]: تقول العرب للرجل يُسَبّ سُبّةَ سوء قبيحة باقية: قد وُسِم مِيسَم سوء، أي: أُلْصِق به عارٌ لا يفارقه، كما أنَّ السِّمة لا يُمْحَى أثرها. قال جرير:

لمّا وضعتُ على الفَرَزْدَق مِيسَمِي ... وعلى البَعِيث جَدَعْتُ أنفَ الأخْطَلِ[(٨)]

أراد به الهجاءَ. قال[(٩)]: وهذا كلُّه نزل في الوليد بن المغيرة. ولا نعلم أنَّ الله

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٩ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٦٦، ونسب الماوردي فيه الكلام للمبرّد .

(٣) أساس البلاغة (خرط).

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١٧٤ .

(٥) في تفسيره ٢٣/ ١٧٠ - ١٧١ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٣٤٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ٣٧٩ بنحوه.

(٧) في تأويل مشكل القرآن ص١١٨ - ١١٩ .

(٨) ديوان جرير بشرح ابن حبيب ٢/ ٩٤٠ . وروايته فيه: وضعنا البَعيث، بدل: وعلى البعيث، ووقع في هامش (خ) و(ي) ما نصُّه: البعيث اسم شاعر من تميم .اهـ. والبعيث هو خداش بن بشر.

(٩) القائل القتبي في تأويل مشكل القرآن ص١٢٠ .

تعالى بلغ من ذكر عيوب أحدٍ ما بلغه منه، فألحقه به عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة، كالوَسْم على الخُرْطوم.

وقيل: هو ما ابتلاه الله به في الدنيا في نفسه وماله وأهله من سوء وذُلّ وصَغار. قاله ابن بحر. واستشهد بقول الأعشى:

فدعها وما يعنيك واعمِدْ لغيرها بشعرك واعْلُب أنفَ من أنت واسمُ[(١)]

وقال النَّضْر بن شُمَيل: المعنى: سنحُدّه على شرب الخمر، والخُرطوم: الخمر، وجمعه خراطيم، قال الشاعر:

تَظَلُّ يومك فِي لَهْوٍ وفي طَرَبٍ وأنت بالليل شَرّاب الخراطيمِ[(٢)]

قال الراجز:

صَهْبَاءَ خُرْطوماً عُقاراً قَرْقَفا[(٣)]

وقال آخر:

أبا حاضرٍ من يَزْنِ يُعْرفْ زِناؤُه ومن يشربِ الخُرْطومَ يُصبحْ مُسَكَّرا[(٤)]

الثانية: قال ابن العربي[(٥)]: كان الوَسْم في الوجه لذي المعصية قديماً عند الناس، حتى إنَّه رُوي ـ كما تقدم ـ أنَّ اليهود لما أهملوا رَجْم الزاني، اعتاضوا منه بالضرب وتحميم الوجه، وهذا وضع باطل. ومن الوسم الصحيح في الوجه: ما رأى

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٦٦ ، وبيت الأعشى في ديوانه ص٩، وورد في (م): (يغنيك) بدل: (يعنيك). قوله: اعلُب: يقال علبتُه أعلُبُه: إذا وسمته أو خدشته. الصحاح (علب).

(٢) تفسير الرازي ٣٠/ ٨٧ دون قوله: وجمعه خراطيم.

(٣) هذه كلها من أسماء الخمر، والرجز للعجاج وهو في ديوانه ص٤٢٣ ، وقبله: فغمّها حولين ثم استودفا. قال شارحه: استودف: استقطر.

(٤) البيت للفرزدق كما في جمهرة اللغة ٣/ ٢٥٥ ، والصحاح (زنى)، والبيت أيضاً في مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٢١ وروايته: يظهر، بدل: يعرف، والصهباء، بدل: الخرطوم. ونسبه للفرزدق، ثم قال: وبعضهم يرويها لزياد الأعجم، وكان أبو حاضر أحد المشهورين بالزنى.

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٨٤٥ ، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

العلماء من تسويد وجه شاهد الزور، علامةً على قُبْح المعصية وتشديداً لمن يتعاطاها لغيره ممن يرجى تجنُّبه بما يرجى من عقوبة شاهد الزور وشهرته؛ فقد كان عزيزاً بقول الحقّ، وقد صار مَهيناً بالمعصية. وأعظمُ الإهانة [إهانةُ الوجه]. وكذلك كانت الاستهانة به في طاعة الله سبباً لخيرة الأبد والتحريم له على النار؛ فإنَّ الله تعالى قد حرَّم على النار أن تأكلَ من ابن آدم أثَرَ[١] السجود، حسب ما ثبت في الصحيح[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ يريد أهلَ مكة. والابتلاء الاختبار. والمعنى: أعطيناهم أموالاً ليشكروا لا ليَبْطروا، فلما بَطِرُوا وعادَوْا محمداً ﷺ، ابتليناهم بالجوع والقَحْط، كما بلونا أهلَ الجنة المعروفِ خبرُها عندهم. وذلك أنها كانت بأرض اليمن بالقرب منهم على فراسخ من صنعاء ـ ويقال بفرسخين ـ وكانت لرجل يؤدّي حقَّ الله تعالى منها، فلما مات صارت إلى ولده، فمنعوا الناس خيرَها، وبَخِلُوا بحقِّ الله فيها؛ فأهلكها الله من حيث لم يمكنهم دفع ما حلّ بها.

قال الكلبي: كان بينهم وبين صنعاء فرسخان، ابتلاهم الله بأن أحرق جنتهم.

وقيل: هي جنةٌ بصَوْران، وصوران[٣] على فراسخ[٤] من صنعاء، وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى عليه السلام بيسير ـ وكانوا بخلاء ـ فكانوا يجدُّون التمر ليلاً

---

(١) صحيح البخاري (٨٠٦)، وصحيح مسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة ﷺ مطولاً.

(٢) في (ظ): موضع أثر.

(٣) في (ق) و(م) بضوران، وضوران . . . إلخ. والمثبت من باقي النسخ، حيث ذكر ياقوت صوران في معجم البلدان ٣/ ٤٣٣ . ووقع في تفسير البغوي ٤/ ٣٧٩: الضروان، وفي النكت والعيون ٦/ ٦٧: ضروان، وفي تفسير أبي الليث: ضيروان.

(٤) في (م) فرسخ.

من أجل المساكين، وكانوا أرادوا حصادَ زرعها، وقالوا: لا يدخلها اليوم عليكم مسكين، فغَدَوْا عليها؛ فإذا هي قد اقْتُلِعَت من أصلها، فأصبحت كالصَّريم، أي: كالليل. ويقال أيضاً للنهار: صريم. فإن كان أراد الليلَ، فلاسْوداد موضعها. وكأنهم وجدوا مَوْضِعَها حَمْأة[1]. وإن كان أراد بالصَّريم النهارَ؛ فلذهاب الشجرِ والزرعِ ونقاءِ الأرض منه. وكان الطّائف الذي طاف عليها جبريل عليه السلام فاقتعلها. فيقال: إنه طاف بها حَوْل البيت ثمَّ وضعها حيث مدينة الطائف اليوم؛ ولذلك سُمِّيت الطائف[2]. وليس في أرض الحجاز بلدةٌ فيها الشجر والأعناب والماء غيرها. وقال البكري في المُعْجَم: سُمِّيت الطائف لأنَّ رجلاً من الصَّدِف[3] يقال له: الدَّمُون؛ بنى حائطاً وقال: قد بَنَيْتُ لكم طائفاً حول بلدكم؛ فسُمِّيت الطائف. والله أعلم[4].

الثانية: قال بعض العلماء: على من حصد زَرْعاً أو جَدَّ ثمرةً أن يواسيَ منها مَنْ حضره، وذلك معنى قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٤١]، وأنه غير الزكاة على ما تقدّم في «الأنعام» بيانه[5]. وقال بعضهم: وعليه ترك ما أخطأه الحصّادون. وكان بعض العبّاد يتحرّون أقواتَهم من هذا. وروي أنه نُهيَ عن الحصاد بالليل[6]. فقيل: إنه لِما ينقطع عن المساكين في ذلك من الرفق. وتأوّل من قال هذا

(١) الحَمْأة: الطين الأسود المنتن. اللسان (حمأ).

(٢) في هذا الكلام نظر، وليس فيه ما يصح.

(٣) الصَّدِف: مِخلاف (وهي الناحية أو المحافظة في الاصطلاح الحديث) من اليمن منسوب إلى القبيلة. معجم البلدان ٣/ ٣٩٧.

(٤) التعريف والإعلام ص١٧٤ - ١٧٥.

(٥) ٩/ ٥٣.

(٦) أخرجه البزار (٨٨٤) (كشف الأستار) عن عائشة رضي الله عنها، وقال: لا نعلمه عن عائشة إلا من هذا الوجه، وعنبسة حدّث بأحاديث لم يتابع عليها، وهو لين الحديث. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٧٧: فيه عنبسة بن سعيد البصري، وهو ضعيف، وقد وثق.

وأخرجه أبو داود في المراسيل (١٢٨)، والبيهقي ٩/ ٢٨٩ - ٢٩٠ عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده علي بن الحسين مرسلاً.

الآيةَ التي في سورة ن وَالقَلمِ. وقيل: إنَّما نهى عن ذلك خشيةَ الحيّات وهوامّ الأرض[١].

قلت: الأوّل أصح، والثاني حسن. وإنما قلنا: الأول أصح؛ لأنَّ العقوبة كانت بسبب ما أرادوه من منع المساكين كما ذكر الله تعالى.

روى أسباط عن السُّدِّيّ قال: كان قوم باليمن، وكان أبوهم رجلاً صالحاً وله جنة[٢]، وكان إذا بلغ ثمارُه أتاه المساكين، فلم يمنعهم من دخولها وأن يأكلوا منها ويتزوّدوا، فلما مات قال بَنُوه بعضهم لبعض: عَلَامَ نُعطي أموالَنا هؤلاء المساكين! تعالَوْا فلْنُدْلج[٣] فنصْرمنّها قبل أن يعلم المساكين. ولم يستثنوا، فانطلقوا وبعضُهم يقول لبعض خَفْتاً[٤]: لا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين، فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُواْ﴾ يعني حلفوا فيما بينهم: ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ يعني ليجذّنّها وقت الصبح قبل أن تخرج المساكينُ ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ يعني لم يقولوا: إن شاء الله[٥].

وقال ابن عباس: كانت تلك الجنةُ دون صنعاء بفرسخين، غرسها رجلٌ من أهل الصَّلاح وكان له ثلاثة بنين، وكان للمساكين كلُّ ما تعدَّاه الْمِنجَل فلم يجذّه من الكَرْم، فإذا طُرح على البساط فكلُّ شيء سقط عن البساط فهو أيضاً للمساكين، فإذا حصدوا زرعَهم فكلُّ شيء تعدّاه المِنجَل فهو للمساكين، فإذا دَرَسُوا[٦] كان لهم كل شيء انتثر؛ فكان أبوهم يتصدّق منها على المساكين، وكان يعيش في ذلك في حياة أبيهم اليتامى والأراملُ والمساكينُ، فلما مات أبوهم فعلوا ما ذكر الله عنهم، فقالوا:

---

(١) ينظر غريب الحديث لأبي عبيد ٣/٧.
(٢) قوله: وله جنة، من (ظ).
(٣) أدلج القوم: إذا ساروا من أول الليل الصحاح (دلج).
(٤) الخَفْت: إسرار المنطق. الصحاح (خفت).
(٥) تفسير أبي الليث ٣/٣٩٣ - ٣٩٤.
(٦) درسوا الحنطة دِراساً: أي داسوها. الصحاح (درس).

قلّ المالُ وكثر العيال، فتحالفوا بينهم ليغدُوُنَّ غُدوة قبل خروج الناس، ثم لَيَصْرِمنّها ولا تعرف المساكين[(١)].

وهو قوله: «إذْ أَقْسَمُوا» أي: حلفوا «لَيَصْرِمُنَّها»: ليقطعُنَّ ثمرَ نخيلهم إذا أصبحوا بسُدْفة[(٢)] من الليل؛ لئلا ينتبه المساكين لهم. والصرم: القطع. يقال: صرم العِذق عن النخلة. وأصرم النخلُ، أي: حان وقت صِرامه[(٣)]. مثل: أرْكَبَ المُهرُ، وأحصدَ الزرعُ، أي: حان ركوبه وحَصاده.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي: ولم يقولوا إن شاء الله. ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾: ينادي بعضُهم بعضاً[(٤)]. ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾: عازمين على الصّرام والجِداد[(٥)]. قال قتادة: حاصدين زرعَكم. وقال الكلبيّ: ما كان في جنتهم من زرع ولا نخيل.

وقال مجاهد: كان حرثُهم عِنَباً ولم يقولوا: إن شاء الله. وقال أبو صالح: كان استثناؤهم قولهم: سبحان الله رَبِّنا. وقيل: معنى «وَلَا يَسْتَثْنُونَ» أي: لا يستثنون حقَّ المساكين. قاله عكرمة[(٦)]. فجاؤوها ليلاً فرأوا الجنة مسودّةً قد طاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. قيل: الطائف جبريل عليه السلام؛ على ما تقدّم ذكره[(٧)].

وقال ابن عباس: أمْرٌ من ربك. وقال قتادة: عذاب من ربّك. ابن جريج: عُنُق من نار[(٨)] خرج من وادي جهنم. والطائف لا يكون إلا بالليل. قاله الفرّاء[(٩)].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٩.

(٢) السدفة: الظلمة، والضوء. وهو من الأضداد. الصحاح (سدف).

(٣) تفسير الرازي ٣٠/ ٨٧ بنحوه.

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٩٤.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٦٨.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٦٧ – ٦٨.

(٧) في المسألة الأولى.

(٨) أي: قطعة من النار. اللسان (عنق).

(٩) في معاني القرآن له ٣/ ١٧٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النكت والعيون ٦/ ٦٧ وما قبله منه، ووقع في النكت والعيون (من وادي جنتهم) بدل (من وادي جهنم).

الثالثة: قلت: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ العزم مما يؤاخذ به الإنسان؛ لأنَّهم عزموا على أن يفعلوا، فعوقبوا قبل فعلهم. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

وفي الصحيح[١] عن النبيّ ﷺ قال: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتلُ والمقتول في النار»: قيل: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بالُ المقتولِ؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه». وقد مضى مبيَّناً في سورة آل عمران عند قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾ [الآية: ١٣٥][٢].

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ أي: كالليل المظلم؛ عن ابن عباس[٣] والفرّاء[٤] وغيرهما. قال الشاعر:

تطاول لَيْلُك الجَوْنُ الْبَهِيمُ فما ينجابُ عن صبح صريمُ[٥]

أي: احترقت فصارت كالليل الأسود[٦]. وعن ابن عباس أيضاً: كالرَّماد الأسود[٧]. قال: والصَّرِيم: الرماد الأسود بلغة خُزَيمة[٨]. الثوريّ: كالزرع المحصود.

---

(١) صحيح البخاري (٣١)، وصحيح مسلم (٢٨٨٨)، وسلف ٥/ ٣٣١.

(٢) ٥/ ٣٣١.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٧٤.

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١٧٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النكت والعيون ٦/ ٦٨.

(٥) في النسخ: بهيم، بدل: صريم، والمثبت من تفسير الطبري ٢٣/ ١٧٤، والنكت والعيون ٦/ ٦٨. الجون: الأسود المشرب حمرة. اللسان (جون).

(٦) تهذيب اللغة ١٢/ ١٨٥.

(٧) النكت والعيون ٦/ ٦٧، وزاد المسير ٨/ ٣٣٦.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٩.

فالصريم بمعنى المصروم، أي: المقطوع ما فيه. وقال الحسن: صُرِم عنها الخير، أي: قطع، فالصريم مفعول أيضاً[١]. وقال المؤرّج: أي: كالرملة انصرمت من معظم الرمل، يقال: صريمة وصرائم؛ فالرّملة لا تُنبت شيئاً يُنتفع به[٢]. وقال الأخفش: أي: كالصبح انصرم من الليل[٣]. وقال المبرد[٤]: أي: كالنهار؛ فلا شيء فيها.

قال شَمِر: الصَّرِيم: الليل، والصَّرِيم: النهار، أي: ينصرم هذا عن ذاك، وذاك عن هذا [٥].

وقيل: سُمّيَ الليل صَرِيماً؛ لأنّه يقطع بظلمته عن التصرف، ولهذا يكون فعيل بمعنى فاعل[٦].

قال القُشَيْرِيّ: وفي هذا نظر؛ لأنَّ النهار يسمَّى صَرِيماً، ولا يقطع عن تصرّف.

قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ أي: يتسارّون، أي: يُخفون كلامهم ويسرُّونه؛ لئلا يَعلم بهم أحد. قاله عطاء وقتادة[٧]. وهو من خَفَت يَخْفِت: إذا سكن[٨] ولم يبيّن. كما قال دُرَيد بن الصِّمَّة:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٩، وتفسير الرازي ٣٠/ ٨٨.

(٢) تفسير الرازي ٣٠/ ٨٨ دون نسبة.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٩.

(٤) في الكامل ١/ ٣٠٥.

(٥) تهذيب اللغة ١٢/ ١٨٥.

(٦) تفسير الرازي ٣٠/ ٨٨.

(٧) النكت والعيون ٦/ ٦٨.

(٨) الصحاح (خفت).

وإنّيَ لم أهْلِكْ سُلالاً ولم أمُتْ خُفَاتاً وكُلاًّ ظَنَّه بيَ عُوَّدِي[(١)]

وقيل: يخفون أنفسهم من الناس حتى لا يروهم[(٢)]. وكان أبوهم يخبر الفقراء والمساكين فيحضروا وقت الحصاد والصِّرام[(٣)].

﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ أي: على قَصْد وقدرة في أنفسهم ويظنون أنهم تمكنوا من مرادهم. قال معناه ابن عباس وغيره.

والحَرْد: القصدُ. حَرَد يَحْرِد ـ بالكسر ـ حَرْداً: قَصَد. تقول: حَرَدْتُ حَرْدَك، أي: قصدتُ قصدَك. ومنه قول الراجز:

أقبل سَيْلٌ جاء من عند اللهْ يَحْرِدُ حَرْدَ الجنَّة المُغِلَّهْ[(٤)]

أنشده النحاس:

قد جاء سيلٌ جاء من أمر اللهْ يَحْرِدُ حَرْدَ الجنَّة المُغِلَّهْ

قال المبرِّد: المُغِلّة: ذات الغَلّة. وقال غيره: المُغِلّة: التي يجري الماء في غَلَلها؛ أي: في أصولها. ومنه: تغلّلت بالغالية. ومنه تغلّيت، أبدل من اللام ياء. ومن قال: تَغَلّفْت؛ فمعناه عنده: جعلتها غِلافاً[(٥)].

وقال قتادة ومجاهد: «عَلَى حَرْدٍ» أي: على جِدّ. الحسن: على حاجة وفاقة[(٦)].

وقال أبو عبيدة والقُتَيبِيّ: على حَرْد: على منع[(٧)]؛ من قولهم: حَارَدَتِ الإبلُ

---

(١) ديوان دريد بن الصمة ص٤٥، وفيه: لم أهلك خفاتاً.
مات خفاتاً: مات فجأة، السُّلال: السّلّ.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٦٨.

(٣) تفسير الرازي ٣٠/ ٨٧.

(٤) الصحاح (حرد)، وسلف ٦/ ٣٠.

(٥) من قوله: قال المبرد، إلى هذا الموضع، ليس في (ظ).

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٧٦ - ١٧٨.

(٧) مجاز القرآن ٢/ ٢٦٥، وتفسير غريب القرآن ص٤٧٩، ونقله المصنف عنهما بواسطة تفسير البغوي ٤/ ٣٨٠.

حِراداً، أي: قلّت ألبانُها. والحَرُود من النُّوق: القليلة الدَّرّ. وحارَدتِ السَّنَةُ: قلّ مطرها وخيرها[١]. وقال السدّي وسفيان: «عَلَى حَرْدٍ»: على غضب[٢].

والحَرْد: الغضب. قال أبو نصر أحمد بن حاتم صاحب الأصمعي: وهو مخفف، وأنشد شعراً:

إذا جيادُ الخيلِ جاءت تَرْدِي مملوءةً من غَضَبٍ وحَرْدِ[٣]

وقال ابن السِّكِّيت: وقد يحرّك، تقول منه: حَرِد ـ بالكسر ـ حَرَداً، فهو حارد وحَرْدان. ومنه قيل: أَسَدٌ حارِدٌ، ولُيُوثٌ حَوارد. وقيل: «عَلَى حَرْدٍ»: على انفراد. يقال: حَرَد يَحْرِد حُرُوداً، أي: تنَحَّى عن قومه ونزل منفرداً ولم يخالطْهم. وقال أبو زيد: رجل حرِيد من قوم حُرَدَاء. وقد حَرَد يَحْرِد حُروداً: إذا ترك قومَه وتحوّل عنهم. وكوكبٌ حَرِيد، أي: معتزلٌ عن الكواكب[٤].

قال الأصمعي: رجل حَرِيد، أي: فريدٌ وحيدٌ. قال: والمُنْحرد: المنفرد في لغة هُذَيل. وأنشد لأبي ذؤيب:

كأنه كوكبٌ في الجَوّ مُنْحَرِدُ[٥]

ورواه أبو عمرو بالجيم، وفسّره: منفردٌ. قال: وهو سُهَيْلٌ[٦].

---

(١) الصحاح (حرد).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٣٣٨ عن الشعبي وسفيان، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٦٩ عن السدي.

(٣) الرجز لقبيصة بن النصراني كما في شرح ديوان الحماسة ٢/ ٦٢٤ ، وهو في مجمع الأمثال ١/ ١٤٤ دون نسبة. قال المرزوقي: تردي: الرَّدَيان ضرب من المشي، والمعنى إذا جاءت الخيل العِتاق قد حميت ونشطت فامتلأت عضباً، وصار مشيها رَدَياناً.

(٤) الصحاح (حرد).

(٥) عجز بيت صدره: من وَحْشِ حَوْضَى يُراعي الصيد مبتقلا. وهو في ديوان الهذليين ص١٢٦ وروايته: منجرد، بدل: منحرد. والبيت أيضاً في المعاني الكبير ٢/ ٧٦١ .

(٦) الصحاح (حرد).

وقال الأزهريّ[١]: حَرْد اسم قريتهم.

السُّدي: اسم جنتهم، وفيه لغتان: حَرْدٌ وحَرَد[٢]. وقرأ العامة بالإسكان. وقرأ أبو العالية وابن السَّمَيْفَع بالفتح، وهما لغتان[٣]. ومعنى «قَادِرِين»: قد قدّروا أمرهم وبَنَوْا عليه. قاله الفرّاء[٤].

وقال قتادة: قادرين على جنتهم عند أنفسهم. وقال الشعبيّ: «قَادِرِينَ» يعني على المساكين. وقيل: معناه من الوجود، أي: مَنعوا وهم واجدون[٥].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي: لما رأوها محترقةً لاشيء فيها قد صارت كالليل الأسود ينظرون إليها كالرماد، أنكروها وشَكُّوا فيها. وقال بعضهم لبعض: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي: ضللنا الطريق إلى جَنَّتِنَا. قاله قتادة[٦]. وقيل: أي: إنا لضالُّون عن الصواب في غدوّنا على نية منع المساكين؛ فلذلك عوقبنا. ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي: حُرِمنا جنتنا بما صنعنا.

روى أسباط عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكُم والمعاصي، إنَّ العبدَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ، فيُحْرَم به رزقاً كان هُيِّيءَ له. ثمَّ تلا: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ الآيتين»[٧].

---

(١) في تهذيب اللغة ٤/ ٤١٤ .

(٢) زاد المسير ٨/ ٣٣٦ - ٣٣٧ .

(٣) ذكر القراءة بالتحريك ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦٠ دون نسبة.

(٤) نقله عنه بنحوه الأزهري في تهذيب اللغة ٤/ ٤١٤ .

(٥) زاد المسير ٨/ ٣٣٨ .

(٦) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٠٩ .

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ٢٥٣ ، وذكره ابن كثير ٨/ ١٩٦ وفي إسناده عمر بن صبح؛ قال ابن حبَّان في المجروحين ٢/ ٨٨: كان ممن يضع الحديث على الثقات. وفي الباب عن ثوبان عند أحمد (٢٢٣٨٦) وإسناده ضعيف.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي: أمثلُهم وأعدلُهم وأعقلُهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي: هلّا تستثنون. وكان استثناؤهم تسبيحاً. قاله مجاهد وغيره[١]. وهذا يدلُّ على أنَّ هذا الأوسطَ كان أمرهم بالاستثناء فلم يطيعوه[٢].

قال أبو صالح: كان استثناؤهم سبحان الله. فقال لهم: هَلّا تسبحون الله، أي: تقولون سبحان الله وتشكرونه على ما أعطاكم[٣].

قال النّحاس: أصل التسبيح التنزيهُ لله عزَّ وجلّ، فجعل مجاهدٌ التسبيح في موضع إن شاء الله؛ لأنَّ المعنى تنزيهُ الله عزَّ وجلَّ أن يكون شيء إلا بمشيئته[٤].

وقيل: هلّا تستغفرونه من فعلكم وتتوبون إليه من خُبْث نيّتكم؛ كان[٥] أوسطهم قال لهم حين عزموا على ذلك وذكّرهم انتقامَه من المجرمين[٦].

﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ اعترفوا بالمعصية ونزّهوا الله عن أن يكون ظالماً فيما فعل[٧]. قال ابن عباس في قولهم: «سُبْحَانَ رَبِّنَا» أي: نستغفر الله من ذنبنا. ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ لأنفسنا في منعنا المساكين.

---

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ١٨٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٥٠، وتفسير البغوي ٤/ ٣٨٠.

(٢) ينظر تفسير الرازي ٣٠/ ٩٠.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٠.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٠٩، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٢٦.

(٥) في (م): فإن.

(٦) في الكشاف ٤/ ١٤٥ والكلام منه: كان أوسطهم قال لهم حين عزموا على ذلك: اذكروا الله وانتقامه من المجرمين..

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٠.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ أي: يلوم هذا هذا في القَسَم ومنعِ المساكين، ويقول: بل أنت أشرتَ علينا بهذا[١]. ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ أي: عاصين بمنع حقِّ الفقراء وترك الاستثناء. وقال ابن كَيْسَان: طَغَيْنا نِعَمَ الله فلم نشكرها كما شكرها آباؤنا من قبل[٢].

﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ تعاقدوا وقالوا: إن أبدلنا الله خيراً منها؛ لنصنعنّ كما صنعت آباؤنا، فدَعَوا الله وتضرَّعوا؛ فأبدلَهم الله من ليلتهم ما هو خير منها، وأمر جبريلَ أن يقتلع تلك الجنة المحترقة فيجعلها بزُغَر[٣] من أرض الشام، ويأخذَ من الشام جنة فيجعلها مكانها[٤].

وقال ابن مسعود: إنَّ القوم أخلصوا وعرف الله منهم صدقَهم، فأبدلهم جنة يقال لها الحيوان، فيها عنب يحمل البغلُ منها عنقوداً واحداً. وقال اليمانيّ أبو خالد: دخلتُ تلك الجنةَ فرأيت كلَّ عنقود منها كالرجل الأسود القائم[٥].

وقال الحسن: قول أهل الجنة: «إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ» لا أدري إيماناً كان ذلك منهم، أو على حدّ ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشدة؛ فيوقف في كونهم مؤمنين.

وسئل قتادة عن أصحاب الجنة: أهم من أهل الجنَّة أم من أهل النَّار؟ فقال: لقد كلَّفْتني تعباً[٦]. والمعظم يقولون: إنهم تابوا وأخلصوا. حكاه القشيريّ.

---

(١) زاد المسير ٨/ ٣٣٨ - ٣٣٩ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٠ .

(٣) زُغر: قرية بمشارف الشام. اللسان (زغر).

(٤) ليس في هذا الكلام ما يصح.

(٥) مجمع البيان ٢٩/ ٣٠ ، وأثر ابن مسعود ذكره أيضاً في الكشاف ٤/ ١٤٥ .

(٦) الكشاف ٤/ ١٤٥ ، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٠٩ .

وقراءة العامة: «يُبْدِلَنَا» بالتخفيف. وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو بالتشديد، وهما لغتان[١].

وقيل: التبديل تغيير الشيء أو تغيير حاله وعينُ الشيء قائم. والإبدال رفعُ الشيء ووضع آخرَ مكانَه[٢]. وقد مضى في سورة النساء القول في هذا[٣].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: عذابُ الدنيا وهلاكُ الأموال. عن ابن زيد. وقيل: إنَّ هذا وَعْظٌ لأهل مكة بالرجوع إلى الله لما ابتلاهم بالجَدْب لدعاء النبيّ ﷺ[٤]؛ أي: كفِعْلنا بهم نفعل بمن تعدّى حدودنا في الدنيا[٥] ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ وقال ابن عباس: هذا مَثَلٌ لأهل مكةَ حين خرجوا إلى بَدْرٍ وحلفوا ليقتلنَّ محمداً ﷺ وأصحابَه، وليرجعنّ إلى مكة حتى يطوفوا بالبيت ويشربوا الخمر، وتضربَ القَيْنات على رؤوسهم؛ فأخلف الله ظنَّهم وأُسِرُوا وقُتلوا وانهزموا كأهل هذه الجنة لما خرجوا عازمين على الصِّرَام فخابوا[٦].

ثم قيل: إنَّ الحقَّ الذي منعه أهلُ الجنة المساكين يحتمل أنه كان واجباً عليهم، ويحتمل أنه كان تطوعاً، والأول أظهر، والله أعلم.

وقيل: السورة مَكّية؛ فَبَعُدَ حملُ الآية على ما أصاب أهلَ مكة من القَحْط، وعلى قتال بَدْر.

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بالتشديد، وقرأ الباقون بالتخفيف. السبعة ص ٣٩٧، والتيسير ص ١٤٥ والنشر ٢/ ٣١٤.

(٢) زاد المسير ٨/ ٣٣٩.

(٣) ٦/ ٤٢٠.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٣٥١، والكشاف ٤/ ١٤٣، ودعاء النبي ﷺ على قريش سلف ١٩/ ١٠٧.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣٨١، وزاد المسير ٨/ ٣٣٩.

(٦) تفسير الرازي ٣٠/ ٩١ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ تقدم القول فيه، أي: إنَّ للمتقين في الآخرة جناتٍ ليس فيها إلا التنعّم الخالص، لا يشوبُه ما ينغّصُه كما يشوب جناتِ الدنيا[(١)].

وكان صناديدُ قريش يَرَوْن وفورَ حظّهم من الدنيا وقلّةَ حظوظ المسلمين منها، فإذا سمعوا بحديث الآخرة وما وعد الله المؤمنين قالوا: إن صَحَّ أنّا نُبْعث كما يزعم محمدٌ ومن معه، لم يكن حالُنا وحالُهم إلا مثل ما هي في الدنيا، وإلا لم يزيدوا علينا ولم يَفْضُلونا، وأقصى أمرِهم أن يُساوونا. فقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كالكفار[(٢)].

وقال ابن عباس وغيره: قال كفار مكة: إنا نُعطى في الآخرة خيراً مما تُعْطَوْن؛ فنزلت: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾[(٣)] ثم وبّخهم فقال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحُكْمَ الأعوج؛ كأنَّ أمر الجزاء مفوّضٌ إليكم حتى تحكموا فيه بما شئتم[(٤)] أنَّ لكم من الخير ما للمسلمين! ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ أي: ألكم كتاب تجدون فيه المطيع كالعاصي؟!

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾: تختارون وتشتهون[(٥)]. والمعنى: أنَّ لكم ـ بالفتح ـ ولكنه كسر لدخول اللام، تقول: علمت أنك عاقل؛ بالفتح، وعلمت إنَّك لعاقل؛ بالكسر.

---

(١) تفسير الرازي ٣٠/ ٩١.

(٢) الكشاف ٤/ ١٤٥ - ١٤٦.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٨١، وزاد المسير ٨/ ٣٣٩ بدون نسبة.

(٤) الكشاف ٤/ ١٤٦.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣٨١، وزاد المسير ٨/ ٣٣٩.

فالعامل في «إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ»: «تَدْرُسُونَ» في المعنى، ومنعت اللامُ من فتح«إن»[١] .

وقيل: تمَّ الكلامُ عند قوله: «تَدْرُسُونَ»، ثم ابتدأ فقال: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ أي: إنَّ لكم في هذا الكتاب إذاً ما تخيّرون، أي: ليس لكم ذلك. والكناية في «فيه» الأولى والثانية راجعة إلى الكتاب.

ثم زاد في التوبيخ فقال: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَنٌ﴾ أي: عهود ومواثيق[٢] .﴿عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ﴾ مؤكَّدة. والبالغة المؤكّدة بالله تعالى[٣]. أي: أم لكم عهودٌ على الله تعالى استوثقتم بها في أن يدخلَكم الجنة.

﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ كُسرت «إنَّ» لدخول اللام في الخبر[٤]. وهي من صلة «أيمان»، والموضع النصبُ ولكن كسرت لأجل اللام، تقول: حلفت إن لك لكذا.

وقيل: تمَّ الكلام عند قوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ إذاً، أي: ليس الأمر كذلك.

وقرأ ابن هُرْمُز: «آئنّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تخيّرون»، «آئنّ[٥] لكم لَما تحكمون» بالاستفهام فيهما جميعاً[٥].

وقرأ الحسن البصري: «بالغةً» بالنصب على الحال[٦]؛ إما من الضمير في «لكم» لأنَّه خبر عن «أيمان» ففيه ضمير منه، وإما من الضمير في «علينا» إن قدّرت «علينا»

---

(١) قال الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٤٦: الأصل: تدرسون أنَّ لكم ما تخيَّرون، بفتح أن؛ لأنه مدروس، فلما جاءت اللام كُسرت.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٨١ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٧٠ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٨١ .

(٥) المثبت من (خ)، وهو الموافق لما في القراءات الشاذة لابن خالويه ص١٦٠ حيث قيَّدها بالمد.

(٦) القراءات الشاذة ص١٦٠ ، والمحتسب ٢/ ٣٢٥ .

وصفاً للأيمان لا متعلقاً بنفس الأيمان؛ لأنَّ فيه ضميراً منه، كما يكون إذا كان خبراً عنه. ويجوز أن يكون حالاً من «أيمان» وإن كانت نكرة، كما أجازوا نصب «حَقّاً» على الحال من «متاع» في قوله تعالى: ﴿مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[(١)] [البقرة: ٢٤١].

وقرأ العامة: «بالغةٌ» بالرفع نعت لـ «أيمان»[(٢)].

قوله تعالى: ﴿سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝٤٠ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ۝٤١﴾

قوله تعالى: ﴿سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ أي: سلْ يا محمد هؤلاء المتقوّلين عليَّ: أيُّهم كفيلٌ بما تقدم ذكرُه، [وهو أنَّ لهم في الآخرة من الخير][(٣)] ما للمسلمين؟ والزعيم: الكفِيل والضّمين. قاله ابن عباس وقتادة[(٤)]. وقال ابن كيسان: الزعيم هنا القائم بالحجة والدعوى. وقال الحسن: الزعيم الرسول[(٥)].

﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ﴾ أي: ألهم، والميم صلة. «شُرَكَاء» أي: شهداء. ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ﴾ يشهدون على ما زعموا. ﴿إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواهم. وقيل: أي: فليأتوا بشركائهم إن أمكنهم؛ فهو أمر معناه التعجيز.

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝٤٢ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾ يجوز أن يكون العامل في ﴿يَوۡمَ﴾: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ﴾

---

(١) المحتسب ٢/ ٣٢٥ - ٣٢٦.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٥١.

(٣) ما بين معكوفين زيادة يقتضيها السياق، وينظر زاد المسير ٨/ ٣٤٠.

(٤) زاد المسير ٨/ ٣٤٠، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٨٦، وينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢١٠.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٧٠.

أي: فليأتوا بشركائهم يومَ يُكشف عن ساق، ليشفع الشركاءُ لهم. ويجوز أن ينتصب بإضمار فعل، أي: اذكر يوم يكشف عن ساق؛ فيوقف على «صَادِقِينَ». ولا يوقف عليه على التقدير الأول.

وقرىء: «يوم نكشف» بالنون(١). «وقرأ» ابن عباس: «يوم تَكْشِف عن ساق»(٢) بتاء مسمَّى الفاعل، أي: تكشف الشدةُ أو القيامةُ عن ساقها، كقولهم: شَمّرت الحربُ عن ساقها. قال الشاعر:

فتى الحرب إن عضّتْ به الحربُ عَضَّها ... وإن شَمّرتْ عن ساقها الحربُ شَمّرا(٣)

وقال الراجز:

قد كشفتْ عن ساقها فشُدُّوا ... وجَدّت الحربُ بكم فَجِدُّوا(٤)

وقال آخر:

عجبتُ من نفسي ومن إشفاقها ... ومن طِرَاد الطيرِ عن أرزاقها

في سَنةٍ قد كَشَفَتْ عن ساقها ... حمراءَ تَبْري اللحمَ عن عُرَاقها(٥)

وقال آخر:

كشفتْ لهم عن ساقِها ... وبدا من الشَّرِّ الصُّرَاح(٦)

(١) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦٠ لابن عباس.

(٢) المحتسب ٢/ ٣٢٦، وأخرجها الفراء في معاني القرآن له ٢/ ١٧٧.

(٣) البيت لحاتم الطائي كما في الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ٢٤٧، وهو في ديوانه ص٤٩ وروايتهما (أخو) بدل (فتى) ونسبه صاحب الحماسة البصرية ١/ ٧٨ لزيد الخيل، وهو في ديوانه ص٦١. ونسبه صاحب العقد الفريد ٥/ ٢٤٥ لحذيفة بن أنس.

(٤) الرجز في الكامل ٢/ ٤٩٤ دون نسبة.

(٥) الرجز لأعرابي كان يطرد الطير عن زرع في سنة جدْب كما في غريب الحديث لابن قتيبة ١/ ٦٦-٦٧. وروايته (مِطْرادي) بدل (طراد)، قال ابن قتيبة العُرَاق: العظم.

(٦) البيت لسعد بن مالك كما في شرح ديوان الحماسة ٢/ ٥٠٢.

وعن ابن عباس أيضاً والحسن وأبي العالية: «تُكْشَفُ» بتاء غير مسمّى الفاعل[١]. وهذه القراءة راجعةٌ إلى معنى «يُكْشَف»، وكأنه قال: يوم تَكْشف القيامةُ عن شدَّة.

وقرىء: «يَوْمَ تُكْشِف» بالتاء المضمومة وكَسْر الشين؛ من أكشف: إذا دخل في الكشف، ومنه: أكشف الرجل فهو مُكشف[٢]: إذا انقلبت شَفَتُه العليا[٣].

وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا أسامةُ بن زيد، عن عكرمةَ، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال: عن كرب وشدّة. أخبرنا ابن جُريج عن مجاهد قال: شدّة الأمر وجِدّه. وقال مجاهد: قال ابن عباس: هي أشدُّ ساعةٍ في يوم القيامة[٤]. وقال أبو عبيدة[٥]: إذا اشتد الحربُ والأمرُ قيل: كشف الأمرُ عن ساقه

والأ[صـ]ـل فيه أنَّ من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجِدّ شَمّر عن ساقه، فاستعير الساق والكشف عنها في موضع الشدة[٦].

وقيل: ساقُ الشيء: أصلُه الذي به قِوامه، كساق الشجرة وساق الإنسان، أي: يومَ يُكشف عن أصل الأمر، فتظهر حقائقُ الأمور وأصلُها. وقيل: يُكشف عن ساق جهنم. وقيل: عن ساق العرش[٧]. وقيل: يريد وقتَ اقتراب الأجل وضعف البدن؛ أي: يَكشِفُ المريضُ عن ساقه ليُبْصِرَ ضعفَه، ويدعوه المؤذن إلى الصلاة فلا يمكنه أن يقوم ويخرج[٨].

فأما ما رُوِي أنَّ الله يكشف عن ساقه؛ فإنَّه عز وجل يتعالى عن الأعضاء

---

(١) ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٣٢٦ دون نسبة.

(٢) في (د) مكشوف، وفي (ظ) منكشف.

(٣) الكشاف ٤/ ١٤٧.

(٤) الزهد (٣٦١ - ٣٦٢) زوائد نعيم.

(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٢٦٦.

(٦) تأويل مشكل القرآن ص١٠٣.

(٧) تفسير الرازي ٣٠/ ٩٥.

(٨) تفسير الرازي ٣٠/ ٩٥ بنحوه.

والتبعيض وأن يكشف ويتغطى. ومعناه أن يكشف عن العظيم من أمره. وقيل: يكشف عن نوره عزَّ وجلَّ[(١)].

وروى أبو موسى عن النبيّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿عَن سَاقٍ﴾ قال: «يُكشفُ عن نورٍ عظيم يخرُّون له سجداً»[(٢)].

وقال أبو الليث السَّمَرْقَنْدِيّ في تفسيره[(٣)]: حدّثنا الخليل بن أحمد قال: حدّثنا ابنُ مَنِيع قال: حدّثنا هُدْبة قال: حدّثنا حمَّاد بنُ سَلَمة، عن علي[(٤)] بنِ زيد، عن عمارةَ القرشي، عن أبي بُردة بن[(٥)] أبي موسى، قال: حدّثني أبي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يومُ القيامة، مُثِّلَ لكل قوم ما كانوا يعبدون في الدنيا، فيذهب كلُّ قومٍ إلى ما كانوا يعبدون، ويبقى أهلُ التوحيد فيقال لهم: ما تنتظرون وقد ذهب الناس؟ فيقولون: إنَّ لنا ربًّا كنا نعبده في الدنيا ولم نره. قال: وتعرفونه إذا رأيتموه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وكيف تعرفونه ولم تروه؟ قالوا: إنَّه لا شبيه له. فيُكشفُ لهم الحجابُ، فينظرون إلى الله تعالى، فيخرُّون له سُجَّداً، وتبقى أقوامٌ ظهورُهم مثل صَيَاصِي[(٦)] البقر، فينظرون إلى الله تعالى، فيريدون السجود فلا يستطيعون، فذلك قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ فيقول الله تعالى: «عبادي ارفعوا رؤوسَكم؛ فقد جعلت بدلَ كلِّ رجلٍ منكم رجلاً من

(١) ما ثبت وصح من نصوص الصفات الخبرية لله عز وجل يجب إثباتها له تعالى بلا تحريف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تأويل ولا تعطيل.

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٧٢٨٣)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٧٥٢) عن روح بن جناح، عن مولى عمر بن عبد العزيز، عن أبي بردة، عن أبي موسى مرفوعاً. قال البيهقي: تفرد به روح بن جناح، وهو شامي يأتي بأحاديث منكرة لا يتابع عليها والله أعلم، وموالي عمر بن عبد العزيز فيهم كثرة.

(٣) ٣/ ٣٩٥.

(٤) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: عدي، وهو خطأ.

(٥) في النسخ: عن، وهو خطأ.

(٦) صياصي البقر: قرونها. النهاية (صيص).

اليهود والنصارى في النار». قال أبو بردة: فحدثت بهذا الحديث عمرَ بن عبد العزيز فقال: آللهِ الذي لا إله إلا هو، لقد حَدَّثك أبوك بهذا الحديث؟ فحلف له ثلاثةَ أيمان؛ فقال عمر: ما سمعت في أهل التوحيد حديثاً هو أحبُّ إليَّ من هذا(١).

وقال قيس بن السَّكَن(٢): حَدّث عبد الله بن مسعود عند عمر بن الخطاب فقال: إذا كان يوم القيامة، قام الناس لربِّ العالمين أربعين عاماً شاخصةً أبصارُهم إلى السماء، حُفاةً عُراةً يُلْجمهم العرق، فلا يكلّمهم الله ولا ينظر إليهم أربعين عاماً، ثم ينادي منادٍ: أيها الناس، أليس عدلاً من ربكم الذي خلقكم وصوّركم وأماتكم وأحياكم ثمَّ عبدتم غيره أن يُوَلِّيَ كلَّ قوم ما تولَّوْا؟ قالوا: نعم. قال: فيرفع لكلِّ قوم ما كانوا يعبدون من دون الله، فيتبعونها حتى تقذفَهم في النار، فيبقى المسلمون والمنافقون فيقال لهم: ألا تذهبون قد ذهب الناس؟ فيقولون: حتى يأتينا ربُّنا، فيقال لهم: أوَ تعرفونه؟ فيقولون: إن اعترف لنا عَرَفناه. قال: فعند ذلك يكشف عن ساق ويتجلّى لهم فيخرّ من كان يعبده مخلصاً ساجداً، ويبقى المنافقون لا يستطيعون كأنَّ في ظهورهم السفافيد(٣)، فيُذْهَب بهم إلى النار، ويدخل هؤلاء الجنة؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾(٤).

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي: ذليلةً متواضعةً، ونصبُها على الحال. ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ وذلك أن المؤمنين يرفعون رؤوسَهم ووجوهُهم أشدُّ بياضاً من الثلج. وتسودّ وجوه المنافقين والكافرين(٥) حتى ترجع أشدَّ سواداً من القار.

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٩٥ ، والوسيط ٤/ ٣٤٠ - ٣٤١، وأخرجه ابن عساكر في تاريخه ٤٣/ ٣٣٤، وعلي بن زيد ـ وهو ابن جُدعان ـ وعُمارة القرشي: ضعيفان. ميزان الاعتدال ٣/ ١٢٧ و١٧٨ .

(٢) هو الأسدي الكوفي، أخو بني سُواءة، قال يحيى بن معين: ثقة، قال أبو حاتم: توفي زمن مصعب بن الزبير. تهذيب الكمال ٦/ ١٣٨ .

(٣) السفافيد: ـ جمع السَّفُّود ـ الحديدة التي يُشوى بها اللحم. الصحاح (سفد).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٩٠ - ١٩١ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٣ .

قلت: معنى حديث أبي موسى وابن مسعود ثابت في صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدريّ وغيره[١].

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ أي: في الدنيا[٢]. ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ مُعَافَوْن أصحّاء. قال إبراهيم التَّيْميّ: أي: يُدعون بالأذان والإقامة فيأبَوْنه. وقال سعيد بن جُبَير: كانوا يسمعون: حيَّ على الفلاح، فلا يجيبون. وقال كعب الأحبار: والله ما نزلت هذه الآيةُ إلا في الذين يتخلّفون عن الجماعات[٣]. وقيل: أي: بالتكليف المُوَجَّه عليهم في الشرع، والمعنى متقارب. وقد مضى في سورة البقرة الكلام في وجوب صلاة الجماعة[٤].

وكان الربيع بن خَيْثم قد فُلِجَ، وكان يُهَادَى[٥] بين الرجلين إلى المسجد؛ فقيل: يا أبا يزيد، لو صلّيتَ في بيتك لكانت لك رخصة. فقال: من سمع حيّ على الفلاح؛ فلْيُجِبْ ولو حبْواً. وقيل لسعيد بن المسيّب: إنَّ طارقاً يريد قتلك فتغيّب. فقال: أبحيث لا يَقْدِر الله عليّ؟ فقيل له: اجلس في بيتك. فقال: أسمع حيّ على الفلاح، فلا أجيب[٦]!

قوله تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ۝٤٥﴾

قوله تعالى: ﴿فَذَرْنِى﴾ أي: دَعْنِي. ﴿وَمَن يُكَذِّبُ﴾ «مَنْ» مفعول معه أو معطوف

---

(١) صحيح مسلم (١٨٣) (٣٠٢)، وهو في صحيح البخاري (٤٥٨١)، ومسند أحمد (١١١٢٧) مطولاً عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٥ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٣ .

(٤) ٢/ ٣٠ فما بعدها.

(٥) يهادى بين الرجلين: أي: يمشي بينهما معتمداً عليهما من ضعفه وتمايله. النهاية (هدا).

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٣٥٣ .

على ضمير المتكلم[١]. ﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني القرآنَ. قاله السدّيّ. وقيل: يوم القيامة[٢]. وهذا تسليةٌ للنبيّ ﷺ، أي: فأنا أجازيهم وأنتقم منهم.

ثم قال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ معناه: سنأخذهم على غفلة وهم لا يعرفون، فعُذِّبوا يوم بَدْر[٣].

وقال سفيان الثَّوْريّ: نُسبغ عليهم النعمَ ونُنسيهم الشكرَ. وقال الحسن: كم مستدرَجٍ بالإحسان إليه، وكم مفتونٍ بالثناء عليه، وكم مغرورٍ بالسّتر عليه[٤].

وقال أبو رَوْق: أي: كلّما أحدثوا خطيئةً جدّدنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار[٥].

وقال ابن عباس: سنمكر بهم[٦]. وقيل: هو أن نأخذَهم قليلاً ولا نباغتهم[٧].

وفي حديث: «أنَّ رجلاً من بني إسرائيل قال: يا ربّ، كم أعصيك وأنت لا تعاقبني قال: فأوحى الله إلى نبيّ زمانِهم أن قل له: كم من عقوبة لي عليك وأنت لا تشعر؛ إنَّ جمود عينيك وقَسَاوَةَ قلبك استدراجٌ منّي وعقوبةٌ لو عقَلَت»[٨].

والاستدراج: ترك المعاجلة. وأصله: النقلُ من حالٍ إلى حالٍ كالتدرّج. ومنه قيل: درجة؛ وهي منزلة بعد منزلة[٩]. واستدرج فلان فلاناً، أي: استخرج ما عنده قليلاً. ويقال: درّجه إلى كذا واستدرجه بمعنىً: أدناه منه على التدريج، فتدرّج هو.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٧٢.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٤.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٣٥٣.

(٥) تفسير الرازي ٣٠/ ٩٦.

(٦) نسبه البغوي في تفسيره ٢/ ٢١٨ لعطاء في تفسير الآية (١٨٢) من سورة الأعراف.

(٧) تهذيب اللغة ١٠/ ٦٤٢.

(٨) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ١٦٨ عن عبد الله بن خبيق بنحوه.

(٩) النكت والعيون ٦/ ٧٢.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أمهلُهم وأطيلُ لهم المدّة[١]. والملاوة: المُدة من الدهر. وأملى الله له، أي: أطال له. والملَوان: الليل والنهار. وقيل: «وأُمْلِي لَهُمْ» أي: لا أعاجلهم بالموت[٢]؛ والمعنى واحد. وقد مضى في «الأعراف» بيان هذا[٣].

﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ أي: إنَّ عذابي لقويّ شديد، فلا يفوتني أحد[٤].

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾

عاد الكلام إلى ما تقدّم من قوله تعالى: «أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ». أي: أم تلتمس منهم ثواباً على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله؟ فهم من غرامةِ ذلك مُثْقَلون لِما يشقّ عليهم من بذل المال، أي: ليس عليهم كُلْفة، بل يستولون بمتابعتك على خزائن الأرض ويَصِلون إلى جنات النعيم.

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أي: علمُ ما غاب عنهم ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ وقيل: أينزل عليهم الوَحْيُ بهذا الذي يقولون. وعن ابن عباس: الغيب هنا اللوحُ المحفوظ، فهم يكتبون مما فيه يخاصمونك به، ويكتبون أنَّهم أفضلُ منكم، وأنَّهم لا يعاقبون! وقيل: «يَكْتُبُونَ»: يحكمون لأنفسهم بما يريدون!

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: لقضاء ربّك[٥]. والحُكْم هنا القضاء. وقيل: فاصبر على ما حَكَم به عليك ربُّك من تبليغ الرسالة[٦]. وقال ابن بحر: فاصبرْ لنصر

---

(١) تفسير البغوي ٢/٢١٨ في تفسير الآية (١٨٣) من سورة الأعراف.

(٢) تفسير الرازي ٣٠/٩٧.

(٣) ٩/٣٩٨.

(٤) بعدها في (ظ) زيادة: ممن عصاني والله هو الحليم.

(٥) النكت والعيون ٦/٧٣.

(٦) تفسير الرازي ٣٠/٩٨.

ربك[١]. قال قتادة: أي: لا تعجلْ ولا تغاضبْ؛ فلا بدّ من نصرك[٢]. وقيل إنَّه منسوخ بآية السيف[٣]. ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ يعني يونسَ عليه السلام. أي: لا تكنْ مثلَه في الغضب والضَّجَر والعَجَلة[٤].

وقال قتادة: إنَّ الله تعالى يُعَزِّي نبيَّه ﷺ ويأمره بالصبر، ولا يعجَل كما عَجِل صاحبُ الحُوت[٥]. وقد مضى خبرُه في سورة يونس، والأنبياء، والصافات[٦]، والفرقُ بين إضافة ذي وصاحب في سورة يونس والأنبياء[٧]، فلا معنى للإعادة.

﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ أي: حين دعا في بطن الحوت فقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي: مملوء غمّاً. وقيل: كرباً. الأوّل قول ابنِ عباس ومجاهد. والثاني قول عطاء وأبي مالك. قال الماورديّ[٨]: والفرق بينهما أنَّ الغمَّ في القلب، والكربَ في الأنفاس. وقيل: مكظوم محبوس. والكَظْم الحبس، ومنه قولُهم: فلان كَظَم غيظَه، أي: حبس غضبه. قاله ابن بحر.

(١) النكت والعيون ٦/ ٧٣ .

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ٢٠٠ .

(٣) الناسخ والمنسوخ لابن الجوزي ص٥٣ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٤ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٧٣ .

(٦) ١١/ ٥٤ - ٥٥ ، ١٤/ ٢٦٦ فما بعدها، ١٨/ ٨٧ .

(٧) لفظة «والأنبياء» من (ظ)، وينظر ما سلف من سورة الأنبياء ١٤/ ٢٦٦ عند قول المصنف: وذا النون وهو لقب يونس بن متّى، و١٤/ ٢٦٧ عند قول المصنف: ولم يحمل أثقال النبوة ولهذا قيل للنبي ﷺ ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾.

قال في التعريف والإعلام ص١١٣ - ١١٤ : بين اللفظتين تفاوت كثير في حسن الإشارة إلى الحالتين وتنزيل الكلام في الموضعين، فإنه حين ذكره في موضع الثناء عليه قال: ذا النون، ولم يقل: صاحب، والإضافة بذو أشرف من الإضافة بصاحب لأن قولك: ذو يضاف إلى التابع، وصاحب يضاف إلى المتبوع.

(٨) في النكت والعيون ٦/ ٧٣ وما قبله منه.

وقيل: إنَّه المأخوذُ بكظمه، وهو مجرى النفس. قاله المبرّد. وقد مضى هذا وغيرُه في «يوسف»[١].

قوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قراءة العامة: «تَدَارَكَهُ». وقرأ ابن هُرْمُز والحسن: «تَدَّارَكه» بتشديد الدال[٢]؛ وهو مضارع أُدغمتِ التاءُ منه في الدال. وهو على تقدير حكاية الحال، كأنه قال: لولا أن كان يقال فيه تتداركه نعمة. ابن عباس وابن مسعود: «تداركته» وهو خلاف المرسوم[٣].

و«تَدَارَكَهُ» فعلٌ ماضٍ مذكّر حُمل على معنى النعمة؛ لأنَّ تأنيثَ النعمة غيرُ حقيقي. و«تداركته» على لفظها[٤].

واختلِف في معنى النعمة هنا؛ فقيل النُّبوة. قاله الضحاك. وقيل: عبادته التي سلفت. قاله ابن جُبير. وقيل: نداؤه ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. قاله ابن زيد. وقيل: نعمة الله عليه إخراجُه من بطن الحوت. قاله ابن بحر[٥]. وقيل: أي: رحمَة من ربه، فَرَحِمه وتاب عليه[٦].

﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ أي: لَنُبِذ مذموماً ولكنه نُبذ سقيماً غير مذموم[٧]. ومعنى

---

(١) ١١/ ٤٣٢.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٥٤، وقراءة ابن هرمز ـ وهو الأعرج ـ والحسن في القراءات الشاذة ص١٦٠، والمحتسب ٢/ ٣٢٦.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٥٤ بنحوه، وقراءة ابن عباس وابن مسعود ﷺ في القراءات الشاذة ص١٦٠ ووقع في مطبوعه «تداركنه» وهو خطأ.

(٤) البيان لابن الأنباري ٢/ ٤٥٥.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٧٣.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٤، وزاد المسير ٨/ ٣٤٣.

(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٩٦.

«مَذْمُومٌ» في قول ابن عباس: مُلِيم[١]. قال بكر بن عبد الله: مذنب[٢]. وقيل: «مذموم»: مُبْعَدٌ من كلّ خير.

والعَرَاء: الأرض الواسعة الفضاء التي ليس فيها جبلٌ ولا شجرٌ يستُر[٣]. وقيل: لولا فضل الله عليه، لبقيَ في بطن الحوت إلى يوم القيامة، ثُمَّ نُبذ بعراء القيامة مذموماً. يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٤] [الصافات: ١٤٣-١٤٤].

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي: اصطفاه واختاره[٥]. ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قال ابن عباس: ردّ الله إليه الوَحْي، وشفّعه في نفسه وفي قومه[٦]، وقبِل توبتَه، وجعله من الصالحين؛ بأن أرسله إلى مئة ألف أو يزيدون.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ «إنْ» هي المخففة من الثقيلة[٧]. ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ أي: يعتانونك. ﴿بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ أخبر بشدّة عداوتهم النبيَّ ﷺ، وأرادوا أن يصيبوه بالعين فنظر إليه قومٌ من قريش وقالوا: ما رأينا مثلَه ولا مثلَ حُجَجِه. وقيل: كانت العينُ في بني أسد، حتى إنَّ البقرةَ السمينةَ أو الناقةَ السمينةَ تمرُّ بأحدهم فيعاينها ثم يقول: يا جارية، خذي المِكْتَلَ[٨] والدرهمَ فأْتينا بلحم هذه الناقة، فما تبرحُ حتى تقعَ للموت فتُنْحر.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ٢٠١.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٧٤.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٥٤، والوجيز للواحدي ـ على هامش مراح لبيد ـ ٢/ ٣٩٦ بنحوه..

(٤) تفسير الرازي ٣٠/ ٩٩.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٣٥٤.

(٦) الكشاف ٤/ ١٤٨.

(٧) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٥٢.

(٨) المِكْتَل: هو الزبيل ـ الوعاء ـ الذي يحمل فيه التمر أو العنب. اللسان (زبل)، (كتل).

وقال الكلبي: كان رجلٌ من العرب يمكث لا يأكل شيئاً يومين أو ثلاثة، ثمَّ يرفع جانبَ الخِباء، فتمرّ به الإبلُ أو الغنمُ فيقول: لم أرَ كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه! فما تذهب إلا قليلاً حتى تسقطَ منها طائفةٌ هالكةٌ. فسأل الكفار هذا الرجلَ أن يصيبَ لهم النبيَّ ﷺ بالعين فأجابهم[١] فلما مرّ النبيُّ ﷺ أنشد:

قد كان قومُك يحسبونك سيّداً وإخال أنَّك سيّدٌ مَعْيُونُ[٢]

فعصَم الله نبيَّه ﷺ، ونزلت: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ﴾[٣].

وذكر نحوه الماوردي[٤]، وأنَّ العربَ كانت إذا أراد أحدُهم أن يصيب أحداً بعين[٥] في نفسه وماله، تجوّع ثلاثة أيام، ثم يتعرَّض لنفسه وماله فيقول: تالله ما رأيت أقوى منه ولا أشجعَ ولا أكثرَ [مالاً] منه ولا أحسن، فيصيبه بعينه فيهلك هو ومالُه؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قال القُشَيْرِي: وفي هذا نظر؛ لأنَّ الإصابةَ بالعين إنَّما تكون مع الاستحسان والإعجاب، لا مع الكراهية والبغض، ولهذا قال: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: ينسِبونَك إلى الجنون إذا رأوك تقرأ القرآن[٦].

قلت: أقوال المفسرين واللغويّين تدلّ على ما ذكرنا، وأنَّ مرادَهم بالنظر إليه قَتْلُه. ولا يمنع كراهةُ الشيء من أن يصاب بالعين عداوة حتى يهلك.

وقرأ ابن عباس وابن مسعود والأعمش وأبو وائل ومجاهد: «ليزهقونك»[٧] أي:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٤، وأسباب النزول للواحدي ص٤٧١ - ٤٧٢.

(٢) البيت لعباس بن مرداس كما في الحيوان للجاحظ ٢/ ١٤٢، والحماسة البصرية ١/ ١٠.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٤، وأسباب النزول للواحدي ص٤٧٢.

(٤) في النكت والعيون ٦/ ٧٤ وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٥) في النسخ عدا (ظ) يعني، والمثبت موافق لما في النكت والعيون والكلام منه.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٥.

(٧) هي عن ابن عباس وابن مسعود في القراءات الشاذة ص١٦٠.

ليهلكونك. وهذه قراءة على التفسير؛ من زَهَقتْ نفسه وأَزْهقَها.

وقرأ أهل المدينة: «لَيَزْلِقُونَكَ» بفتح الياء. وضمها الباقون[١]، وهما لغتان بمعنىً، يقال: زَلَقه يَزْلِقه وأزلقه يُزلقه إزلاقاً: إذا نَحّاه وأبعده[٢].

وزَلَق رأسه يَزْلِقه زلقاً: إذا حلقه، وكذلك أزْلَقه وزَلَّقه تزليقاً، ورجل زَلِق وزُمَلِق ـ مثال هُدَبِد[٣] ـ وزَمَالق وزُمّلِق ـ بتشديد الميم ـ وهو الذي يُنزِل قبل أن يجامع. حكاه الجوهري[٤] وغيره. فمعنى الكلمة إذاً التنحية والإزالة، وذلك لا يكون في حقِّ النبيِّ ﷺ إلا بهلاكه وموته. قال الهَرَوِيّ: أراد لَيعتانونك بعيونهم، فيزيلونك عن مقامك الذي أقامك الله فيه؛ عداوةً لك.

وقال ابن عباس: ينفذونك بأبصارهم، يقال: زَلَق السهمُ وزَهَق: إذا نفذ[٥]. وهو قول مجاهد. أي: يَنْفذونك من شدّة نظرهم[٦]. وقال الكلبي: يَصْرَعونك[٧]. وعنه أيضاً والسُّدِّي وسعيد بن جُبَير: يصرفونك عمّا أنت عليه من تبليغ الرسالة[٨]. وقال العَوْفيّ: يَرْمُونك. وقال المُؤَرِّج: يُزيلونك. وقال النَّضْر بن شُميل والأخفش: يفتنونك.

وقال عبد العزيز بن يحيى: ينظرون إليك نظراً شزراً بتحديق شديد[٩]. وقال ابن

---

(١) السبعة ص٦٤٧ ، والتيسير ص٢١٣ ، والنشر ٢/ ٣٨٩ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٤ .

(٣) رجل هُدَبِد: ضعيف البصر، وبعينه هُدَبِد؛ أي: عمش. لسان (هدبد).

(٤) في الصحاح (زلق).

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٤ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ٧٤ ، وأخرجه الطبري عنهما في تفسيره ٢٣/ ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٧) النكت والعيون ٦/ ٧٤ ، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣١١ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٤ دون نسبة.

(٩) ذكره الرازي في تفسيره ٣٠/ ١٠٠ دون نسبة، ونظر إليه شزراً: هو نظر الغضبان بمؤخر العين. الصحاح (شزر).

زيد: لَيَمَسُّونك[١]. وقال جعفر الصادق: ليأكلونك. وقال الحسن وابن كَيْسان: ليقتلونك. وهذا كما يقال: صرعني بطرفه، وقتلني بعينه. قال الشاعر:

ترميك مَزْلَقَةُ العيون بطَرْفها وتَكِلُّ عنك نصالُ نَبْلِ الرامي[٢]

وقال آخر:

يتقارضون إذا التقَوْا في مجلسٍ نَظَراً يُزيلُ[٣] مواطئ الأقدام

وقيل: المعنى أنهم ينظرون إليك بالعداوة حتى كادوا يسقطونك[٤]. وهذا كلُّه راجع إلى ما ذكرنا، وأن المعنى الجامع: يصيبونك بالعين. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٥٢﴾

أي: وما القرآن إلا ذِكْرٌ للعالَمين. وقيل: أي: وما محمدٌ إلا ذِكْرٌ للعالَمين يتذكّرون به. وقيل: معناه شَرَفٌ، أي: القرآن. كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[٥] [الزخرف: ٤٤] والنبيّ ﷺ شرف للعالمين أيضاً. شَرُفوا باتباعه والإيمان به ﷺ.

---

(١) نسبه في النكت والعيون ٦/ ٧٤ للسدي.

(٢) لم نقف عليه، وتكلّ عنك: إذا تباعدت. اللسان (لحح).

(٣) المثبت من (د)، وفي غيرها: يزلُّ، والبيت في المحرر الوجيز ٥/ ٣٥٤، وهو في المعاني الكبير ٢/ ٨٤٥، والكشاف ٤/ ١٤٨، وفيهما: موطن، بدل: مجلس. وذكر عجزه الواحدي في الوسيط ٤/ ٣٤٢.

(٤) تأويل مشكل القرآن ص١٢٩ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٧٤ .

تفسير سورة « ن »

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) ﴾ .

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء فى أول «سورة البقرة» ،وأن قوله: ﴿ ن ﴾ كقوله: ﴿ ص﴾ ، ﴿ ق﴾،ونحو ذلك من الحروف المقطعة فى أوائل السور،وتحرير القول فى ذلك بما أغنى عن إعادته.

وقيل : المراد بقوله : ﴿ ن ﴾ : حوت عظيم على تيار الماء العظيم المحيط ، وهو حامل [١] للأرضين السبع ، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير :

حدثنا ابن بشار ، حدثنا يحيى ، حدثنا سفيان ــ هو الثورى ــ حدثنا سليمان ــ هو الأعمش ــ عن أبى ظَبْيان ، عن ابن عباس قال : أول ما خلق الله القلم قال : اكتب . قال : وما أكتب ؟ قال: اكتب القَدَر . فجرى بما يكون من ذلك اليوم إلى يوم قيام الساعة . ثم خلق « النون » ورفع بخار الماء، ففُتِقت منه السماء ، وبسطت الأرض على ظهر النون ، فاضطرب النون فمادت الأرض ، فأثبتت بالجبال ، فإنها لتفخر على الأرض [٢] .

وكذا رواه ابن أبى حاتم عن أحمد بن سِنان ، عن أبى معاوية ، عن الأعمش ، به . وهكذا رواه شعبة ، ومحمد بن فُضَيل ، ووَكِيع ، عن الأعمش ، به. وزاد شعبة فى روايته : ثم قرأ : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ . وقد رواه شريك ، عن الأعمش ، عن أبى ظبيان ــ أو مجاهد ــ عن ابن عباس، فذكر نحوه . ورواه مَعْمَر ، عن الأعمش : أن ابن عباس قال . . . فذكره ، ثم قرأ : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ . ثم قال ابن جرير :

حدثنا ابن حميد ، حدثنا جرير ، عن عطاء ، عن أبى الضُّحَى ، عن ابن عباس قال : إن أول شىء خلق ربى ، عز وجل ، القلم ، ثم قال له : اكتب . فكتب ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة . ثم خلق « النون » فوق الماء ، ثم كبس الأرض عليه [٣] .

---

(١) فى أ : « وهو الحامل » .
(٢) تفسير الطبرى (٢٩/ ٩) .
(٣) تفسير الطبرى (٢٩/ ١٠) .

وقد روى الطبرانى ذلك مرفوعاً فقال : حدثنا أبو حبيب [(١)] زيد بن المهتدى المروذى [(٢)] ، حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقانى ، حدثنا مُؤَمَّل بن إسماعيل ، حدثنا حماد بن زيد ، عن عطاء بن السائب، عن أبى الضحى مسلم بن صَبِيح ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ :« إن أول ما خلق الله القلم والحوت ، قال للقلم : اكتب ، قال : ما أكتب ، قال : كل شىء كائن إلى يوم القيامة». ثم قرأ : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ، فالنون : الحوت .والقلم : القلم [(٣)] .

حديث آخر فى ذلك : رواه ابن عساكر عن أبى عبد الله مولى بنى أمية ، عن أبى صالح ، عن أبى هُرَيرة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول شىء خلقه الله القلم ، ثم خلق « النون » وهى : الدواة . ثم قال له : اكتب .قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب ما يكون ــ أو : ما هو كائن ــ من عمل أو رزق أو أثر أو أجل . فكتب ذلك إلى يوم القيامة ، فذلك قوله : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ . ثم ختم على القلم فلم يتكلم إلى يوم القيامة ، ثم خلقَ العقل وقال : وعزتى لأكملنك فيمن أحببت ، ولأنقصنك ممن أبغضت » [(٤)] .

وقال ابن أبى نَجيح : إن إبراهيم بن أبى بكر أخبره عن مجاهد قال : كان يقال : النون : الحوت [العظيم] [(٥)] الذى تحت الأرض السابعة .

وذكر البغوى وجماعة من المفسرين : إن على ظهر هذا الحوت صخرة سمكها كغلظ السموات والأرض ،وعلى ظهرها ثور له أربعون ألف قرن،وعلى متنه الأرضون السبع وما فيهن وما بينهن [(٦)]، فالله أعلم . ومن العجيب [(٧)] أن بعضهم حمل على هذا المعنى الحديث الذى رواه الإمام أحمد :

حدثنا إسماعيل ، حدثنا حُمَيد ، عن أنس : أن عبد الله بن سلام بَلَغه مَقْدَم رسول الله ﷺ المدينة ، فأتاه فسأله عن أشياء ، قال : إنى سائلك عن أشياء لا يعلمها إلا نبى ، قال : ما أول أشراط الساعة ؟وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه ؟ والولد ينزع إلى أمه ؟ قال : «أخبرنى بهن جبريل آنفاً » . قال ابن سلام : فذاك عدو اليهود من الملائكة . قال : « أما أول أشراط الساعة فنار تَحشرهم [(٨)] من المشرق إلى المغرب . وأول طعام يأكله أهل الجنة زيادةُ كبد حوت. وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نَزَع الولد ،وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت » .

---

(١) فى أ : « أبو صهيب » . (٢) فى أ : « المهدى ».

(٣) المعجم الكبير (١١/ ٤٣٣) وقال : « لم يرفعه عن حماد بن زيد إلامؤمل بن إسماعيل » .ومؤمل كثير الخطأ، فلعله أخطأ فى رفعه .

(٤) تاريخ دمشق (١٧/ ٤٩٢ « المخطوط») ورواه الحكيم الترمذى كما فى إتحاف السادة المتقين(١/ ٤٥٤) من طريق يحيى الغسانى ، عن أبى عبد الله ، عن أبى صالح ، به . ورواه ابن عدى فى الكامل (٦/ ٢٦٩) من طريق محمد بن وهب ، عن مسلم ، عن مالك ، عن سمى ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة مرفوعاً بنحوه ، وقال : « هذا بهذا الإسناد باطل منكر » وآفته محمد بن وهب . قال الذهبى فى الميزان : « صدق ابن عدى فى أن هذا الحديث باطل » .

(٥) زيادة من م.

(٦) معالم التنزيل (٨/ ١٨٦) وهذا من الإسرائيليات كما ذكر ذلك الشيخ محمد أبو شهبة فى كتابه :« الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير » (ص٣٠٥) وقال الإمام ابن القيم فى المنار المنيف (ص٧٦) فى ذكر علامات الوضع : « أن يكون الحديث مما تشهد الشواهد الصحيحة على بطلانه ، ومن هذا حديث :« إن الأرض على صخرة ، والصخرة على قرن ثور ، فإذا حرك الثور قرنه تحركت الصخرة ، فتحركت الأرض، وهى الزلزلة » والعجب من مُسَوِّد كتُبه بهذه الهذيانات » .أ.هـ .

(٧) فى أ : « ومن العجب » . (٨) فى أ : « تحشر الناس » .

ورواه البخارى من طرق عن حُمَيد ، ورواه مسلم أيضا [١] . وله من حديث ثوبان ــ مولى رسول الله ﷺ ــ نحو هذا . وفى صحيح مسلم من حديث أبى أسماء الرحبى ، عن ثوبان : أن حبراً سأل رسول الله ﷺ عن مسائل ، فكان منها أن قال : فما تحفتهم ؟ ــ يعنى أهل الجنة حين يدخلون الجنة ــ قال : « زيادة كبد الحوت » . قال : فما غذاؤهم على إثرها ؟ قال : « ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل من أطرافها » . قال : فما شرابهم عليه ؟ قال :« من عين فيها تسمى سلسبيلا » [٢] .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ نٓ ﴾ : لوح من نور .

قال ابن جرير : حدثنا الحسين بن شبيب المكتب ، حدثنا محمد بن زياد الجزرى ، عن فرات بن أبى الفرات ، عن معاوية بن قُرَّة ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ: « ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾: لوح من نور ، وقلم من نور ، يجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة » [٣] . وهذا مرسل غريب .

وقال ابن جُرَيج [٤] : أخبرت أن ذلك القلم من نور طوله مائة عام .

وقيل : المراد بقوله : ﴿نٓ﴾ : دواة ، والقلم : القلم . قال ابن جرير :

حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن مَعْمَر ، عن الحسن وقتادة فى قوله : ﴿نٓ﴾ قالا : هى الدواة .

وقد روى فى هذا حديث مرفوع غريب جداً فقال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن خالد ، حدثنا الحسن بن يحيى ، حدثنا أبو عبد الله مولى بنى أمية، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :« خلق الله النون ،وهى الدواة» [٥] .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يعقوب ، حدثنا أخى عيسى بن عبد الله ، حدثنا ثابت الثمالى ، عن ابن عباس قال : إن الله خلق النون ــ وهى الدواة ــ وخلق القلم ، فقال : اكتب . قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل معمول ، بر أو فجور ، أو رزق مقسوم حلال أو حرام . ثم ألزم كل شىء من ذلك ، شأنه : دخوله فى الدنيا ، ومقامه فيها كم؟ وخروجه منها كيف ؟ ثم جعل على العباد حفظة ، وللكتاب خزاناً ، فالحفظة ينسخون كل يوم من الخزان عمل ذلك اليوم ، فإذا فنى الرزق وانقطع الأثر وانقضى الأجل ، أتت الحفظة الخزنة يطلبون عمل ذلك اليوم ، فتقول لهم الخزنة : ما نجد لصاحبكم عندنا شيئاً . فترجع الحفظة فيجدونهم قد ماتوا . قال : فقال ابن عباس : ألستم قوماً عَرَبا تسمعون الحفظة يقولون : ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٩] ؟ وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل [٦] .

---

(١) المسند (٣/١٨٩) وصحيح البخارى برقم (٣٩٣٨) ولم أقع عليه فى صحيح مسلم .

(٢) صحيح مسلم برقم (٣١٥) .

(٣) تفسير الطبرى (٢٩/ ١٠) .

(٤) فى أ: « ابن جرير» .

(٥) ورواه ابن عساكر فى تاريخ دمشق (١٧/ ٤٩٢ « المخطوط») من طريق الفريابى ، عن هشام ، عن الحسن بن يحيى به مطولاً ،وقد تقدم قريباً فى هذه السورة .

(٦) تفسير الطبرى (٢٩/ ١٠).

وقوله : ﴿وَالْقَلَمِ﴾ : الظاهر أنه جنس القلم الذى يكتب به كقوله : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:٣ ـ ٥] . فهو قسم منه تعالى ، وتنبيه لخلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التى بها تنال العلوم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا يَسْطُرُون ﴾ . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : يعنى : وما يكتبون .

وقال أبو الضُّحى ، عن ابن عباس : ﴿ وَمَا يَسْطُرُون ﴾ أى : وما يعملون .

وقال السدى : ﴿ وَمَا يَسْطُرُون ﴾ : يعنى الملائكة وما تكتب من عمل العباد .

وقال آخرون : بل المراد هاهنا بالقلم الذى أجراه الله بالقدر حين كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرضين بخمسين ألف سنة . وأوردوا فى ذلك الأحاديث الواردة فى ذكر القلم ، فقال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان ويونس بن حبيب قالا : حدثنا أبو داود الطيالسى ، حدثنا عبد الواحد بن سُليم السلمى ، عن عطاء ــ هو ابن أبى رباح ــ حدثنى الوليد بن عبادة بن الصامت قال : دعانى أبى حين حضره الموت فقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب . قال : يا رب ما أكتب ؟ قال : اكتب القدر [ما كان] [١] وما هو كائن إلى الأبد » .

وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد من طرق ، عن الوليد بن عبادة ، عن أبيه ، به [٢] . وأخرجه الترمذى من حديث أبى داود الطيالسى ، به [٣] . وقال : حسن صحيح غريب . ورواه أبو داود فى كتاب «السنة» من سننه ، عن جعفر بن مسافر ، عن يحيى بن حسان ، عن ابن رباح ، عن إبراهيم بن أبى عبلة [٤] ، عن أبى حفصة ــ واسمه حُبَيش بن شُريح الحَبشى الشامى ــ عن عبادة ، فذكره [٥] .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الله الطوسى ، حدثنا على بن الحسن بن شقيق ، أنبأنا عبد الله بن المبارك ، حدثنا رباح بن زيد ، عن عمر بن حبيب ، عن القاسم بن أبى بَزة [٦] ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال : « إن أول شىء خلقه الله القلم ، فأمره فكتب كل شىء » . غريب من هذا الوجه ، ولم يخرجوه [٧] .

وقال ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد : ﴿وَالْقَلَمِ﴾ يعنى : الذى كتب به الذكر .

وقوله : ﴿ وَمَا يَسْطُرُون ﴾ أى : يكتبون ، كما تقدم .

---

(١) زيادة من منحة المعبود . مستفاداً من هامش ط ــ الشعب .

(٢) المسند (٥/٣١٧) .

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٣١٩) .

(٤) فى أ : « عن ابن أبى عبلة » .

(٥) سنن أبى داود برقم (٤٧٠٠) .

(٦) فى أ : « بن أبى مرة » .

(٧) تفسير الطبرى (٢٩/١١) .

وقوله : ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ أى : لست ، ولله الحمد ، بمجنون ، كما قد يقوله الجهلة من قومك ، والمكذبون بما جئتهم به من الهدى والحق المبين ، فنسبوك فيه إلى الجنون ، ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أى : بل لك الأجر العظيم ، والثواب الجزيل الذى لا ينقطع ولا يبيد ، على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق ، وصبرك على أذاهم . ومعنى ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أى : غير مقطوع كقوله : ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود:١٠٨] ، ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين:٦] أى : غير مقطوع عنهم . وقال مجاهد : ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أى : غير محسوب ، وهو يرجع إلى ما قلناه .

وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : أى : وإنك لعلى دين (١) عظيم ، وهو الإسلام. وكذلك قال مجاهد ، وأبو مالك ، والسدى ، والربيع بن أنس ، والضحاك، وابن زيد .

وقال عطية : لعلى أدب عظيم . وقال مَعْمَر ، عن قتادة : سُئلت عائشةُ عن خلق رسول الله ﷺ . قالت : كان خلقه القرآن ، تقول : كما هو فى القرآن .

وقال سعيد بن أبى عَرُوبَة ، عن قتادة قوله : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ : ذكر لنا أن سعد (٢) ابن هشام سأل عائشة عن خلق رسول الله ﷺ . فقالت : ألست تقرأ القران ؟ قال : بلى . قالت : فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن .

وقال عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن قتادة ، عن زُرارة بن أوفى (٣) ، عن سعد بن هشام قال : سألت عائشة فقلت : أخبرينى يا أم المؤمنين ــ عن خُلُق رسول الله ﷺ. فقالت : أتقرأ القرآن ؟ قلتُ : نعم . فقالت : كان خلقه القرآن (٤) .

هذا حديث طويل . وقد رواه الإمام مسلم فى صحيحه ، من حديث قتادة بطوله (٥) . وسيأتى فى سورة « المزمل » إن شاء الله تعالى .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا يونس ، عن الحسن قال : سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ ، فقالت : كان خلقه القرآن (٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود ، حدثنا شريك ، عن قيس بن وهب ، عن رجل من بنى سواد قال : سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ . فقالت : أما تقرأ القرآن: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾؟ قال : قلت : حدثينى عن ذاك . قالت : صنعت له طعاماً ، وصنعت له حفصة طعاماً ، فقلت لجاريتى : اذهبى فإن جاءت هى بالطعام فوضعته قبلُ فاطرحى الطعام ! قالت : فجاءت بالطعام . قالت : فألقت (٧) الجارية ، فوقعت القصعة فانكسرت ــ وكان نِطْعاً (٨) ــ قالت : فجمعه رسول الله

(١) فى أ : « لعلى خلق » .
(٢) فى أ : « أن سعيد » .
(٣) فى أ : « زرارة بن أبى أوفى » .
(٤) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٢٤٥) .
(٥) صحيح مسلم برقم (٧٤٦) .
(٦) المسند (٦/ ٢١٦) .
(٧) فى أ : « فالتفتت » .
(٨) فى هـ ، م ، أ : « نطع » ، والمثبت من المسند .

ﷺ وقال : « اقتضوا ــ أو : اقتضى ــ شك أسود ــ ظَرفاً مكان ظَرفك ». قالت: فما قال شيئاً (١).

وقال ابن جرير : حدثنا عبيد بن آدم بن أبى أياس ، حدثنا أبى ، حدثنا المبارك بن فضالة ، عن الحسن ، عن سعد (٢) بن هشام : قال : أتيت عائشة أم المؤمنين فقلت لها : أخبرينى بخُلُق النبى (٣) ﷺ . فقالت : كان خلقه القرآن . أما تقرأ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وقد روى أبو داود والنسائى ، من حديث الحسن ، نحوه (٤) .

وقال ابن جرير: حدثنى يونس ، أنبأنا ابن وهب ، وأخبرنى معاوية بن صالح ، عن أبى الزاهرية ، عن جُبَير بن نفير قال : حججتُ فدخلتُ على عائشة ، رضى الله عنها ، فسألتها عن خُلُق رسول الله ﷺ . فقالت : كان خُلُق رسول الله ﷺ القرآن .

هكذا رواه أحمد ، عن عبد الرحمن بن مهدى . ورواه النسائى فى التفسير ، عن إسحاق بن منصور ، عن عبد الرحمن بن مهدى ، عن معاوية بن صالح ، به (٥) .

ومعنى هذا أنه ، عليه السلام ، صار امتثالُ القرآن ، أمراً ونهياً ، سجيةٌ له ، وخلقاً تَطَبَّعَه ، وترك طبعه الجِبلِّى ، فمهما أمره القرآن فعله ، ومهما نهاه عنه تركه . هذا مع ما جَبَله الله عليه من الخلق العظيم ، من الحياء والكرم والشجاعة ، والصفح والحلم ، وكل خلق جميل . كما ثبت فى الصحيحين عن أنس قال : خدمتُ رسولَ الله ﷺ عشر سنين فما قال لى : « أف » قط ، ولا قال لشىء فعلته : لم فعلته ؟ ولا لشىء لم أفعلَه : ألا فعلته ؟ وكان ﷺ أحسن الناس خلقاً ، ولا مَسسْتُ خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ ، ولا شَمَمْتُ مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عَرَق رسول الله ﷺ (٦) .

وقال البخارى : [حدثنا أحمد بن سعيد أبو عبد الله] (٧) ، حدثنا إسحاق بن منصور ، حدثنا إبراهيم بن يوسف ، عن أبيه ، عن أبى إسحاق قال : سمعت البراء يقول : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً ، وأحسن الناس خلقاً ، ليس بالطويل البائن ، ولا بالقصير (٨) .

والأحاديث فى هذا كثيرة ، ولأبى عيسى الترمذى فى هذا كتاب « الشمائل » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن الزهرى ، عن عُرْوَة ، عن عائشة قالت : ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً له قط ، ولا امرأة ، ولا ضرب بيده شيئاً قط ، إلا أن

---

(١) المسند (٦/ ١١) .

(٢) فى هـ ، أ : « سعيد » ، والمثبت من م وتفسير الطبرى .

(٣) فى م : « رسول الله» .

(٤) تفسير الطبرى (٢٩/ ١٣) وسنن أبى داود برقم (١٣٥٢) وسنن النسائى (٣/ ٢٢٠) .

(٥) تفسير الطبرى (٢٩/ ١٣) والمسند (٦/ ١٨٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١١٣٨) .

(٦) صحيح البخارى برقم (٦٠٣٨) وصحيح مسلم برقم (٢٣٠٩) .

(٧) زيادة من م ، أ ،و صحيح البخارى .

(٨) صحيح البخارى برقم (٣٥٤٩) .

يجاهد في سبيل الله . ولا خُيِّر بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثماً ، فإذا كان إثما كان أبعد الناس من الإثم ، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمات الله، فيكون هو ينتقم لله ، عز وجل [(١)] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سعيد بن منصور ، حدثنا عبد العزيز بن محمد ، عن محمد بن عَجْلان ، عن القعقاع بن حكيم ، عن أبي صالح ، عن أبي هُرَيرة قال : قال رسولُ الله ﷺ :« إنما بُعِثتُ لأتمم صالح الأخلاق » . تفرد به [(٢)] .

وقوله: ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ . بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾ أي : فستعلم يا محمد ، وسيعلم مخالفوك ومكذبوك : من المفتون الضال منك ومنهم . وهذه كقوله تعالى : ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ﴾ [القمر:٢٦] ، وكقوله : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤] .

قال ابن جريج : قال ابن عباس في هذه الآية : ستعلم ويعلمون يوم القيامة .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : ﴿ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُون ﴾ أي : الجنون . وكذا قال مجاهد ، وغيره .

وقال قتادة وغيره : ﴿ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُون ﴾ أي : أولى بالشيطان .

ومعنى المفتون ظاهر ، أي : الذي قد افتتن عن الحق وضل عنه ، وإنما دخلت الباء في قوله : ﴿بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُون﴾ لتدل على تضمين الفعل في قوله : ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُون ﴾ وتقديره : فستعلم ويعلمون ، أو : فستُخْبَر ويُخْبَرون بأيكم المفتون . والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِين ﴾ أي : هو يعلم تعالى أي الفريقين منكم ومنهم هو المهتدي ، ويعلم الحزب الضال عن الحق .

﴿ فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾ .

يقول تعالى : كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم والخلق العظيم ﴿ فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِين ﴾ .

﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُون ﴾ : قال ابن عباس : لو تُرَخِّص لهم فَيُرَخِّصون .

وقال مجاهد : ودوا لو تركن إلى آلهتهم وتترك ما أنت عليه من الحق .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ﴾ : وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته إنما يتقي بأيمانه الكاذبة التي يجترئ بها على أسماء الله تعالى ، واستعمالها في كل وقت في غير محلها .

(١) المسند (٦/ ٢٣٢) .
(٢) المسند (٢/ ٣٨١) .

قال ابن عباس : المهين الكاذب . وقال مجاهد : هو الضعيف القلب . قال الحسن : كل حلاف مكابر مهين ضعيف .

وقوله : ﴿ هَمَّازٍ ﴾ : قال ابن عباس وقتادة : يعنى الاغتياب .

﴿ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ يعنى : الذى يمشى بين الناس ، ويحرش بينهم وينقل الحديث لفساد ذات البين، وهى الحالقة ، وقد ثبت فى الصحيحين من حديث مجاهد ،عن طاوس،عن ابن عباس قال : مر رسول الله ﷺ بقبرين فقال : « إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير ، أما أحدهما فكان لا يستتر (١) من البول ، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة » الحديث . وأخرجه بقية الجماعة فى كتبهم ، من طرق عن مجاهد ، به (٢) .

وقال أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم ، عن هَمّام ؛أن حُذَيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة قَتَّات » .

رواه الجماعة ــ إلا ابن ماجة ــ من طرق ، عن إبراهيم ، به (٣) .

وحدثنا عبد الرزاق ، حدثنا الثورى ،عن منصور ، عن إبراهيم ، عن همام ، عن حذيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة قتات » يعنى : نماما (٤) .

وحدثنا يحيى بن سعيد القطان أبو سعيد الأحول ، عن الأعمش ، حدثنى إبراهيم ــ منذ نحو ستين سنة ــ عن همام بن الحرث قال : مر رجل على حذيفة فقيل : إن هذا يرفع الحديث إلى الأمراء . فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول ــ أو : قال ــ : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة قتات » (٥) .

وقال أحمد : حدثنا هاشم ، حدثنا مهدى ، عن واصل الأحدب ، عن أبى وائل قال : بلغ حذيفة عن رجل أنه ينم الحديث ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ قال: « لا يدخل الجنة نمام » (٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا مَعْمَر ، عن ابن خُثَيم ، عن شَهْر بن حَوْشَب ، عن أسماء بنت يزيد بن السكن ؛ أن النبى ﷺ قال :« ألا أخبركم بخياركم ؟ » . قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « الذين إذا رُؤوا ذُكر الله ، عز وجل » . ثم قال : « ألا أخبركم بشراركم ؟ المشاؤون بالنميمة ، المفسدون بين الأحبة ، الباغون للبرآء العَنَت » .

ورواه ابن ماجة ، عن سويد بن سعيد ، عن يحيى بن سليم ، عن ابن خُثَيم ، به (٧) .

---

(١) فى أ : « لا يستبرئ » .

(٢) صحيح البخارى برقم (٢١٨) وصحيح مسلم برقم (٢٩٢) وسنن أبى داود برقم (٢٠) وسنن الترمذى برقم (٧٠) وسنن النسائى (٢٨/١) وسنن ابن ماجة برقم (٣٤٧) .

(٣) المسند (٣٨٢/٥) وصحيح البخارى برقم (٦٠٥٦) وصحيح مسلم برقم (١٠٥) وسنن أبى داود برقم (٤٨٧١) وسنن الترمذى برقم (٢٠٢٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٤) .

(٤ ، ٥) المسند (٣٨٩/٥) .

(٦) المسند (٥ / ٣٩١) .

(٧) المسند (٤٥٩/٦) وسنن ابن ماجة برقم (٤١١٩) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢٧٣/٣) : « هذا إسناد حسن ، شهر وسويد مختلف فيهما ، وباقى رجال الإسناد ثقات » .

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن ابن أبي حُسَين ، عن شهر بن حوشب ، عن عبد الرحمن ابن غَنْم ـ يبلغ به النبي ﷺ :« خيار عباد الله الذين إذا رُؤوا ذُكِرَ الله ، وشرار عباد الله المشاؤون بالنميمة ، المفرقون بين الأحبة ، الباغون للبرآء العنت » (١) .

وقوله : ﴿ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ أي : يمنع ما عليه وما لديه من الخير ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ في متناول ما أحل الله له ، يتجاوز فيها الحد المشروع ﴿ أَثِيمٍ ﴾ أي : يتناول المحرمات .

وقوله : ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ : أما العتل : الفظ الغليظ الصحيح ، الجموع المَنُوعُ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وَكِيع وعبد الرحمن ، عن سفيان ، عن مَعْبَد (٢) بن خالد ، عن حارثة بن وهب قال : قال رسول الله ﷺ :« ألا أنبئكم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف مُتَضَعِّف لو أقسم على الله لأبره ، ألا أنبئكم بأهل النار ؟ كل عُتل جَوّاظ مستكبر » . وقال وَكِيع :« كل جَوَّاظ جعظري مستكبر » .

أخرجاه في الصحيحين وبقية الجماعة ، إلا أبا داود ، من حديث سفيان الثوري وشعبة ،كلاهما عن معبد بن خالد ، به (٣).

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا موسى بن علي قال : سمعت أبي يحدِّث عن عبد الله بن عمرو بن العاص ؛ أن النبي ﷺ قال عند ذكر أهل النار :« كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع » . تفرد به أحمد (٤) .

قال أهل اللغة : الجعظري : الفَظُّ الغَلِيظ ، والجَوّاظ : الجَمُوع المَنُوع .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وَكِيع ، حدثنا عبد الحميد ، عن شَهْر بن حَوْشب ، عن عبد الرحمن ابن غَنْم ، قال : سُئل رسول الله ﷺ عن العُتلِّ الزنيم ، فقال : « هو الشديد الخَلْق المصحح ، الأكول الشروب ، الواجد للطعام والشراب ، الظلوم للناس ، رحيب الجوف » (٥) .

وبهذا الإسناد قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة الجَواظ الجعظري ، والعتل الزنيم » (٦) وقد أرسله أيضاً غير واحد من التابعين .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن مَعْمَر ، عن زيد بن أسلم قال قال رسول الله ﷺ : « تبكي السماء من عبد أصح الله جسمه ، وأرحب جوفه ، وأعطاه من الدنيا مِقضَماً ، فكان للناس ظلوماً . قال : فذلك العُتُل (٧) الزنيم » (٨) .

(١) المسند (٤/٢٢٧) .
(٢) في أ : «سعيد ».
(٣) المسند (٤/٣٠٦) وصحيح البخاري برقم (٤٩١٨) وصحيح مسلم برقم (٢٨٥٣) وسنن الترمذي برقم (٢٦٠٥) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٦١٥) وسنن ابن ماجة برقم (٤١١٦) .
(٤) المسند (٢/١٦٩) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/٣٩٣) : « رجاله رجال الصحيح » .
(٥) المسند (٤/٢٢٧) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/٣٩٣) :« إسناده حسن ، إلا أن ابن غنم لم يسمع من النبي ﷺ » وقال في موضع آخر (٧/١٢٨) : « فيه شهر بن حوشب وثقه جماعة وفيه ضعف ، وعبد الرحمن بن غنم ليس له صحبة على الصحيح ».
(٦) المسند (٤/٢٢٧) .
(٧) في م ،أ : «العبد » .
(٨) تفسير الطبري (١٩/١٦) وهو مرسل .

وهكذا رواه ابن أبى حاتم من طريقين مرسلين ، ونص عليه غير واحد من السلف ، منهم مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم : أن العتل هو : المُصحَّح الخَلْق ، الشديد القوى فى المأكل والمشرب والمنكح ، وغير ذلك ، وأما الزنيم فقال البخارى :

حدثنا محمود ، حدثنا عُبَيد الله، عن [1] إسرائيل ، عن أبى حَصين ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ قال : رجلٌ من قريش له زَنَمة مثل زَنَمَة الشاة .

ومعنى هذا : أنه كان مشهوراً بالشر[2] كشهرة الشاة ذات الزنمة من بين أخواتها . وإنما الزنيم فى لغة العرب : هو الدّعِيُّ فى القوم . قاله ابن جرير وغير واحد من الأئمة ، قال : ومنه قول حسان ابن ثابت ، يعنى يذم بعض كفار قريش :

وأنـتَ زَنيم نِيطَ فى آل هـاشـم ... كَمَا نِيطَ خَلْفَ الرّاكِب القَدَحُ الفَرْدُ [3]

وقال آخر :

زَنيـمٌ لَـيْسَ يُـعـرَفُ مَـن أبـوهُ ... بَغـيُّ الأم ذُو حَـسَب لَـئـيـم

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا عمار بن خالد الواسطى ، حدثنا أسباط ، عن هشام ، عن عِكْرِمَة، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ زَنِيمٍ ﴾ قال : الدعىُّ الفاحش اللئيم . ثم قال ابن عباس :

زَنيمٌ تَـداعـاه الـرجالُ زيـادَةً ... كَما زيدَ فى عَرضِ الأديم الأكَـارعُ [4]

وقال العوفى عن ابن عباس : الزنيم : الدعى . ويقال : الزنيم : رجل كانت به زنمة ، يعرف بها . ويقال : هو الأخنس بن شَرِيق الثقفى ، حليف بنى زهرة . وزعم أناس من بنى زهرة أن الزنيم الأسودُ بن عبد يغوث الزهرى ، وليس به .

وقال ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : أنه زعم أن الزنيم المُلحَق النسب .

وقال ابن أبى حاتم :حدثنى يونس،حدثنا ابن وهب،حدثنى سليمان بن بلال ، عن عبد الرحمن ابن حَرملة ، عن سعيد بن المُسيَّب ، أنه سمعه يقول فى هذه الآية : ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ قال سعيد : هو الملصق فى القوم ، ليس منهم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عقبة بن خالد ، عن عامر بن قدامة قال : سئل عكرمة عن الزنيم ، قال : هو ولد الزنا .

وقال الحكم بن أبان ، عن عكرمة فى قوله تعالى :﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ قال : يعرف المؤمن من الكافر مثل الشاة الزنماء . والزنماء من الشياه : التى فى عنقها هَنتان معلقتان فى حلقها .

وقال الثورى ، عن جابر ، عن الحسن ، عن سعيد بن جبير قال : الزنيم : الذى يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها . والزنيم : الملصق . رواه ابن جرير .

---

(١) فى أ :« بن » .
(٢) فى أ : « بالسوء » .
(٣) تفسير الطبرى (١٧/١٩) .
(٤) البيت فى اللسان ، مادة « زنم » منسوباً إلى الخطيم التميمى .

وروى أيضا من طريق داود بن أبى هند عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال فى الزنيم : قال : نُعتَ فلم يعرف حتى قيل : زنيم . قال : وكانت له زَنَمَةٌ فى عنقه يُعرَف بها . وقال آخرون : كان دَعِياً .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا ابن إدريس ، عن أبيه ، عن أصحاب التفسير قالوا[1]: هو الذى تكون له زَنَمةٌ مثل زَنَمة الشاة .

وقال الضحاك : كانت له زَنَمَة فى أصل أذنه ، ويقال : هو اللئيم الملصق فى النسب .

وقال أبو إسحاق : عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : هو المريب الذى يعرف بالشر .

وقال مجاهد : الزنيم يعرف بهذا الوصف كما تعرف الشاة . وقال أبو رَزِين : الزنيم علامة الكفر . وقال عكرمة : الزنيم الذى يعرف باللؤم كما تعرف الشاة بزنمتها .

والأقوال فى هذا كثيرة ، وترجع إلى ما قلناه ، وهو أن الزنيم هو : المشهور بالشر ، الذى يعرف به من بين الناس ، وغالباً يكون دعياً ولد زنا ، فإنه فى الغالب يتسلط الشيطان عليه مالا يتسلط على غيره ، كما جاء فى الحديث : « لا يدخل الجنة ولد زنا » [2] . وفى الحديث الآخر :« ولد الزنا شرُّ الثلاثة إذا عمل بعمل أبويه » [3] .

وقوله : ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين ﴾ : يقول تعالى : هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين ، كفر بآيات الله وأعرض عنها ، وزعم أنها كَذب مأخوذ من أساطير الأولين ، كقوله : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا . سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدثر:١١ ــ ٢٦] . وقال تعالى هاهنا : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ .

قال ابن جرير : سنبين أمره بياناً واضحاً ، حتى يعرفوه ولا يخفى عليهم ، كما لا تخفى السمة على الخراطيم [4] . وهكذا قال قتادة : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ : شين لا يفارقه آخر ما عليه .

---

(١) فى أ :« قال » .

(٢) رواه الإمام أحمد فى المسند (٢/٢٠٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضى الله عنه، ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (٤٩٢٥،٤٩٢٦) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه ، وقد ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات (٣/ ١١١) قال : « وفيه مخالفة للأصول وأعظمها قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام:١٦٤]» . قال الإمام ابن القيم متعقباً على ابن الجوزى فى المنار المنيف (ص١٣٣) :« ليست معرضة بها إن صحت ،فإنه لم يحرم الجنة بفعل والديه ، بل لأن النطفة الخبيثة لا يتخلق منها طيب فى الغالب ، ولا يدخل الجنة إلا نفس طيبة ، فإن كانت فى هذا الجنس طيبة دخلت الجنة ،وكان الحديث من العام المخصوص، وقد ورد فى ذمه :« أنه شر الثلاثة » وهو حديث حسن ومعناه صحيح بهذا الاعتبار، فإن شر الأبوين عارض ، وهذه نطفة خبيثة فشره فى أصله وشر الأبوين فى فعلهما » . قلت : ويوجه أيضاً بالتقييد الذى فى حديث عائشة الآتى بأنه شر الثلاثة إذا عَمِلَ عَمَلَ أبويه ،وكلام ابن الجوزى منطبق على حديث : « ولد الزنا فى النار إلى سبعة أبناء » . وهو موضوع .

(٣) رواه الإمام أحمد (٦/ ١٠٩) من حديث عائشة ، رضى الله عنها ، و(٢/ ٣١١) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٤) فى م : « على الخرطوم » .

وفى رواية عنه : سيما [١] على أنفه . وكذا قال السدى .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ : يقاتل يوم بدر ، فيُخطم بالسيف فى القتال . وقال آخرون : ﴿سَنَسِمُهُ﴾ :سمة أهل النار ، يعنى : نسود وجهه يوم القيامة ، وعبر عن الوجه بالخرطوم . وحكى ذلك كله أبو جعفر ابن جرير ، ومال إلى أنه لا مانع من اجتماع الجميع عليه فى الدنيا والآخرة ، وهو متّجه .

وقد [٢] قال ابن أبي حاتم في سورة ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ : حدثنا أبي ، حدثنا أبو صالح كاتب الليث، حدثني الليث ، حدثني خالد عن [٣] سعيد ، عن عبد الملك بن عبد الله ، عن عيسي بن هلال الصدفي ، عن عبد الله بن عمرو ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن العبد يكتب مؤمناً أحقاباً ثم أحقابا [٤] ثم يموت والله عليه ساخط . وإن العبد يكتب كافراً أحقاباً ثم أحقاباً ، ثم يموت والله عليه [٥] راض . ومن مات همّازاً لـمّازاً مُلَقّبا للناس ، كان علامته يوم القيامة أن يسميه الله على الخرطوم ، من كلا الشفتين » [٦] .

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ .

هذا مَثَل ضَرَبه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة ، وأعطاهم من النعم الجسيمة ، وهو بَعْثُهُ محمداً ﷺ إليهم ، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة ؛ ولهذا قال : ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ أى : اختبرناهم ، ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ وهى البستان المشتمل على أنواع الثمار

(١) فى م :« سنسمه سيما » .

(٢) فى م : « ولهذا ».

(٣) فى م ، أ ، هـ: « بن » والصواب ما أثبتناه من المعجم الكبير للطبرانى .

(٤) فى أ: «أحيانا ثم أحيانا » .

(٥) فى م : « عنه » .

(٦) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير برقم (٦٠) « القطعة المفقودة » والمعجم الأوسط برقم (٣٢٣٤) « مجمع البحرين » عن المطلب الأزدى، عن عبد الله بن صالح به . وقال فى الأوسط : « لا يروى عن عبد الله بن عمرو إلا بهذا الإسناد ، تفرد به الليث » .

والفواكه ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ أى :حلفوا فيما بينهم لَيجُذّنَ ثَمرها ليلا ، لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء ، ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ أى: فيما حلفوا به. ولهذا حَنَّثهم الله فى أيمانهم ، فقال : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ أى : أصابتها آفة سماوية ، ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ : قال ابن عباس : أى كالليل الأسود . وقال الثورى، والسدى : مثل الزرع إذا حُصِد ، أى : هشيماً يبساً .

وقال ابن أبى حاتم : ذكر عن أحمد بن الصباح : أنبأنا بشير بن زاذان ، عن عمر بن صبح [(١)]، عن ليث بن أبى سليم ، عن عبد الرحمن بن سابط ، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «إياكم والمعاصى ، إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً قد كان هُيِّئ له » ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ . فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾، قد حرموا خَير جنّتهم بذنبهم[(٢)] .

﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴾ أى : لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى الجَذَاذ ، ﴿ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴾ أى : تريدون الصرام . قال مجاهد : كان حرثهم عِنَباً ﴿ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴾ أى : يتناجون فيما بينهم بحيث لا يُسمعون أحداً كلامهم . ثم فسر الله عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به ، فقال : ﴿ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ . أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾ أى : يقول بعضهم لبعض : لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم ! قال الله تعالى : ﴿ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ أى : قوة وشدة . وقال مجاهد : ﴿ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أى : جد . وقال عكرمة : غيظ . وقال الشعبى : ﴿ عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ : على المساكين . وقال السدى : ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أى: كان اسم قريتهم حرد . فأبعد السدى فى قوله هذا ! .

﴿ قَادِرِينَ ﴾ أى: عليها فيما يزعمون ويَرومون. ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ أى : فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها ، وهى على الحالة التى قال الله ، عز وجل ، قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مُدْلَهِمَّة ، لا يُنتفع بشيء منها ، فاعتقدوا أنهم قد أخطؤوا الطريق ؛ ولهذا قالوا : ﴿ إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ أى : قد سلكنا إليها غير الطريق فتُهنا عنها . قاله ابن عباس وغيره . ثم رجعوا عما كانوا فيه ، وتيقنوا أنها هى فقالوا : ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أى: بل هذه هى، ولكن نحن لا حَظّ لنا ولا نصيب .

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب، والربيع بن أنس ،والضحاك ، وقتادة: أى : أعدلهم وخيرهم:﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾! قال مجاهد ، والسدى ، وابن جريج : ﴿ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ أى : لولا تستثنون . قال السدى : وكان استثناؤهم فى ذلك الزمان تسبيحاً .

---

(١) فى أ :« بن صبيح » .

(٢) وفى إسناده عمر بن صبح قال ابن حبان : كان ممن يضع الحديث . وقال الدارقطنى : متروك . وقال الأزدى : كذاب . وله شاهد من حديث ثوبان ، رضى الله عنه ، رواه الإمام أحمد فى المسند (٥/ ٢٧٧) .

قال ابن جريج : هو قول القائل : إن شاء الله . وقيل : معناه : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ أى : هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم ، ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ، أتوا بالطاعة حيث لا تنفع ، وندموا واعترفوا حيث لا ينجع ؛ ولهذا قالوا : ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴾ أى : يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجَذاذ ، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب ، ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ أى : اعتدينا وبَغَينا وطغينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا ، ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ قيل : رغبو فى بدلها لهم فى الدنيا . وقيل : احتسبوا ثوابها فى الدار الآخرة ، والله أعلم .

ثم قد ذكر بعض السلف أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن ـ قال سعيد بن جبير : كانوا من قرية يقال لها ضروان [١] ، على ستة أميال من صنعاء . وقيل : كانوا من أهل الحبشة ـ وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة ، وكانوا من أهل الكتاب ، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة ، فكان ما استغله منها يرد فيها ما يحتاج إليها ويدّخر لعياله قوت سنتهم ، ويتصدق بالفاضل . فلما مات ورثه بنوه ، قالوا : لقد كان أبونا أحمقَ إذ كان يصرف من هذه شيئاً للفقراء ، ولو أنَّا منعناهم لتوفر ذلك علينا . فلما عزموا على ذلك عُوقبوا بنقيض قصدهم ، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية ، ورأس المال والربح والصدقة ، فلم يبق لهم شىء .

قال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ﴾ أى :هكذا عذاب من خالف أمر الله ، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه ، ومنع حق المساكين والفقراء [٢] وذوى الحاجات ، وبدل نعمة الله كفرا ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم ، وعذاب الآخرة أشق . وقد ورد فى حديث رواه الحافظ البيهقى من طريق جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، عن أبيه ، عن جده ؛ أن رسول الله ﷺ نهى عن الجداد [٣] بالليل ، والحصاد بالليل [٤] .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) ﴾ .

---

(١) فى أ : « جردان » .

(٢) فى أ : « حق المسكين والفقير » .

(٣) فى م ، أ ، هـ : « الجذاذ » بالذال وهو خطأ والمثبت من سنن البيهقى .

(٤) سنن البيهقى الكبرى (٤/ ١٣٣) والجداد ـ بالدال بالفتح والكسر ـ قال ابن الأثير فى النهاية (١/ ٢٤٤) : « هى صرام النخل ، وهو قطع ثمرتها ، يقال : جدّ الثمرة يجدُّها جدًا ، وإنما نهى عن ذلك لأجل المساكين حتى يحضروا فى النهار فيتصدق عليهم منه » .

لما ذكر [الله] (١) تعالى حال أهل الجنة الدنيوية ، وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوا الله ، عز وجل ، وخالفوا أمره ، بين أن لمن اتقاه وأطاعه فى الدار الآخرة جنات النعيم التى لا تَبيد ولا تفرغ ولا ينقضى نعيمها .

ثم قال : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ ؟ أى : أفنساوى بين هؤلاء وهؤلاء فى الجزاء ؟ كلا ورب الأرض والسماء ؛ ولهذا قال : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ! أى : كيف تظنون ذلك ؟ .

ثم قال : ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ . إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ يقول : أفبأيديكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه بنقل الخلف عن السلف، مُتضمن حكما مؤكداً كما تدعونه؟ ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ . أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ أى : أمعكم عهود منا ومواثيق مؤكدة ، ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ أى : إنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون ، ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴾ ؟ أى : قل لهم : من هو المتضمن المتكفل بهذا ؟ ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ﴾ أى: من الأصنام والأنداد ، ﴿ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ .

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣) فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) ﴾ .

لما ذكر تعالى أن للمتقين عنده (٢) جنات النعيم ، بين متى ذلك كائن وواقع ، فقال : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ يعنى : يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال والزلازل والبلاء والامتحان والأمور العظام . وقد قال البخارى هاهنا :

حدثنا آدم ، حدثنا الليث ، عن خالد بن يزيد ، عن سعيد بن أبى هلال ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يَسَار ، عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « يكشفُ ربّنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة ، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طَبَقاً واحداً » (٣) .

وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين وفى غيرهما من طرق (٤) ، وله ألفاظ ، وهو حديث طويل مشهور .

وقد قال عبد الله بن المبارك ، عن أسامة بن زيد ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ

(١) زيادة من م . (٢) فى م : « عند ربهم » .
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩١٩) .
(٤) وهو حديث الشفاعة وقد سبق سياقه بطرقه وألفاظه عند تفسير أول سورة الإسراء .

عَن سَاق ﴾ قال : هو يوم كَرْب وشدة . رواه ابن جرير ثم قال :

حدثنا ابن حميد ، حدثنا مِهْران ، عن سفيان ، عن المغيرة ، عن إبراهيم ، عن ابن مسعود ـ أو : ابن عباس ، الشك من ابن جرير ـ : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاق ﴾ قال : عن أمر عظيم ، كقول الشاعر :

وقامت الحرب بنا على ساق (١)

وقال ابن أبي نَجيح ، عن مجاهد : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاق ﴾ قال : شدة الأمر (٢) .

وقال ابن عباس : هي أول (٣) ساعة تكون في يوم القيامة .

وقال بن جُرَيج ، عن مجاهد : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاق ﴾ قال : شدة الأمر وجده .

وقال على ابن أبي طلحة ، عن ابن عباس قوله : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاق ﴾ : هو الأمر الشديد المُفظِع من الهول يوم القيامة .

وقال العوفي ، عن ابن عباس قوله : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاق ﴾ يقول : حين يكشف الأمر وتبدو الأعمال . وكشفه دخول الآخرة ، وكشف الأمر عنه . وكذا روى الضحاك عن ابن عباس . أورد ذلك كله أبو جعفر بن جرير ثم قال :

حدثني أبو زيد عمر بن شَبَّة ، حدثنا هارون بن عمر المخزومي ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا أبو سعيد روح بن جناح ، عن مولى لعمر بن عبد العزيز ، عن أبي بردة بن أبي موسى ، عن أبيه ، عن النبي ﷺ قال : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاق ﴾ قال : « عن نور عظيم ، يخرون له سجداً » .

ورواه أبو يعلى ، عن القاسم بن يحيى ، عن الوليد بن مسلم ، به (٤) . وفيه رجل مبهم (٥)، فالله أعلم .

---

(١) البيت في تفسير الطبري (٢٩/ ٢٤) .

(٢) في أ : « الأمر وجده». (٣) في م : « هي أشد » .

(٤) تفسير الطبري (٢٩/ ٢٧) ومسند أبي يعلى (١٣/ ٢٦٩) .

تنبيه : ظن بعض الناس أن الحافظ ابن كثير سلك هنا مسلك التأويل لصفة الساق، وهذا فهم خاطئ ؛ وذلك لأن الحافظ ابن كثير فسر هذه الآية بحديث أبي سعيد ،رضى الله عنه ،ثم ذكر ما قيل في هذه الآية،وقد تكلم الإمام ابن القيم عن هذه الآية كلاماً بديعاً قال، رحمه الله ، في الصواعق المرسلة (١/ ٢٥٢، ٢٥٣) : « والصحابة متنازعون في تفسير هذه الآية : هل المراد الكشف عن الشدة ؟ أو المراد بها أن الرب تعالى يكشف عن ساقه؟ ولا يحفظ عن الصحابة والتابعين نزاع فيها يذكر أنه من الصفات أم لا في غير هذا الموضوع ، وليس في ظاهر القرآن ما يدل على أن ذلك صفة لله ؛ لأنه سبحانه لم يضف الساق إليه ، وإنما ذكره مجرداً عن الإضافة منكرًا، والذين أثبتوا ذلك صفة كاليدين والأصبع لم يأخذ ذلك من ظاهر القرآن ، وإنما أثبتوه بحديث أبي سعيد الخدرى المتفق على صحته ، وهو حديث الشفاعة الطويل وفيه : « فيكشف الرب عن ساقه فيخرون له سجداً » . ومن حمل الآية على ذلك قال : قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ [القلم :٤٢] : مطابق لقوله ﷺ: « فيكشف عن ساقه فيخرون له سجداً » . وتنكيره للتعظيم والتفخيم كأنه قال : يكشف عن ساق عظيمة،جلت عظمتها وتعالى شأنها أن يكون لها نظير أو مثل أو شبيه ،قالوا :وحمل الآية على الشدة لا يصح بوجه ؛ فإن لغة القوم في مثل ذلك أن يقال: كشف الشدة عن القوم لاكشف عنها كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٠] ، وقال: ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ ﴾ [المؤمنون :٧٥] ، فالعذاب والشدة هو المكشوف لا المكشوف عنه ، وأيضاً فهناك تحدث الشدة وتشتد ، ولا تزال إلا بدخول الجنة، وهناك لا يدعون إلى السجود ، وإنما يدعون إليه أشد ما كانت الشدة» انتهى نقلا عن التحذير من مختصرات الصابوني ، وانظر: عقيدة الحافظ ابن كثير للشيخ عبد الآخر الغنيمي (ص٤٨، ٤٩) والتحذير للشيخ بكر أبو زيد (ص٣٥٠ ـ ٣٥٣) .

(٥) في أ :« رجل متهم » .

وقوله : ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أى : فى الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم فى الدنيا ، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه . ولما دعوا إلى السجود فى الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم ، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه فى الآخرة ، إذا تجلى الرب ، عز وجل ، فسجد له المؤمنون ، لا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجُد ، بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً ، كلما أراد أحدهم أن يسجد خرّ لقفاه ، عكس السجود ، كما كانوا فى الدنيا ، بخلاف ما عليه المؤمنون .

ثم قال تعالى: ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ يعنى : القرآن . وهذا تهديد شديد ، أى : دعنى وإياه منى ومنه ، أنا أعلم به كيف أستدرجه ، وأمده فى غيه وأنظر [١]، ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر ؛ ولهذا قال : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : وهم لا يشعرون ، بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة ، وهو فى نفس الأمر إهانة ، كما قال: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥ ، ٥٦] ، وقال : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤] . ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ أى : وأؤخرهم وأنظرهم وأمدهم [٢] ، وذلك من كيدى ومكرى بهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ أى : عظيم لمن خالف أمرى ، وكذب رسلى ، واجترأ على معصيتى .

وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال:«إن الله ليُملى للظالم ،حتى إذا أخذه لم يُفْلته ». ثم قرأ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢] [٣] .

وقوله : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ . أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ : تقدم تفسيرهما فى سورة «الطور» [٤] [٥]. والمعنى فى ذلك : أنك يا محمد تدعوهم إلى الله ، عز وجل ، بلا أجر تأخذه منهم، بل ترجوا ثواب ذلك عند الله ، عز وجل ، وهم يكذبون بما جئتهم به ، بمجرد الجهل والكفر والعناد .

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٥٢) ﴾ .

---

(١) فى أ : « وأنظره » . (٢) فى أ : « وأمد لهم » .
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٣) من حديث أبى موسى الأشعرى ، رضى الله عنه .
(٤) فى م : « فى سورة النور » .
(٥) عند تفسير الآيتين : ٤٠ ، ٤١ .

يقول تعالى : ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد على أذى قومك لك وتكذيبهم ؛ فإن الله سيحكم لك عليهم، ويجعل العاقبة لك ولأتباعك فى الدنيا والآخرة ، ﴿ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ يعنى : ذا النون ، وهو يونس بن متى ، عليه السلام ، حين ذهب مُغَاضِباً على قومه ، فكان من أمره ما كان من ركوبه فى البحر والتقام الحوت له ، وشرود الحوت به فى البحار وظلمات غمرات اليم ، وسماعه تسبيح البحر بما فيه للعلى القدير ، الذى لا يُرَدّ ما أنفذَه من التقدير ، فحينئذ نادى فى الظلمات: ﴿ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٧] . قال الله : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٨] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣ ، ١٤٤] وقال ههنا : ﴿ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، والسدى : مغموم . وقال عطاء الخراسانى ، وأبو مالك : مكروب . وقد قدمنا فى الحديث أنه لما قال : ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، خرجت الكلمة تَحُفّ حول العرش ، فقالت الملائكة : يا رب ، هذا صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة . فقال الله : أما تعرفون هذا ؟ قالوا : لا . قال : هذا يونس . قالوا : يارب ، عبدك الذى لا يزال يرفع له عمل صالح ودعوة مجابة ؟ قال : نعم . قالوا : أفلا ترحم ما كان يعمله فى الرخاء فتنجيه من البلاء ؟ فأمر الله الحوت فألقاه بالعراء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع ،حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبى وائل ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ينبغى لأحد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » .

ورواه البخارى من حديث سفيان الثورى (١) . وهو فى الصحيحين من حديث أبى هريرة (٢) .

وقوله : ﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهما: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ : لَيَنفُذونك بأبصارهم ، أى : لَيَعينُوك بأبصارهم ، بمعنى : يحسدونك لبغضهم إياك لولا وقاية الله لك ، وحمايته إياك منهم . وفى هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق، بأمر الله ، عز وجل ، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة :

حديث أنس بن مالك ، رضى الله عنه : قال أبو داود : حدثنا سليمان بن داود العَتَكى ، حدثنا شريك (ح) ، وحدثنا العباس العَنْبَرىّ ، حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا شريك ، عن العباس بن ذَرِيح، عن الشعبى ــ قال العباس : عن أنس ــ قال : قال النبى ﷺ: « لا رقية إلا من عين أو حُمة أو دم لا يرقأ » . لم يذكر العباس العين . وهذا لفظ سليمان (٣) .

حديث بُرَيدة بن الحُصَيب ، رضى الله عنه : قال أبو عبد الله بن ماجة :حدثنا محمد بن عبد الله ابن نُمَير ، حدثنا إسحاق بن سليمان ، عن أبى جعفر الرازى ، عن حُصَين ، عن الشعبى ، عن

---

(١) المسند (١/ ٣٩٠) وصحيح البخارى برقم (٤٦٠٣) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٦٣١) وصحيح مسلم برقم (٢٣٧٦) .

(٣) سنن أبى داود برقم (٣٨٨٩) .

بُرَيدة بن الحصيب قال : قال رسول الله ﷺ : « لا رقية إلا من عين أو حُمة » (١) .

هكذا رواه ابن ماجة ، وقد أخرجه مسلم فى صحيحه ، عن سعيد بن منصور ، عن هشيم ، عن حُصَين بن عبد الرحمن ، عن عامر الشعبى ، عن بريدة موقوفاً ، وفيه قصة (٢) . وقد رواه شعبة ، عن حصين ، عن الشعبى ،عن بريدة .قاله الترمذى (٣) . وروى هذا الحديث الإمام البخارى من حديث محمد بن فضيل ، وأبو داود من حديث مالك بن مِغْول ، والترمذى من حديث سفيان ابن عيينة ، ثلاثتهم عن حصين ، عن عامر الشعبى ، عن عمران بن حُصَين موقوفاً (٤) .

حديث أبى جندب بن جنادة : قال الحافظ أبو يعلى الموصلى ، رحمه الله : حدثنا إبراهيم بن محمد بن عرعرة بن البِرِنْد السامى ، حدثنا ديلم بن غَزْوان ، حدثنا وهْب بن أبى دبى ، عن أبى حرب ، عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن العين لتولع الرجلَ بإذن الله ، فيتصاعد حالقا، ثم يتردى منه » إسناده غريب ، ولم يخرجوه (٥) .

حديث حابس التميمى : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا حرب ، حدثنا يحيى بن أبى كثير ، حدثنى حَيَّة بن حابس التميمى : أن أباه أخبره : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا شىء فى الهام ، والعين حق ، وأصدق الطِّيَرَة (٦) الفَأْلُ » (٧) .

وقد رواه الترمذى عن عمرو بن على ، عن أبى غسان يحيى بن كثير ، عن على بن المبارك ، عن يحيى بن أبى كثير ، به (٨) . ثم قال غريب . قال : وروى شيبان ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن حَيَّة بن حابس ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ .

قلت : كذلك رواه الإمام أحمد ، عن حسن بن موسى وحُسَين بن محمد ، عن شيبان ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن حَيَّة ، حدثه عن أبيه ، عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « لا بأس فى الهام ، والعين حق ، وأصدق الطيرة الفأل » (٩) .

حديث ابن عباس : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن الوليد ، عن سفيان ، عن دُوَيد ، حدثنى إسماعيل بن ثوبان ، عن جابر بن زيد ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « العين

---

(١) سنن ابن ماجة برقم(٣٥١٣) .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٢٠) .

(٣) سنن الترمذى (٤/ ٣٤٥) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٧٠٥) وسنن أبى داود برقم (٣٨٨٤) وسنن الترمذى برقم (٢٠٧٥) .

(٥) ورواه ابن عدى فى الكامل (٣/ ١٠٤) من طريق أبى يعلى لكنه وقع فيه : إبراهيم ، عن ديلم ،عن وهب بن أبى دبى ، عن محجن، عن أبى زر به ، فأسقط أبوحرب ،وسيأتى توجيه ذلك من كلام ابن عدى ،ورواه الإمام أحمد فى المسند (٥/ ١٤٦) من طريق يونس بن محمد ، وابن عدى فى الكامل (٣/ ١٠٤) من طريق الصلت بن مسعود كلاهما عن ديلم بن غزوان،عن وهب ، عن أبى حرب ، عن محجن ، عن أبى ذر به، قال ابن عدى : « وهذا الحديث يرويه ديلم عن وهب بن أبى دبى ، وأظن أنه وهم من رواية الصلت حيث قال : عن وهب بن أبى دبى ، عن أبى حرب ، عن محجن ، ولعل أبا حرب هو محجن » .

(٦) فى م : « الطير » ، وفى أ : «الظن » .

(٧) المسند (٥/ ٧٠) .

(٨) سنن الترمذى برقم (٢٠٦١) .

(٩) المسند (٥/ ٧٠) .

حق ، العين حق ، تستنزل الحالق »[١] غريب .

طريق أخرى : قال مسلم فى صحيحه : حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى ، أخبرنا مسلم ابن إبراهيم ، حدثنا وُهَيب ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : «العين حق ، ولو كان شيء سَابَقَ القَدَرَ سَبَقَت العين ، وإذا اغتُسلتم فاغسلوا » . انفرد به دون البخارى[٢] .

وقال عبد الرزاق ، عن سفيان الثورى ، عن منصور ، عن المِنْهال بن عمرو ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يُعَوِّذ الحسن والحسين ، يقول : « أعيذكما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهَامَّة ، ومن كل عين لامَّة » ، ويقول : « هكذا كان إبراهيم يُعَوِّذ إسحاق وإسماعيل ، عليهما السلام » .

أخرجه البخارى وأهل السنن من حديث المنهال ، به[٣] .

حديث أبى أمامة أسعد بن سهل بن حنيف ، رضى الله عنه : قال ابن ماجة : حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا سفيان ، عن الزهرى ، عن أبى أمامة بن سهل بن حُنَيف قال : مر عامر بن ربيعة بسهل بن حُنَيف ، وهو يغتسل ، فقال : لم أر كاليوم ولا جلدَ مخبأة . فما لبث أن لُبِطَ به ، فأتى به رسول الله ﷺ فقيل له : أدرك سهلا صريعاً . قال : « من تتهمون به ؟ ». قالوا: عامر بن ربيعة . قال : « علام يقتل أحدكم أخاه ؟ إذا رأى أحدكم من أخيه ما يُعجبه فَلْيَدعُ له بالبركة » . ثُم دعا بماء فأمر عامراً أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ، وركبتيه ، ودَاخِلة إزاره ، وأمره أن يصب عليه .

قال سفيان : قال مَعْمَر ، عن الزهرى : وأمر أن يكفأ الإناء من خلفه[٤] .

وقد رواه النسائى ، من حديث سفيان بن عيينة ومالك بن أنس ، كلاهما عن الزهرى ، به . ومن حديث سفيان بن عيينة أيضاً عن معمر ، عن الزهرى ، عن أبى أمامة : ويكفَأ الإناء من خلفه. ومن حديث ابن أبى ذئب عن الزهرى ، عن أبى أمامة أسعد بن سهل بن حُنَيف ، عن أبيه ،به . ومن حديث مالك أيضاً ، عن محمد بن أبى أمامة بن سهل ، عن أبيه ، به[٥] .

حديث أبى سعيد الخدرى : قال ابن ماجة : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا عباد ، عن الجريرى ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد قال : كان رسول الله ﷺ يتعوذ من أعين[٦] الجان وأعين الإنس . فلما نزل[٧] المعوذتان أخذهما وترك ما سوى ذلك .

---

(١) المسند (١/ ٢٧٤) .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢١٨٨) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٣٣٧١) وسنن أبى داود برقم (٤٧٣٧) وسنن الترمذى برقم (٢٠٦٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٨٤٤) وسنن ابن ماجة برقم (٣٥٢٥) .

(٤) سنن ابن ماجة برقم (٣٥٠٩) .

(٥) سنن النسائى الكبرى برقم (٧٦١٧ ـ ٧٦١٩) .

(٦) فى م : « من عين » .

(٧) فى م : « فلما نزلت » .

ورواه الترمذي والنسائي من حديث سعيد بن إياس [١] أبي مسعود الجُرَيري ، به [٢] . وقال الترمذي : حسن .

حديث آخر عنه : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث ، حدثني أبي ، حدثني عبد العزيز بن صُهيب ، حدثني أبو نضرة ، عن أبي سعيد : أن جبريل أتى رسول الله ﷺ فقال : اشتكيت يا محمد ؟ قال : « نعم » . قال : باسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس وعين يشفيك ، باسم الله أرقيك [٣] .

ورواه عن عفان ، عن عبد الوارث ، مثله . ورواه مسلم وأهل السنن ــ إلا أبا داود ــ من حديث عبد الوارث ، به [٤] .

قال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا عفان ، حدثنا وهيب ، حدثنا داود ، عن أبي نَضرة ، عن أبي سعيد ــ أو : عن جابر بن عبد الله ؛ أن رسول الله ﷺ اشتكى ، فأتاه جبريل فقال : باسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، من كل حاسد وعين الله يُشفيك [٥] .

ورواه أيضاً ، عن محمد بن عبد الرحمن الطفاوي ، عن داود ، عن أبي نَضرة ، عن أبي سعيد، به [٦] .

قال أبو زُرْعَة الرازي : روى عبد الصمد بن عبد الوارث ، عن أبيه ، عن عبد العزيز ، عن أبي نَضْرَةَ ، وعن عبد العزيز ، عن أنس ، في معناه ، وكلاهما صحيح .

حديث أبي هُرَيرة : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا مَعْمَر ، عن هَمَّام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدثنا أبو هُرَيرة عن رسول الله ﷺ : « إن العين حق » [٧].

أخرجاه من حديث عبد الرزاق [٨].

وقال ابن ماجة : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا إسماعيل بن عُلَيَّة ، عن الجُرَيري ، عن مُضَارب بن حَزن ، عن أبي هُرَيرة قال : قال رسول الله ﷺ : « العين حق » . تفرد به .

ورواه أحمد ، عن إسماعيل بن عُلَيَّة ، عن سعيد الجُرَيْري ، به [٩].

وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير ، حدثنا ثور ــ يعني ابن يزيد ــ عن مكحول ، عن أبي

---

(١) في م : « سعيد بن أبي إياس » .

(٢) سنن ابن ماجة برقم (٣٥١١) وسنن الترمذي برقم (٢٠٥٨) وسنن النسائي (٨/ ٢٧١) .

(٣) المسند (٣/ ٢٨).

(٤) المسند (٣/ ٥٦) وصحيح مسلم برقم (٢١٨٦) وسنن الترمذي برقم (٩٧٥) وسنن النسائي الكبرى برقم (١٠٨٤٣) وسنن ابن ماجة برقم (٣٥٢٣) .

(٥) المسند (٣/ ٧٥) .

(٦) المسند (٣/ ٥٨) .

(٧) المسند (٢/ ٣١٨) .

(٨) صحيح البخاري برقم (٥٧٤٠) وصحيح مسلم برقم (٢١٨٧) .

(٩) سنن ابن ماجة برقم (٣٥٠٧) والمسند (٢/ ٤٨٧) .

هُرَيرة قال : قال رسول الله ﷺ : « العين حق ، ويحضُرها الشيطانُ ، وحسد ابن آدم » (١) .

وقال أحمد : حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنا أبو معشر ، عن محمد بن قيس : سُئل أبو هُرَيرة: هل سمعت رسول الله يقول : الطيرة فى ثلاث : فى المسكن والفرس والمرأة ؟ قال : قلت : إذاً أقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل ! ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقول :« أصدق الطيرة الفألُ ، والعين حق » (٢) .

حديث أسماء بنت عُمَيس : قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن عمرو بن دينار ،عن عُروةَ ابن عامر ، عن عُبيدَ بن رفاعة الزُرقى قال : قالت أسماء : يا رسول الله ، إن بنى جعفر تصيبهم العين ، أفأسترقى لهم ؟ قال : « نعم ، فلو كان شىء يسبق القدرَ لسبقته العين » .

وكذا رواه الترمذى وابن ماجة ، من حديث سفيان بن عيينة ، به(٣) . ورواه الترمذى أيضاً والنسائى ، من حديث عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن أيوب ، عن عمرو بن دينار ، عن عُرْوَة بن عامر ، عن عُبَيد بن رفاعة ، عن أسماء بنت عميس ، به (٤) . وقال الترمذى : حسن صحيح .

حديث عائشة ، رضى الله عنها : قال ابن ماجة : حدثنا على بن أبى الخَصِيب ، حدثنا وَكيع ، عن سفيان ، ومِسْعَر ، عن معبد بن خالد ، عن عبد الله بن شَدَّاد ، عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ أمرها أن تسترقىَ من العين (٥).

ورواه البخارى عن محمد بن كثير ، عن سفيان ، عن معبد بن خالد ، به . وأخرجه مسلم من حديث سُفيانَ ومِسْعَر ، كلاهما عن معبد ، به (٦) . ثم قال ابن ماجة :

حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا أبو هشام المخزومى ، حدثنا وُهَيب ، عن أبى واقد ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ: «استعيذوا بالله ، فإن العين حق». تفرد به (٧) .

وقال أبو داود : حدثنا عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن الأسود ، عن عائشة قالت : كان يؤمر العائن فيتوضأ ويغسل منه المَعين (٨).

حديث سهل بن حُنَيف : قال الإمام أحمد : حدثنا حُسَين بن محمد ، حدثنا أبو أويس (٩)، حدثنا الزهرى ، عن أبى أمامة بن سَهل بن حُنَيف : أن أباه حدثه أن النبى ﷺ خرج وساروا معه

---

(١) المسند (٢/ ٤٣٩) .

(٢) المسند (٢/ ٢٨٩) .

(٣) المسند (٦/ ٤٣٨) وسنن الترمذى برقم (٢٠٥٩) وسنن ابن ماجة برقم (٣٥١٠) .

(٤) سنن الترمذى برقم (٢٠٥٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (٧٥٣٧) .

(٥) سنن ابن ماجة برقم (٣٥١٠) .

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٧٣٨) وصحيح مسلم برقم (٢١٩٥) .

(٧) سنن ابن ماجة برقم (٣٥٠٨) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ١٣٤) : « هذا إسناد فيه مقال » .

(٨) سنن أبى داود برقم (٣٨٨٠) .

(٩) فى م : « أبو إدريس » .

نحو مكة، حتى إذا كانوا بشعب الخَرَار ــ من الجحفة ــ اغتسل سهلُ بن حُنَيف ــ وكان رجلاً أبيض حَسن الجسم والجلد ــ فنظر إليه عامر بن ربيعة ، أخو بنى عدى بن كعب ، وهو يغتسل ، فقال : ما رأيت كاليوم ولا جلد مُخَبَّأة . فلُبِطَ سهل ، فأتى رسول الله ﷺ فقيل له : يا رسول الله ، هل لك فى سهل . والله ما يرفع رأسه ولا يُفيق . قال : « هل تتهمون فيه من أحد ؟ » . قالوا : نظر إليه عامر بن ربيعة . فدعا رسول الله ﷺ عامرا ، فتغيظ عليه ، وقال : « علام يقتل أحدكم أخاه ، هلا إذا رأيت ما يعجبك بَركت ؟ » . ثم قال له : « اغتسل له » ــ فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه ودَاخلَة إزاره فى قَدح ــ ثم صُب ذلك الماء عليه . يَصُبّه رجل على رأسه وظهره من خلفه ، ثم يكفأ(١) القدح وراءه . ففعل ذلك ، فراح سهل مع الناس ، ليس به بأس (٢) .

حديث عامر بن ربيعة : قال الإمام أحمد فى مسند عامر: حدثنا وَكِيع ، حدثنا أبى، حدثنا عبد الله ابن عيسى، عن أميّة بن هند بن سهل بن حُنَيْف ، عن عبد الله بن عامر قال : انطلق عامر بن ربيعة وسهل بن حنيف يريدان الغسل ، قال : فانطلقا يلتمسان الخمرَ ــ قال : فوضع عامر جُبَّة كانت عليه من صوف ، فنظرت إليه فأصبته بعينى فنزل الماء يغتسل . قال : فسمعت له فى الماء فرقعة ، فأتيته فناديته ثلاثا فلم يجبنى . فأتيت النبى ﷺ فأخبرته . قال : فجاء يمشى فخاض الماء كأنى أنظر إلى بياض ساقيه ، قال : فضرب صدره بيدى ثم قال : « اللهم ، اصرف عنه حرها وبردها ووصبها » . قال: فقام .فقال رسول الله ﷺ : « إذا رأى أحدكم من أخيه ، أو من نفسه أو من ماله ، ما يعجبه ، فَلْيُبَرِّك ، فإن العين حق » (٣) .

حديث جابر : قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : حدثنا محمد بن مَعْمَر ، حدثنا أبو داود ، حدثنا طالب بن حبيب بن عمرو بن سهل الأنصارى ــ ويقال له :ابن الضَجِيع ، ضجيع حمزة ، رضى الله عنه ــ حدثنى عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : «أكثر من يموت من أمتى بعد كتاب الله وقضائه وقدره بالأنفس » (٤) .

قال البزار : يعنى العين . قال : ولا نعلم يروى هذا الحديث عن النبى ﷺ إلا بهذا الإسناد .

قلت : بل قد روى من وجه آخر عن جابر ؛ قال الحافظ أبو عبد الرحمن محمد بن المنذر الهروى ــ المعروف بشكَّر ــ فى كتاب العجائب ، وهو مشتمل على فوائد جليلة وغريبة : حدثنا الرهاوى ، حدثنا يعقوب بن محمد ، حدثنا على بن أبى على الهاشمى ، حدثنا محمد بن المُنكَدِر ، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « العين حق ، لتُورِد الرجل القبر ، والجمل القِدر ، وإن أكثر هلاك أمتى فى العين » (٥) .

---

(١) فى أ : « ثم يلقى » .

(٢) المسند (٣/٤٨٦) .

(٣) المسند (٣/٤٤٧) .

(٤) مسند البزار برقم (٣٠٥٢) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (٥/١٠٦) : « رجاله رجال الصحيح ، خلا طالب بن حبيب ابن عمرو ،وهو ثقة » .

(٥) ورواه ابن عدى فى الكامل (٥/ ١٨٥) من طريق رحيم عن ابن أبى فديك ، عن على بن أبى على اللهبى ، به . وقال : « غير محفوظ » وعلى بن أبى على هو آفته ،قال أحمد : يروى أحاديث مناكير عن جابر .

ثم رواه عن شعيب بن أيوب ، عن معاوية بن هشام ، عن سفيان ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « قد تُدخل الرجلَ العينُ فى القبر ، وتدخل الجمل القدر » [١].

حديث عبد الله بن عمرو : قال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا رشدين بن سعد ، عن الحسن بن ثوبان ، عن هشام بن أبى رُقية ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : «لا عدوى ولا طيرةَ ، ولا هَامة ولا حَسَد ، والعين حق » . تفرد به أحمد [٢] .

حديث عن على : روى الحافظ ابن عساكر من طريق خَيْثمة بن سليمان الحافظ : حدثنا عبيد بن محمد الكَشَورى ، حدثنا عبد الله بن عبد الله بن عبد ربه البصرى ، عن أبى رجاء ، عن شعبة ، عن أبى إسحاق ، عن الحارث ، عن على؛ أن جبريل أتى النبى ﷺ فوافقه مغتما، فقال: يا محمد ، ما هذا الغم الذى أراه فى وجهك ؟ قال : « الحسن والحسين أصابتهما عين ». قال : صَدَق بالعين ، فإن العين حق ، أفلا عوذتهما بهؤلاء الكلمات ؟ قال : « وما هن يا جبريل ؟ » . قال : قل: اللهم ذا السلطان العظيم ، ذا المن [٣] القديم ، ذا الوجه الكريم ، ولى الكلمات التامات، والدعوات المستجابات ،عاف الحسن والحسين من أنفس الجن ، وأعين الإنس . فقالها النبى ﷺ فقاما يلعبان بين يديه . فقال النبى ﷺ : « عَوِّذوا أنفسكم ونساءكم وأولادكم بهذا التعويذ ، فإنه لم يتعوذ المتعوذون بمثله » .

قال الخطيب البغدادى : تفرد بروايته أبو رجاء محمد بن عبيد الله الحَبَطى [٤] من أهل تُستَر . ذكره ابن عساكر فى ترجمة « طراد بن الحسين » ، من تاريخه [٥] .

وقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُون ﴾ أى : يزدرونه بأعينهم ويؤذونه بألسنتهم ، ويقولون : ﴿ إِنَّهُ لَمَجْنُون ﴾ أى : لمجيئه بالقرآن ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

---

(١) وورواه ابن عدى فى الكامل (٦/٤٠٨) وأبو نعيم فى الحلية (٧/ ٩٠) من طرق عن شعيب بن أيوب به ،وقال أبونعيم : « غريب من حديث الثورى ، تفرد به معاوية » وكذا قال ابن عدى .

(٢) المسند (٢/ ٢٢٢) .

(٣) فى م : « والمن » .

(٤) وقع فى تاريخ دمشق :« محمد بن عبد الله الحنظلى » وفى كنز العمال : « محمد بن عبد الله الخطيبى » ولم يتبين لى الصواب ، والله أعلم .

(٥) تاريخ دمشق (٨/٥٠٣« المخطوط»).

سورة نٓ[1]

مكّيّة، وهي ثنتان وخمسون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢﴾

﴿نٓ﴾ بالسكون على الوقف، وقُرئ بالكسر[2] وبالفتح[3] لالتقاء الساكنين. ويجوز أن يكون / الفتح بإضمار حرف القسَم في موضع الجرّ، كقولهم: "اللهِ لأفعلنّ" بالجرّ، وأن يكون ذلك نصبًا بإضمار "اذكُر"،[4] لا فتحًا كما سبَق في فاتحة سورة البقرة.[5] وامتناع الصرف للتعريف والتأنيث على أنّه عَلَم للسورة. [٢١٤و]

ثمّ إن جُعل اسمًا للحرف مسرودًا على نمط التعديد للتحدّي بأحد الطريقين المذكورين في موقعه، أو اسمًا للسورة منصوبًا على الوجه المذكور، أو مرفوعًا على أنّه خبر لمبتدأ محذوف،[6] فـ"الواو"[7] في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَلَمِ﴾ للقسَم، وإن جُعل مقسَمًا به فهي للعطف عليه.

وأيًّا ما كان فإن أُريدَ به قلم اللوح والكرام الكاتبين فاستحقاقه للإعظام بالإقسام به ظاهر، وإن أُريدَ به الجنس فاستحقاق ما في أيدي الناس لذلك لكثرة منافعه، ولو لم يكن له مزيّة سوى كونه آلةً لتحرير كتبِ الله عزّ قائلًا لكفى به فضلًا موجِبًا لتعظيمه. وقُرئ بإدغام "النون" في "الواو".[8]

---

١ وتُسمّى سورة القلم.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وابن أبي إسحاق وأبي السمّال والحسن والأعمش. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٠؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨١٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جُبير وعيسى بن عمر الثقفي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٠؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٠.

٤ الوجهان في اللباب لابن عادل، ٢٦٤/١٩.

٥ في تفسير الآية الأولى منها.

٦ مرّت هذه الوجوه مفصّلة في تفسير البقرة، ١/٢.

٧ السياق: ثمّ إن جُعل... فالواو...

٨ قرأ بها الكسائي ويعقوب وخلف وهشام. النشر لابن الجزري، ١٨/٢.

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ الضمير لأصحاب القلم المدلول عليهم بذِكره، وقيل: لـ﴿ٱلْقَلَمِ﴾ على أنّ المراد به أصحابه، كأنّه قيل: وأصحاب القلم ومسطوراتهم على أنّ ﴿مَا﴾ موصولة، أو وسَطْرهم على أنّها مصدريّة.[1] وقيل: لـ﴿ٱلْقَلَمِ﴾ نفسه بإسناد الفعل إلى الآلة وإجرائه مُجرى العقلاء لإقامته مُقامهم.[2] وقيل المراد بـ﴿ٱلْقَلَمِ﴾ ما خَطّ اللوح خاصّةً، والجمع للتعظيم.[3]

وقوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ جواب القسَم، و"الباء" متعلّقة بمضمر هو حال مِن الضمير في خبر ﴿مَا﴾، والعامل فيها معنى النّفي، كأنّه قيل: أنت بريء مِن الجنون ملتبِسًا بنعمة الله التي هي النبوّة والرياسة العامّة.

والتعرّض لوَصْف الربوبيّة المنبئة عن التبليغ إلى معارج الكمال مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام، لتشريفه عليه السلام والإيذانِ بأنّه تعالى يُتمّ نعمته عليه ويُبلّغه مِن العلوّ إلى غاية لا غايةَ وراءها. والمراد تنزيهُه صلّى الله عليه وسلّم عمّا كانوا ينسبونه عليه السلام إليه مِن الجنون حسدًا وعداوةً ومكابرةً، مع جزمهم بأنّه عليه السلام في غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية مِن حصانة العقل ورَزانة الرأي.

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾

﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ بمقابلة مقاساتك ألوانَ الشدائد مِن جهتهم / وتحمُّلِك لأعباء [٢١٤ظ] الرسالة ﴿لَأَجْرًا﴾ لثوابًا عظيمًا لا يُقادَر قَدْره ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ مع عِظَمه، كقوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود، ١٠٨/١١]، أو غيرَ ممنون عليك مِن جهة الناس، فإنّه عطاؤه تعالى بلا توسّط.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ لا يُدرِك شَأْوَه أحد مِن الخَلْق، ولذلك تحتمل مِن جهتهم ما لا يكاد يحتمله البشر. وسُئلت عائشةُ رضي الله عنها عن خُلقه عليه الصلاة والسلام فقالت: «كان خُلقه القرآن، ألست تقرأ القرآن:

[1] الوجهان في الكشّاف للزمخشري، ٤٤٣/٤.
[2] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٣٢/٣.
[3] القول في اللباب لابن عادل، ٢٦٦/١٩.

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المؤمنون، ١/٢٣]».[١] والجملتانِ معطوفتان على جواب القسم.

﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ۝٩﴾

﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «فستعلم ويعلمون يوم القيامة حين يتبيّن الحقّ مِن الباطل».[٢] وقيل: فستُبصر ويبصرون في الدنيا بظهور عاقبة أمركم بغلَبة الإسلام واستيلائك عليهم بالقتل والنهب، وصيرورتِك مَهيبًا معظَّمًا في قلوب العالمين وكونِهم أذلّة صاغرين. قال مقاتل: هذا وعيد بعذاب يوم بدر.[٣]

﴿بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ أي: أيّكم الذي فُتن بالجنون، و"الباء" مزيدة، أو بأيّكم الجنون على أنّ ﴿ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ مصدر كـ"المعقول" و"المجلود"، أو بأيّ الفريقين منكم المجنون أبفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين؟ أي: في أيّهما يوجد مَن يستحقّ هذا الاسم؟ وهو تعريض بأبي جهل بن هشام والوليد بن المغيرة وأضرابهما،[٤] كقوله تعالى: ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ﴾ [القمر، ٢٦/٥٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ تعليل لِما ينبئ عنه ما قبله مِن ظهور جنونهم بحيث لا يخفى على أحد، وتأكيدٌ لِما فيه مِن الوعد والوعيد، أي: هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله تعالى المؤدّي إلى سعادة الدارين، وهامَ في تِيه الضلال متوجِّهًا إلى ما يفضيه إلى الشقاوة الأبديّة. وهذا هو المجنون الذي لا يفرق بين النفع والضرر؛ بل يحسب الضررَ نفعًا فيُؤْثِره والنفعَ ضررًا فيهجُره.

﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ إلى سبيله الفائزين بكلّ مطلوب، الناجين عن كلّ محذور، وهم العقلاء المَراجيح، فيجزي كلًّا مِن الفريقين حسبما يستحقّه مِن العقاب والثواب. وإعادة ﴿هُوَ أَعۡلَمُ﴾ لزيادة التقرير.

---

١ مسند أحمد، ١٤٨/٤١ (٢٤٦٠١)؛ الأدب المفرد للبخاري، ص ١١٥ (٣٠٨)؛ جامع البيان للطبري، ١٥٠/٢٣-١٥١؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٨٧/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٤٤/٤؛

٢ لم أجِده في مظانّه. وهو بلفظه في تفسير القرطبي، ٢٢٩/١٨؛ واللباب لابن عادل، ٢٧١/١٩.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ٢٧١/١٩.

٤ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤٤٤/٤.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ لترتيب النّهي على ما ينبئ عنه ما قبله مِن اهتدائه عليه السلام وضلالهم، أو على جميع ما فُصّل مِن أوّل السورة، وهذا تهييج وإلهاب للتصميم على معاصاتهم، أي: دُمْ على ما أنت عليه مِن عدم طاعتهم وتصلَّبْ في ذلك، أو نهيٌ عن مُداهنتهم ومُداراتهم بإظهار خلاف ما في ضميره عليه السلام، استجلابًا لقلوبهم لا عن طاعتهم حقيقةً، كما ينبئ عنه / قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ﴾، فإنّه تعليل للنّهي أو للانتهاء، وإنّما عُبّر عنها بالطاعة للمبالغة في الزجر والتنفير، أي: أحبُّوا لو تُلاينُهم وتُسامِحهم في بعض الأمور. [٢١٥و]

﴿فَيُدۡهِنُونَ﴾ أي: فهم يُدهنون حينئذ، أو فهم الآن يدهنون طمعًا في إدهانك. وقيل: هو عطفٌ على ﴿تُدۡهِنُ﴾ داخلٌ في حيّز ﴿لَوۡ﴾، والمعنى: ودّوا لو يُدهِنون عَقيبَ إدهانك.[1] ويأباه ما سيأتي مِن بدئهم بالإدهان، على أنّ إدهانهم أمر محقَّق لا يناسب إدخاله تحت التمنّي.

وأيًّا ما كان فالمعتبَر في جانبهم حقيقة الإدهان الذي هو إظهار المُلاينة وإضمار خلافها، وأمّا في جانبه عليه السلام فالمعتبرُ بالنسبة إلى وَدادتهم هو إظهار المُلاينة فقط، وأمّا إضمار خلافها فليس في حيّز الاعتبار؛ بل هم في غاية الكراهة له، وإنّما اعتباره بالنسبة إليه عليه السلام.

وفي بعض المصاحف "فَيُدْهِنُوا"[2] على أنّه جواب التمنّي المفهوم مِن ﴿وَدُّواْ﴾، وأنّ ما بعده حكاية لودادتهم. وقيل: على أنّه عطفٌ على ﴿تُدۡهِنُ﴾ بناءً على أنّ ﴿لَوۡ﴾ بمنزلة "أن" الناصبة، فلا يكون لها جواب، وينسَبِكُ منها وممّا بعدها مصدر يقع مفعولًا لـ﴿وَدُّواْ﴾، كأنّه قيل: ودّوا أن تُدهنَ فيُدهنوا. وقيل ﴿لَوۡ﴾ على حقيقتها، وجوابها محذوف وكذا مفعول ﴿وَدُّواْ﴾، أي: ودّوا إدهانك لو تُدهن فيُدهنوا لَسُرُّوا بذلك.[3]

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٣٢.
٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٤.
٣ الوجهان بإيجاز في اللباب لابن عادل، ١٩/٢٧٣.

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ كثير الحلف في الحقّ والباطل. تقديم هذا الوصف على سائر الأوصاف الزاجرة عن الطاعة لكونه أدخَلَ في الزجر. ﴿مَّهِينٍ﴾ حقير الرّأي والتدبير.

﴿هَمَّازٍ﴾ عيّاب طعّان ﴿مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ مُضرِّب نقّال للحديث مِن قوم إلى قوم على وجه السِّعاية والإفساد بينهم، فإنّ النميم والنميمة: السِّعاية.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي: بخيل، أو منّاع للناس مِن الخير الذي هو الإيمان والطاعة والإنفاق. ﴿مُعْتَدٍ﴾ متجاوِز في الظلم ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الآثام.

﴿عُتُلٍّ﴾ جافٍ غليظ مِن "عتَلَه" إذا قاده بعُنف وغِلظة ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد ما عُدّ مِن مَثالبه ﴿زَنِيمٍ﴾ دَعيّ مأخوذ مِن الزَّنَمة: وهي الهَنَة مِن جلد الماعزة تُقطَع فتُخلّى متدلّيةً في حلقها. وفي قوله تعالى: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ دلالة على أنّ دِعْوَتَه أشدّ معايبه وأقبح قبائحه. قيل: هو الوليد بن المُغيرة، / فإنّه كان دَعيًّا في قريش وليس مِن سِنخهم،[١] ادّعاه[٢] المُغيرة بعد ثماني عشرةَ مِن مَولده.[٣] وقيل: هو الأخنس بن شَريق، أصله مِن ثَقيف وعِداده في زُهْرة.[٤] [٢١٥ظ]

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ متعلّق بقوله تعالى: ﴿لَا تُطِعْ﴾ أي: لا تطع مَن هذه مَثالبه، لأن كان متموّلًا مستظهِرًا بالبنين.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ استئناف جارٍ مَجرى التعليل للنّهي. وقيل: متعلّق بما دلّ عليه الجملة الشرطيّة مِن معنى الجُحود والتكذيب لا بجواب الشرط؛ لأنّ ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله، كأنّه قيل:

---

١ السِّنخ: الأصل مِن كلّ شيء. لسان العرب لابن منظور، «سنخ».

٢ س ي: ادّعاه.

٣ القول بمعناه في معالم التنزيل للبغوي، ١٩٨/٨؛ وبلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٤٤٥/٤.

٤ مَرويّ عن الكلبي في جامع البيان للطبري، ١٦٠/٢٣؛ وعن السدّي في الكشّاف للزمخشري، ٤٤٥/٤.

لكونه مستظهِرًا بالمال والبنين كذّب بآياتنا.[١] وفيه أنّه يدلّ على أنّ مَدار تكذيبه كونُه ذا مال وبنين مِن غير أن يكون لسائر قبائحه دَخْل في ذلك.

وقُرِئ: "أَأَنْ كَانَ"[٢] على معنى أَلِأن كان ذا مال كذّب بها؟ أو أتُطيعه لأن كان ذا مال؟ وقُرِئ: "إِنْ كَانَ"[٣] بالكسر، والشرط للمخاطَب، أي: لا تطع كلّ حلّاف شارطًا يساره؛ لأنّ إطاعة الكافر لغِناه بمنزلة اشتراط غِناه في الطاعة.

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ بالكيّ على أكرَم مواضعه لغاية إهانته وإذلاله. قيل: أصاب أنفَ الوليد جِراحةٌ يوم بدر فبقيَت علامتها. وقيل: معناه سنُعلِمه يوم القيامة بعلامة مشوّهة يُعلَم بها عن سائر الكفرة.[٤]

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ أي: أهل مكّة بالقحط بدعوة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ وهم قوم مِن أهل الصلاة كانت لأبيهم هذه الجنّة دون صنعاءَ بفرسخين، فكان يأخذ منها قوت سنة ويتصدّق بالباقي، وكان ينادي الفقراءَ وقت الصِّرام، ويترك لهم ما أخطأه المِنجَل، وما في أسفل الأكداس، وما أخطأه القِطاف مِن العنب، وما بقيَ على البساط الذي يبسط تحت النخلة إذا صُرمت، فكان يجتمع لهم شيءٌ كثير، فلمّا مات أبوهم قال بنوه إن فعلنا ما
[٢١٦و] كان يفعل أبونا ضاق علينا / الأمر، فحلفوا فيما بينهم، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ لَيقطعُنّها داخلين في الصباح.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي: لا يقولون: "إن شاء الله". وتسميتُه استثناء مع أنّه شرط مِن حيث إنّ مؤدّاه مؤدّى الاستثناء، فإنّ قولك: "لأخرجنّ إن شاء الله"

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٦.
٢ قرأ بها ابن عامر وحمزة ويعقوب وأبو جعفر وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٧.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزُّهري والنقّاش عن نافع. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٠؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٠.
٤ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٦.

و"لا أخرج إلّا أن يشاء الله" بمعنى واحد. أو لا يستثنون حِصّة المساكين كما كان يفعله أبوهم، والجملة مستأنَفة.

﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ١٩ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ٢٠﴾

﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا﴾ أي: على الجنّة ﴿طَآئِفٞ﴾ بلاءٌ طائف، وقُرئ: "طَيْفٌ".[١] ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ مبتدئ مِن جهته تعالى ﴿وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾ غافلون عمّا جرت به المقادير.

﴿فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ﴾ كالبستان الذي صُرِمت ثماره بحيث لم يبقَ منها شيء، "فعيل" بمعنى "مفعول". وقيل: كالليل، أي: احترقت فاسودّت. وقيل: كالنّهار، أي: يبِست وابيضّت، سُمِّيا بذلك لأنّ كلًّا منهما ينصرِم عن صاحبه. وقيل: الصريم الرِّمال.[٢]

﴿فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ ٢١ أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ ٢٢﴾

﴿فَتَنَادَوۡاْ﴾ أي: نادى بعضهم بعضًا ﴿مُصۡبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح.

﴿أَنِ ٱغۡدُواْ﴾ أي: اغدوا على أنّ ﴿أن﴾ مفسِّرة، أو بأن اغدوا، على أنّها مصدريّة، أي: اخرجوا غدوةً. ﴿عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ﴾ بستانكم وضيعتكم. وتعدية الغدوّ بـ﴿عَلَىٰ﴾ لتضمينه معنى الإقبال أو الاستيلاء. ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ﴾ قاصدين للصّرم.

﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ٢٣ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ٢٤ وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ٢٥﴾

﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ أي: يتشاورون فيما بينهم بطريق المُخافَتة، و"خفيَ" و"خفَتَ" و"خفَد" ثلاثتُها في معنى الكتْم، ومنه "الخُفدُود" للخفّاش.[٣]

﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا﴾ أي: الجنّة ﴿ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ﴾ ﴿أن﴾ مفسِّرة لِما في التخافُت مِن معنى القول. وقرئ بطَرْحها[٤] على إضمار القول. والمراد

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن إبراهيمَ النخَعي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٠.

[٢] الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٧.

[٣] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٧.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨١.

بنهي المِسكين عن الدخول المبالغةُ في النهي عن تمكينه مِن الدخول، كقولهم: "لا أرينَّك ههنا".

[٢١٦ظ] ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾ / أي: على نكَدٍ لا غيرُ، مِن "حاردَت السَّنَة" إذا لم يكن فيها مطر، و"حاردَت الإبل" إذا منعتْ درّها، والمعنى أنّهم أرادوا أن يتنكّدوا على المساكين ويحرِموهم وهم قادرون على نفعهم، فغدوا بحال لا يقدرون فيها إلّا على النّكَد والحِرمان. وذلك أنّهم طلبوا حِرمان المساكين فتعجّلوا الحِرمان والمَسكنَة، أو وغدَوا على محارَدة جنّتهم وذهاب خيرِها قادرين بدلَ كونهم قادرين على إصابة خيرِها ومنافعها، أي: غدوا حاصلين على النّكَد والحِرمان مكانَ كونهم قادرين على الانتفاع.

● وقيل: الحَرْد: الحَرَد،[١] وقد قُرئ بذلك،[٢] أي: لم يقدروا إلّا على حَنَق بعضهم لبعض لقوله تعالى: ﴿يَتَلَٰوَمُونَ﴾.[٣] وقيل: الحَرْد: القصد والسرعة، أي: غدوا قاصدين إلى جنّتهم بسرعة قادرين عند أنفسهم على صِرامها. وقيل: هو عَلَم للجنّة.[٤]

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ٢٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ٢٧﴾

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ﴾ في بديهة رؤيتهم ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي: طريق جنّتنا، وما هي بها.

﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ قالوه بعد ما تأمّلوا ووقفوا على حقيقة الأمر مُضربين عن قولهم الأوّل، أي: لسنا ضالّين؛ بل نحن محرومون حُرمنا خيرها بجِنايتنا على أنفسنا.

﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ٢٨ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٩﴾

﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ﴾ أي: رأيًا أو سِنًّا ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ﴾ لولا تذكرون الله تعالى وتتوبون إليه مِن خُبث نيّتكم، وقد كان قال لهم حين عزموا على ذلك: اذكروا الله وتوبوا إليه عن هذه العزيمة الخبيثة مِن فوركم، وسارعوا إلى حَسْم شرّها قبل حلول النقمة، فعصوه فعيّرهم، كما ينبئ عنه قوله تعالى:

---

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٤٧/٤. والحَرَد: الغضب. لسان العرب لابن منظور، «حرد».

[٢] قراءة شاذّة، غير منسوبة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٠.

[٣] في الآية الثلاثين مِن هذه السورة.

[٤] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤٤٧/٤.

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾. وقيل: المرادُ بالتسبيح الاستثناء لاشتراكهما في التعظيم، أو لأنّه تنزيه له تعالى عن أن يجري في ملكه ما لا يشاؤه.[١]

﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ۝٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ۝٣٢﴾

﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ أي: يلوم بعضهم بعضًا، فإنّ منهم مَن أشار بذلك، ومنهم مَن استصوبه، ومنهم مَن سكَت راضيًا به، ومنهم مَن أنكره.

/ ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ متجاوِزين حدودَ الله. [٢١٧و]

﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا﴾ وقرئ بالتشديد،[٢] أي: يُعطينا بدلًا منها ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة. ﴿خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ راجون العفوَ طالبون الخيرَ. و﴿إِلَىٰ﴾ لانتهاء الرغبة، أو لتضمُّنها معنى الرجوع.

عن مجاهد: «تابوا فأُبدلوا خيرًا منها».[٣] ورُوي أنّهم تعاقدوا وقالوا: إن أبدلَنا الله تعالى خيرًا منها لنصنعَنّ كما صنع أبونا، فدعوا الله تعالى وتضرّعوا إليه فأبدلهم الله تعالى مِن ليلتهم ما هو خير منها. قالوا: إنّ الله تعالى أمر جبريلَ عليه السلام أن يقتلع تلك الجنّة المحترِقة فيجعلها بزعر[٤] مِن أرض الشام ويأخذ مِن الشام جنّة فيجعلها مكانها.[٥] وقال ابن مسعود: «إنّ القوم لمّا أخلصوا وعرَف الله منهم الصدقَ أبدلهم جنّة يقال لها الحيوان، فيها عنب يحمل البغلُ منه عنقودًا».[٦]

وقال أبو خالد اليماني:[٧] دخلتُ تلك الجنّة فرأيتُ كلّ عنقود منها كالرجُل الأسود القائم. وسُئل قتادة عن أصحاب الجنّة: أهم مِن أهل الجنّة أم مِن أهل النار؟ فقال: لقد كلّفتني تعبًا. وعن الحسن رحمه الله: قول أصحاب الجنّة:

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٤٨/٤.
٢ قرأ بها نافع وأبو عمرو وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣١٤/٢.
٣ الكشّاف للزمخشري، ٤٤٨/٤.
٤ الزَّعَر: قلّة النبات في الأرض. لسان العرب لابن منظور، «زعر». وفي مطبوع اللباب لابن عادل، ٢٩٣/١٩: «زغر».
٥ الكلام في اللباب لابن عادل، ٢٩٣/١٩.
٦ معالم التنزيل للبغوي، ١٩٧/٨.
٧ وفي هامش م: ابن عادل.

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ لا أدري إيمانًا كان ذلك منهم، أو على حدّ ما يكون مِن المشركين إذا أصابتهم الشدّة، فتوقّف في أمرهم. والأكثرون على أنّهم تابوا وأخلصوا. حكاه القُشيري.[١]

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبر مقدَّم لإفادة القصر، و"الألف" و"اللام" للعهد، أي: مثلُ الذي بلونا به أهلَ مكّة وأصحابَ الجنّة عذابُ الدنيا. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أعظم وأشدّ ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أنّه أكبر لاحترزوا عمّا يؤدّيهم إليه.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: مِن الكفر والمعاصي ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: في الآخرة، أو في جوار القدس ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ جنات ليس فيها إلّا التنعّم الخالص عن شائبة ما يُنغّصه مِن الكدورات وخوف الزوال، كما عليه نعيم الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ تقرير لِما قبله مِن فوز
[٢١٧ظ] المتّقين بجنّات النعيم، وردٌّ لِما يقوله الكفَرة عند سماعهم بحديث الآخرة / وما وعَد الله المسلمين فيها، فإنّهم كانوا يقولون: إن صحّ أنّا نُبعث كما يزعم محمّد ومَن معه لم تكن حالنا وحالهم إلّا مثلَ ما هي في الدنيا، وإلّا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا وأقصى أمرهم أن يُساوونا. و"الهمزة" للإنكار، و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أنَحيف في الحُكم فنجعَل المسلمين كالكافرين.

---

١ هذه الأقوال كلُّها في اللباب لابن عادل، ١٩/٢٩٣. وانظر كلام القُشيري في لطائف الإشارات، ٣/٦٢٠. | هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة النيسابوري القشيري، مِن بني قشير بن كعب، أبو القاسم (ت. ٤٦٥هـ/١٠٧٢م). الإمام القدوة الأستاذ الشافعي الصوفي المفسِّر. زين الإسلام وشيخ خراسان في عصره زهدًا وعِلمًا بالدِّين. برع بالفروسيّة والعمل بالسلاح. أقام بنيسابور ومات فيها. مِن كتبه: الرسالة القشيريّة، ولطائف الإشارات. انظر: وسير أعلام النبلاء للذهبي، ١٨، ٢٢٧؛ والأعلام للزركلي، ٤/٥٧.

ثمّ قيل لهم بطريق الالتفات لتأكيد الردّ وتشديده: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ تعجيبًا مِن حكمهم واستبعادًا له وإيذانًا بأنّه لا يصدر عن عاقل.

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ﴾ نازل مِن السماء ﴿فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ أي: تقرأون.

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ أي: ما تتخيّرونه وتشتهونه، وأصله "أنّ لكم" بالفتح؛ لأنّه مدروس، فلمّا جيء بـ"اللام" كُسِرت. ويجوز أن يكون حكاية للمدروس، كما هو كقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۞ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات، ٣٧/٧٨-٧٩].[١] وتخيُّر الشيءِ واختِيارُه: أَخْذ خَيره.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ۝٣٩﴾

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا﴾ أي: عهود مؤكَّدة بالأيمان ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ متناهية في التوكيد. وقُرئت بالنصب[٢] على الحال والعامل فيها أحد الظرفين. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ متعلِّق بالمقدَّر في ﴿لَكُمْ﴾، أي: ثابتة لكم إلى يوم القيامة لا نخرُج عن عهدتها حتّى نحكِّمكم يومئذ ونعطيكم ما تحكمون، أو بـ﴿بَٰلِغَةٌ﴾، أي: أيمان تبلغ ذلك اليوم وتنتهي إليه وافرةً لم تبطل منها يمين. ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ جوابُ القسَم، لأنّ معنى "أم لكم علينا أيمان": أم أقسَمنا لكم.

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝٤٠ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ۝٤١﴾

﴿سَلْهُمْ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بإسقاطهم عن رتبة الخطاب، أي: سَلْهم مُبكِّتًا لهم. ﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ﴾ الحُكم الخارج عن العقول ﴿زَعِيمٌ﴾ أي: قائم يتصدّى لتصحيحه.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾ يشاركونهم في هذا القول ويذهبون مذهبَهم ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواهم؛ إذ لا أقلَّ مِن التقليد، وقد نُبّه في هذه الآيات الكريمة على أن ليس لهم / شيء يُتوهَّم أن يتشبّثوا به حتّى التقليد [٢١٨و]

---

١ الوجه في **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٤٤٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وإبراهيم وابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٨١؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٨١٨.

الذي لا يفلح مَن تشبَّث بذيله. وقيل: المعنى: أم لهم شركاء يجعلونهم مثلَ المسلمين في الآخرة.[١]

﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾ أي: يوم يشتدّ الأمر ويصعُب الخَطْب، وكَشْفُ الساق مثَل في ذلك، وأصله تشمير المخدَّرات عن سُوقهنّ في الهرَب. قال حاتم:[٢]

أخو الحربِ إن عضّتْ به الحرب عضّها   وإن شمّرتْ عن ساقها الحربُ شمّرا[٣]

وقيل: "ساقُ الشيء" أصله الذي به قوامه كساق الشجر وساق الإنسان، أي: يوم يُكشف عن أصل الأمر فتظهر حقائق الأمور وأصولها بحيث تصير عِيانًا.[٤] وتنكيره للتهويل أو التعظيم. وقُرئ: "تَكْشِفُ" بـ"التاء" على البناء للفاعل[٥] والمفعول،[٦] والفعل للساعة أو الحال، وقُرئ: "نَكْشِفُ"[٧] بـ"النون"، و"تُكْشِفُ"[٨] بـ"التاء" المضمومة وكسرِ "الشين" مِن "أكشَف الأمر"، أي: دخَل في الكَشْف.

---

[١] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٣٦/٣.

[٢] هو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي، أبو عديّ (ت. ٥٧٨م). فارسٌ شاعر جواد جاهلي، يُضرب المَثَل بجوده، مِن أهل نجد، وزار الشام فتزوّج ماويّة بنت حجر الغسانيّة، ومات في عوارض: جبل في طيئ. له شعر كثير ضاع معظمه، وبقي قليل منه، وديوانه مطبوع. وأخباره كثيرة متفرّقة في كتب الأدب والتاريخ. أرّخوا وفاته في السنة الثامنة بعد مولد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة، ٢٤١/١؛ والأعلام للزركلي، ١٥١/٢.

[٣] البيت لحاتم الطائي في زيادات ديوانه، ص ٢٩٧، ممّا نُسِب إليه وصحّ له؛ وهو لحاتم في الكشّاف للزمخشري، ٤٤٩/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٣٦/٣؛ واللباب لابن عادل، ٢٩٩/١٩.

[٤] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٣٦/٣.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١٨١٩.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وابن يعمر وأبي البَرَهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨١؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١٨١٩.

[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وابن يعمر وأبي البَرَهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨١؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١٨١٩.

[٨] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤٥٠/٤.

وناصب الظرفِ ﴿فَلْيَأْتُواْ﴾،[١] أو مضمَر مقدَّم، أي: اذكُر يومَ... إلخ، أو مؤخَّر، أي: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾... إلخ، يكون مِن الأهوال وعظائم الأحوال ما لا يبلغه الوصف.

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ توبيخًا وتعنيفًا على تَركهم إيّاه في الدنيا، وتحسيرًا لهم على تفريطهم في ذلك. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لزوال القدرة عليه، وفيه دلالة على أنّهم يقصدون السجودَ فلا يتأتّى منهم ذلك. عن ابن مسعود رضي الله عنه: تُعْقَم أصلابهم،[٢] أي: تُرَدّ عظامًا بلا مفاصلَ لا تنثني عند الرفع والخفض. وفي الحديث: وتبقى أصلابهم طبقًا واحدًا،[٣] أي: فَقارة واحدة.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ حال مِن مرفوع ﴿يُدْعَوْنَ﴾، على أنّ ﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾ مرتفع به على الفاعليّة. ونسبة الخشوع إلى الأبصار لظهور أثره فيها. ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ تلحَقهم وتغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ شديدة ﴿وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ في الدنيا.

والإظهار في موضع الإضمار لزيادة التقرير، أو لأنّ المراد به الصلاة، أو ما فيها مِن السجود، والدعوة دعوة التكليف. ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ متمكِّنون منه أقوى تمكّن، أي: فلا يُجيبون إليه ويأبَونه، وإنّما تُرِك ذِكره ثقةً بظهوره.

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: كِلْه إليّ فإنّي أكفيك أمرَه، أي: حسبك في الإيقاع به والانتقام منه أن تكِل أمره إليّ وتُخلّي بيني وبينه، فإنّي عالم بما يستحقّه / مِن العذاب ومُطيق له. و"الفاء" لترتيب الأمر على ما قبلها [٢١٨ظ]
مِن أحوالهم المحكيّة، أي: وإذا كان حالهم في الآخرة كذلك فذرني ومَن يكذِّب بالقرآن، وتوكّل عليّ في الانتقام منه.

---

١ في الآية السالفة.
٢ بمعناه في جامع البيان للطبري، ٢٣/١٩٠؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥٠.
٣ بمعناه في معالم التنزيل للبغوي، ٨/٢٠٠؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥٠.

وقوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ استئناف مَسوق لبيان كيفيّة التعذيب المستفاد مِن الأمر السابق إجمالًا، والضمير لـ﴿مَن﴾، والجمع باعتبار معناها، كما أنّ الإفراد في ﴿يُكَذِّبُ﴾ باعتبار لفظها، أي: سنستنزلهم إلى العذاب درجةً فدرجةً بالإحسان وإدامة الصحّة وازدياد النعمة. ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّه استدراج، وهو الإنعام عليهم؛ بل يزعمون أنّه إيثار لهم وتفضيل على المؤمنين مع أنّه سبب لهلاكهم.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ وأمهلهم ليزدادوا إثمًا وهم يزعمون أنّ ذلك لإرادة الخير بهم. ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ لا يُوقَف عليه ولا يُدفَع بشيء. وتسمية ذلك كيدًا لكونه في صورة الكيد.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ على الإبلاغ والإرشاد ﴿أَجْرًا﴾ دُنيويًّا ﴿فَهُم﴾ لأجل ذلك ﴿مِن مَغْرَمٍ﴾ أي: غرامة ماليّة ﴿مُثْقَلُونَ﴾ مكلَّفون حِملًا ثقيلًا فيُعرِضون عنك.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أي: اللوح أو المغيَّبات ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منه ما يحكمون ويستغنون به عن عِلمك.

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم. ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ أي: يونس عليه السلام ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ في بطن الحوت ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ مملوءٌ غيظًا. والجملة حال مِن ضمير﴿نَادَىٰ﴾، وعليها يدور النهي لا على النداء، فإنّه أمر مُستحسَن، ولذلكَ لم يُذكَر المنادى. و﴿إِذْ﴾ منصوب بمضاف محذوف، أي: لا يكن حالك كحاله وقتَ ندائه، أي: لا يُوجَد منك ما وُجِد منه مِن الضجر والمُغاضبة فتُبتلى ببلائه.

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وقُرئ: "رَحْمَةٌ"،[١] وهو توفيقه للتوبة وقَبولها منه،

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥١.

وحَسُن تذكير الفعل للفصل بالضمير. وقرئ: "تَدَارَكَتْهُ"[١] و"تَدَارَكُهُ"،[٢] أي: "تتدارَكُه" على حكاية الحال الماضية، بمعنى لولا أن كان يقال فيه: تتداركه.

﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾ بالأرض الخالية مِن الأشجار ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ مُليم مَطرود مِن الرحمة والكرامة، وهو حال مِن مرفوع ﴿نُبِذَ﴾، عليها يعتمد جواب ﴿لَّوْلَآ﴾ لأنّها هي المُنتفية لا النَّبذ بالعراء كما مرّ في الحال الأولى. والجملة الشرطيّة / استئناف وارد لبيان كون المنهيّ عنه أمرًا محذورًا مستتبعًا للغائلة. [٢١٩و]

وقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ عطفٌ على مقدَّر، أي: فتدارَكته نعمة مِن ربّه فاجتباه بأن ردّ إليه الوحيَ، وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون. وقيل: استنبأه إن صحّ أنّه لم يكن نبيًا قبل هذه الواقعة.[٣] ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مِن الكاملين في الصلاح بأن عصَمه مِن أن يفعل فعلًا يكون تَرْكه أَوْلى.

رُوي أنّها نزلت بأُحُد حين همّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يدعو على المنهزمين مِن المؤمنين، وقيل: حين أراد أن يدعو على ثَقيف.[٤]

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ وقُرئ: "لَيَزْلِقُونَكَ"[٥] بفتح "الياء" مِن "زَلَقه" بمعنى أزلَقه، و"يُزْهِقُونَكَ".[٦] و﴿إِن﴾ هي المخفَّفة و"اللام" دليلها، والمعنى أنّهم مِن شدّة عداوتهم لك ينظرون إليك شَزْرًا بحيث يكادون يُزِلّون قدمك فيَرمونك، مِن قولهم: "نظَر إليّ نظرًا يكاد يصرعني"، أي: لو أمكنه بنظره الصرع لفعله، أو أنّهم يكادون يُصيبونك بالعين؛ إذ قد رُوي أنّه كان في بني أسدٍ عيّانون فأراد بعضهم أن يَعين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وابن مسعود وإبراهيم النخَعي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. الكشّاف للزمخشري، ٤٥١/٤.

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٣٧/٣.

٤ كلاهما في الكشّاف للزمخشري، ٤٥١/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٣٧/٣.

٥ قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٨٩/٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦١.

فنزلت.[١] وفي الحديث: «إنّ العين لتُدخِل الرجلَ القبرَ والجملَ القِدْرَ»،[٢] ولعلّه مِن خصائص بعض النفوس، وعن الحسن: دواء الإصابة بالعين أن تُقرأ هذه الآية.[٣]

﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: وقتَ سماعهم بالقرآن، على أنّ ﴿لَمَّا﴾ ظرفيّة منصوبة بـ﴿يُزْلِقُونَكَ﴾، وذلك لاشتداد بُغضهم وحسَدهم عند سماعه.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ لغاية حيرتهم في أَمْره عليه السلام، ونهايةِ جهلهم بما في تضاعيف القرآن مِن تعاجيب الحِكَم وبدائع العلوم المحجوبة عن العقول المنغمِسة بأحكام الطبائع، ولتنفير النّاس عنه: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾.

وحيث كان مَدارُ حُكمهم الباطل ما سمعوه منه عليه السلام رُدّ ذلك ببيان علوّ شأنه وسطوع برهانه فقيل: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ على أنّه حال مِن فاعل ﴿يَقُولُونَ﴾ مفيدةٌ لغاية بُطلان / قولهم، وتعجيبِ السامعين[٤] مِن جرأتهم [٢١٩ظ] على تفوّه تلك العظيمة، أي: يقولون ذلك والحال أنّه ذِكر للعالمين، أي: تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون إليه مِن أمور دينهم، فأين مَن أنزل عليه ذلك وهو مطَّلع على أسراره طُرًّا ومحيطٌ بجميع حقائقه خُبرًا ممّا قالوا؟

وقيل: معناه: شرف وفضل، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف، ٤٤/٤٣]. وقيل: الضمير لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وكونُه مذكِّرًا وشرفًا للعالمين لا ريبَ فيه.[٥]

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة القلم أعطاه الله ثواب الذين حسّن الله أخلاقهم».[٦]

---

١ بمعناه في أسباب النزول للواحدي، ص ٤٦٣-٤٦٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٠٢/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٥١/٤.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٣/٢٧؛ حلية الأولياء لأبي نُعيم، ٩٠/٧؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٥٨/٤ (يوسف، ٦٧/١٢).

٣ معالم التنزيل للبغوي، ٢٠٣/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٥١/٤.

٤ السياق: رُدّ ذلك ببيان... وتعجيبِ...

٥ القولان في اللباب لابن عادل، ٣١١/١٩.

٦ الكشف والبيان للثعلبي، ١٣٠/٢٧ (القلم، ١/٦٨)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٣٢/٤ (القلم، ١/٦٨)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٥١/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة «نٓ»

هي من أوائل ما نزل من القرآن بمكة، فقد نزلت ـ على ما رُوي عن ابن عباس ـ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] ثم هذه، ثم «المزمل»، ثم «المدثر». وفي «البحر» أنها مكية بلا خلافٍ فيها بين أهل التأويل[١]. وفي «الإتقان»[٢]: استُثني منها: ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ﴾ إلى ﴿يَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [١٧-٣٣]، ومن: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ إلى ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [٤٨-٥٠] فإنه مدنيٌّ. حكاه السَّخاويُّ في «جَمال القرَّاء»[٣].

وآيُها ثنتان وخمسون آيةً بالإجماع.

ومناسبتُها لسورة «الملك» ـ على ما قيل ـ من جهة خَتْم تلك بالوعيد، وافتتاح هذه به. وقال الجلال السُّيوطيُّ في ذلك: إنه تعالى لمَّا ذكر في آخر «الملك» التهديدَ بتغويرِ الماء، استظهر عليه في هذه بإذهاب ثمر أصحاب البستان في ليلةٍ بطائفٍ طافَ عليهم وهم نائمون، فأصبحوا ولم يجدوا له أثراً، حتى ظنُّوا أنهم ضلُّوا الطريق، وإذا كان هذا في الثمار، وهي أجرامٌ كثيفةٌ، فالماءُ الذي هو لطيفٌ أقربُ إلى الإذهاب، ولهذا قال سبحانه هنا: ﴿وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ [١٩-٢٠] وقال جلَّ وعلا هناك: ﴿إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرًا﴾ [٣٠] إشارةً إلى أنه يسري عليه في ليلةٍ كما أُسري على الثمر في ليلة[٤]. انتهى. ولا يخلو عن حُسْن.

وقال أبو حيان فيه: إنه ذكر فيما قبلُ أشياء من أحوال السُّعداء والأشقياء، وذكر قدرتَه الباهرةَ وعلمَه تعالى الواسعَ، وأنه عزَّ وجلَّ لو شاء لخَسَفَ بهم

---

(١) البحر ٨/ ٣٠٧، وانتفاء الخلاف نقله أبو حيان عن ابن عطية.

(٢) ١/ ٥١.

(٣) ١/ ١٤٥.

(٤) تناسق الدرر في تناسب السور ص٨٧.

الأرض، أو لأرسل عليهم حاصباً، وكان ما أخبر به سبحانه هو ما أَوحى به إلى رسوله ﷺ، فتلاه عليه الصلاةُ والسلام، وكان الكفَّارُ ينسبونه في ذلك مرَّة إلى الشِّعر، ومرَّة إلى السِّحر، ومرَّة إلى الجنون، فبدأ جلَّ شأنُه هذه السورةَ الكريمةَ ببراءته ﷺ مما كانوا ينسبونه إليه من الجنون، وتعظيم أجرِهِ على صبرِه على أذاهم، وبالثناء على خُلُقه[1]، فقال عزَّ من قائل:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿نٓ﴾ بالسكون على الوقف، وقرأ الأكثرون بسكونِ النُّون وإدغامِها في واوِ ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ بغنَّةٍ عند بعضٍ، وبدونها عند آخرين[2]. وقُرِئ بكسر النون، وقرأ ابنُ عباس، وابنُ أبي إسحاق، وعيسى بخلافٍ عنه بفتحها[3]؛ وكلٌّ لالتقاء الساكنين. وجُوِّز أن يكون الفتحُ بإضمار حرفِ القَسَم في موضع الجرِّ، كقولهم: اللهِ لأفعلنَّ، بالجرِّ، وأن يكون ذلك نصباً بإضمار: اذكر ونحوه، لا فتحاً، وامتناعُ الصَّرف للتعريف والتأنيث على أنه عَلَم للسورة، ثم إن جُعل اسماً للحرف مسروداً على نمط التعديد للتحدِّي، على ما اشتهر وبُيِّنَ في موضعه، أو اسماً للسورة منصوباً على الوجه المذكور، أو مرفوعاً على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٌ، فالواو في قوله تعالى: «والقلم» للقَسَم، وإن جُعل مُقْسَماً به فهي للعطف عليه على الشائع.

واختار السَّلفُ أن «ن» من المتشابه، وغيرُ واحد من الخَلَف أنه هنا من أسماء الحروف، وقالوا: يؤيِّدُ ذلك أنه لو كان اسمَ جنسٍ أو علماً لأُعرِب منوَّناً أو ممنوعاً من الصرف، ولكُتب كما يُتلفَّظ به، وكونُ كتابته كما ترى لنيَّةِ الوقف

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٠٧.

(٢) انظر تفصيل ذلك في التيسير ص١٨٣، والنشر ٢/ ١٨، وتفسير القرطبي ٢١/ ١٣٥، والبحر المحيط ٨/ ٣٠٧.

(٣) كذا نسب المصنف القراءة، غير أن ما وقفت عليه في المصادر أن قراءة ابن عباس وابن أبي إسحاق بكسر النون لا بفتحها. ونسبت قراءة الفتح لسعيد بن جبير وعيسى بن عمر بخلاف عنه. انظر القراءات الشاذة ص١٥٩، وتفسير القرطبي ٢١/ ١٣٥، والبحر المحيط ٨/ ٣٠٧.

وإجراءِ الوصل مجراه خلافُ الأصل، وكونُ خطِّ المصحف لا يُقاسُ مسلَّم، إلا أنَّ الأصلَ إجراؤه على القياس ما أمكن.

وقيل: هو اسمٌ لحوتٍ عليه الأرضُ، يقال له: اليَهْموت بفتح الياء المثنَّاة التحتية وسكون الهاء، ففي حديثٍ رواه الضياء في «المختارة»، والحاكم وصحَّحه، وجمعٌ عن ابن عباس: خلق الله تعالى النُّونَ، فبُسِطت الأرضُ عليه، فاضطربَ النونُ، فمادَت الأرضُ، فأُثبتت بالجبال، ثم قرأ: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ﴾ إلخ[١]. ورُوي ذلك عن مجاهد.

ورُوي عن ابن عباس أيضاً، والحسن، وقتادة، والضحَّاك أنه اسمٌ للدَّواة. وأنكر الزمخشريُّ[٢] وُرُودَ النُّون بمعنى الدواة في اللغة، أو في الاستعمالِ المُعتدِّ به. وقال ابنُ عطية: يحتمل أن يكون لغةً لبعض العرب، أو لفظةً أعجميةً عربية، وأنشد قولَ الشاعر:

إذا ما الشوقُ برَّح بي إليهم ... أَلَقْتُ النون بالدمع السجوم[٣]

والأوَّلون منهم مَن فسَّر «القلم» بالذي خَطَّ في اللوح المحفوظ ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، ومنهم من فسَّره بقلم الملائكة الكرام الكاتبين. و«أل» فيه على التفسيرين للعهد، والآخِرون منهم من فسَّره بالجنس، على أن التعريف فيه جنسيٌّ، ومنهم ـ وهم قليل ـ مَنْ فسَّره بما تقدَّم أيضاً، لكن الظاهر من كلامهم أن الدَّواة ليست عبارةً عن الدواة المعروفة، بل هي دواةٌ خُلقت يومَ خُلق ذلك القلمُ.

وعن معاوية بن قُرَّة يرفعُه: «إنَّ «ن» لوحٌ من نور، و«القلم» قلمٌ من نور يجري بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة»[٤]. وعن جعفر الصادق أنه نهرٌ من أنهار الجنة.

---

(١) المختارة ١٠/ ١٨، والمستدرك ٢/ ٤٩٨، وأخرجه أيضاً ابن جرير في التفسير ٢٣/ ١٤١.
(٢) في الكشاف ٤/ ١٤٠-١٤١.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٤٥، والبيت أورده أيضاً الرازي في تفسيره ٣٠/ ٧٧، وأبو حيان في البحر ٨/ ٣٠٧.
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٤٤، قال ابن كثير بعد أن أورده: وهذا مرسل غريب.

وفي «البحر»: لعلَّه لا يصحُّ شيء من ذلك[(١)]، أي: من جميع ما ذُكر في «ن»، ما عدا كونه اسماً من أسماء الحروف، وكأنه إن كان مطَّلعاً على الروايات التي ذكرناها لم يعتبر تصحيحَ الحاكم فيما رُوي أولاً عن ابن عباس، ولا كونَ أحدِ رواته الضياءُ في «المختارة» التي هي في الاعتبار قريبةٌ من الصِّحاح، ولا كثرةَ راويه عنه، وهو الذي يغلب على الظنِّ؛ لكثرة الاختلاف فيما رُوي عنه في تعيين المراد به، حتى إنه رُوي عنه أنه آخرُ حرفٍ من حروف «الرحمن»، وأن هذا الاسمَ الجليل فُرِّق في «آلر» و«حم» و«ن».

ولا يخفى أنه إن أُريد الحوتُ أو نهرٌ في الجنة يصيرُ الكلام من باب: كُمُّ الخليفةِ وألفُ باذنجانة[(٢)]، وأما إن أُريد الدواةُ فالتنكيرُ آبٍ عن ذلك أشدَّ الإباء، على أنه ـ كما سمعتَ عن الزمخشريِّ ـ لغةٌ لم تثبت، والردُّ عليه إنما يتأتَّى بإثبات ذلك عن الثقات، وأنَّى به! وذِكْر صاحبِ «القاموس»[(٣)] لا ينتهض حجَّةً على أنه معنًى لغويٌّ، وفي صحَّة الروايات كلامٌ، والبيتُ الذي أنشده ابنُ عطيةَ لم يثبت عربيّاً. وكونُه بمعنى الحوت أُطلق على الدّواة مجازاً بعلاقة المشابهة؛ فإنَّ بعض الحيتان يُستخرج منه شيءٌ أشدُّ سواداً من النِّقْس[(٤)] يُكتب به = لا يخفى ما فيه من السَّماجة؛ فإنَّ ذلك البعضَ لم يشتهر حتى يصحَّ جعلُه مشبَّهاً به، مع أنه لا دلالةَ للمنكِر على ذلك الصِّنف بعينه، وكونُه بمعنى الحرف مجازاً عنها أدهى وأمرُّ. كذا قيل، وللبحث في البعض مجال.

وللقُصَّاص في هذا الفصل روايات لا يعوَّل عليها، ولا ينبغي الإصغاء إليها.

ثم إن استحقاقَ «القلم» للإعظام بالإقسام به إذا أُريد به قلمُ اللوح الذي جاء في الأخبار أنه أولُ شيء خلقَه الله تعالى أو قلمُ الكرام الكاتبين ظاهرٌ،

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٠٧.

(٢) لعله يريد ـ والله أعلم ـ أنه لا يكون حينئذ بين المعطوف والمعطوف عليه جهة جامعة، كما أنه ليس هنالك شيء مشترك بين كمِّ الخليفة وألف باذنجانة.

(٣) مادة (نون).

(٤) النقس: المِداد. القاموس: (نقس).

وأما استحقاقُ ما في أيدي الناس ـ إذا أُريد به الجنسُ ـ لذلك، فلكثرةِ منافعه، ولو لم يكن له مزيةٌ سوى كونه آلةً لتحرير كُتُب الله عزَّ وجل لكفى به فضلاً موجباً لتعظيمه.

والضميرُ في قوله سبحانه: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ أي: يكتبون، إما لـ «القلم» مُراداً به قلمُ اللوح، وعبَّر عنه بضمير الجمعِ تعظيماً له، أو له مُراداً به جنسُ ما به الخطُّ، فضميرُ الجمع لتعدُّدِهِ، لكنه ليس بكاتبٍ حقيقة، بل هو آلةٌ للكاتب، فالإسنادُ إليه إسنادٌ إلى الآلةِ مجازاً، والتعبيرُ عنه بضمير العقلاء لقيامِهِ مقامَهم، وجعلِهِ فاعلاً.

أو للكَتَبة أو الحَفَظة المفهومين من «القلم»، أو لهم باعتبار أنه أُريد بـ «القلم» أصحابه تجوُّزاً، أو بتقدير مضافٍ معه، ولا يخفى ما هو الأوجهُ من ذلك.

وأما كونُه لـ «ما» وهي بمعنى «مَن» فتكلُّفٌ بارد، والظاهرُ فيها أنها إمَّا موصولةٌ، أي: والذي يسطُرونه، أو مصدريةٌ، أي: وسَطْرِهم.

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ جوابُ القَسَم، والباءُ الثانية مزيدةٌ لتأكيد النفي، و«مجنون» خبرُ «ما»، والباءُ الأولى للمُلابسة، والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال من الضمير في الخبر، والعاملُ فيها معنى النفي، والمعنى: انتفى عنكَ الجنونُ في حال كونك مُلتبساً بنعمة ربِّك، أي: منعماً عليك بما أنعم من حَصَافة الرأي، والنبوَّةِ، والشَّهامةِ، واختاره ناصرُ الدِّين(١).

وقريبٌ منه جعلُ الباء للسببية، والجارَّ والمجرور متعلِّقاً بالنفي كالظرف اللغوِ، كأنه قيل: انتفى عنك الجنونُ بسبب نعمةِ ربِّك عليك.

وجُوِّز أن تكون الباءُ للملابسة في موضع الحال، والعاملُ «مجنون»، وباؤه لا تمنعُ العمل؛ لأنها مزيدةٌ.

وتعقَّبه ناصرُ الدِّين(٢) بأن فيه نظراً من حيث المعنى، ووُجِّه بأنَّ محصِّلَه على هذا التقدير أنه انتفى عنك الجنونُ وقتَ التباسك بنعمة ربِّك، ولا يُفهم منه انتفاءُ

---

(١) تفسير البيضاوي على هامش حاشية الشهاب ٨/ ٢٢٧.

(٢) تفسير البيضاوي ٨/ ٢٢٧.

مطلقِ الجنون عنه ﷺ، وهل المرادُ إلا هذا؟! وقيل عليه: لا يخفى أنه واردٌ على ما اختاره هو أيضاً، أي: وذلك لأنَّ المعنى حينئذٍ: انتفى عنك ملتبساً بنعمةِ ربِّك الجنونُ، ولا يُفهم منه انتفاؤه عنه عليه الصلاة والسلام في جميع الأوقات، وهو المرادُ.

وأُجيب بأن تلك الحالة لازمةٌ له ﷺ، غيرُ منفكَّةٍ عنه، فنفيُه عنه فيها مستلزمٌ لنفيه عنه دائماً، وسائر الحالات.

وتُعقِّب بأن هذا متأتٍّ على كلا التقديرين، لا اختصاصَ له بأحدهما دون الآخر.

وأنت خبيرٌ بأنه فُرِّقَ بينهما؛ إذ يصيرُ المعنى على تقدير كونِ العاملِ «مجنون» كما أُشير إليه: إنه انتفى عنك الجنونُ الواقعُ عليك حالةَ الالتباس المذكور، وهذا يدلُّ على إمكانِ وقوعه في تلك الحالة، بل على تحقُّقه أيضاً، وهو معنًى لاغٍ إذ كيف يُتصوَّر وجودُ الجنون ووقوعُه وقتَ التباسِهِ ﷺ بالنِّعمة، ومن جملتها الحَصَافة.

ولا يَرِدُ هذا على التقديرِ المختارِ؛ إذ الانتفاءُ المفهومُ حينئذٍ لا يكونُ وارداً على الجنون المقيَّد بما ذُكر، وهو وإنْ كان مقيَّداً فيه أيضاً لا ضيرَ به؛ لكون قيدِهِ لازماً لذات المنفيِّ عنه كما عرفت.

هذا، وقيل: إذا حُمِل الباءُ على السببية واعتُبِرَ الظرفُ لغواً، يظهر عدمُ جواز تعلُّقه بما بعدَه من حيث المعنى:

ظهورَ نارِ القِرَى ليلاً على علمِ(١)

ولهم في الجملةِ الحاليَّةِ والحال إذا وقعت بعد النفي كلامٌ ذكرَهُ الخفاجيُّ، وحقَّقَ أنه حينئذٍ إنما يلزمُ انتفاءُ مقارنةِ الحال لذي الحال، لا نفيُها نفسَها(٢). فتدبَّر ولا تغفل.

---

(١) قوله: ظهور نار... عجز بيت من بردة البوصيري، وصدره كما في القصائد البصيرية:
دعني ووصفيَ آيات له ظهرت

(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٢٢٧.

وجُوِّز كون «بنعمة ربك» قَسَماً متوسِّطاً في الكلام لتأكيده، من غيرِ تقدير جواب، أو يُقدَّر له جوابٌ يدلُّ عليه الكلامُ المذكور، واستظهرَ هذا الوجهَ أبو حيان[١].

والتعرُّضُ لوصفِ الربوبية المنبئةِ عن التبليغ إلى معارجِ الكمال، مع الإضافة إلى ضميرِهِ عليه الصلاةُ والسلام، لتشريفه ﷺ، والإيذانِ بأنه تعالى يُتمُّ نعمتَه عليه، ويبلغه في العلوِّ إلى غايةٍ لا غايةَ وراءها، والمرادُ تنزيهُهُ ﷺ عمَّا كانوا ينسبونه إليه ﷺ من الجنون، حَسَداً وعداوةً ومكابرةً، فحاصلُ الكلام: أنتَ منزَّهٌ عمَّا يقولون.

﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ بمقابلةِ مُقاساتك ألوانَ الشدائدِ من جهتهم، وتحمُّلك أعباءَ الرسالة ﴿لَأَجْرًا﴾ لَثواباً عظيماً لا يُقادَرُ قدرُه. ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾ أي: مقطوعٍ مع عِظَمِه، أو غيرَ ممنونٍ عليك من جهة الناس؛ فإنه عطاؤه تعالى بلا واسطة، أو من جهته تعالى؛ لأنك حبيبُ الله تعالى، وهو عزَّ وجلَّ أكرمُ الأكرمين، ومن شِيْمة الأكارم أن لا يمنُّوا بإنعامهم، لاسيَّما إذا كان على أحبابهم، كما قال:

سأشكرُ عَمراً إن تراخت مَنيَّتي ... أياديَ لم تُمْنَنْ وإن هي جَلَّتِ[٢]

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ لا يدرِكُ شأوَه أحدٌ من الخَلْق، ولذلك تحتمِلُ من جهتهم ما لا يحتمِلُه أمثالُك من أُولي العزم.

وفي حديث مسلم، وأبي داود، والإمام أحمد، والدارميِّ، وابن ماجه، والنسائيِّ، عن سَعْد بن هشام قال: قلتُ لعائشة ﵂: يا أمَّ المؤمنين، أنبئيني عن خُلُق رسول الله ﷺ، قالت: ألستَ تقرأُ القرآن؟ قلت: بلى. قالت: فإنَّ خُلُقَ نبيِّ الله كان القرآن[٣]. وأرادت بذلك ـ على ما قيل ـ أن ما فيه من المكارم كلَّه كان

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٠٧.
(٢) البيت في الحماسة البصرية ١/ ١٣٥، وخزانة الأدب ٢/ ٢٦٥ منسوب لعبد الله بن الزَّبِير الأسدي، قال في الحماسة: وتروى لعمرو بن كميل، وانظر كلام الأستاذ عبد السلام هارون في نسبة البيت في تعليقه على رسائل الجاحظ ١/ ٣٨.
(٣) صحيح مسلم (٧٤٦)، وسنن أبي داود (١٣٤٢)، ومسند الإمام أحمد (٢٤٢٦٩)، ومسند الدارمي (١٥١٦)، وسنن ابن ماجه (٢٣٣٣)، والمجتبى للنسائي ٣/ ١٩٩.

فيه ﷺ، وما فيه من الزَّجر عن سَفْساف الأخلاق كان منزجراً به عليه الصلاة والسلام؛ لأنه المقصودُ بالخطاب بالقَصْد الأول ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢] وربَّما يرجع إلى هذا قولُها، كما في رواية ابن المنذر وغيرِه عن أبي الدرداء أنه سألَها عن خُلُقه عليه الصلاةُ والسلام، فقالت: كان خلقُه القرآن، يرضى لرضاه، ويَسْخَط لسَخَطه[١].

وقال العارفُ بالله تعالى المُرصفي: أرادت بقولها: كان خلُقُه القرآن: تخلُّقَه بأخلاق الله تعالى، لكنها لم تُصرِّح به تأدُّباً منها.

وفي «الكشف» أنه أدمج في هذه الجملة أنه ﷺ متخلِّق بأخلاق الله عزَّ وجل بقوله سبحانه: «عظيم».

وزعم بعضُهم أن في الآية رمزاً إلى أنَّ الأخلاق الحسنةَ مما لا تُجامع الجنونَ، وأنه كلَّما كان الإنسان أحسنَ أخلاقاً كان أبعدَ عن الجنون، ويلزمُ من ذلك أن سوءَ الأخلاق قريبٌ من الجنون.

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾ أي: المجنون؛ كما أخرجه ابنُ جرير عن ابن عباس[٢]، وابنُ المنذر عن ابن جُبير، وعَبْد بنُ حُميد عن مجاهد[٣].

وأُطلق على المجنون لأنه فُتِنَ، أي: مُحِنَ بالجنون، وقيل: لأن العربَ يزعمون أنَّ الجنون من تخييل[٤] الجنِّ، وهم الفتَّان للفُتَّاك منهم، والباءُ مزيدةٌ في المبتدأ، وجوَّز ذلك سيبويه[٥].

---

(١) سلف ٢/ ٣٣٣.

(٢) كذا نقل المصنف عن السيوطي في الدر ٦/ ٢٥١، والذي في تفسير الطبري ٢٣/ ١٥٤ عن ابن عباس هو قوله: بأيكم الجنون. وقال الطبري في توجيهه ٢٣/ ١٥٣: وكأن الذين قالوا هذا القول وجَّهوا «المفتون» إلى معنى الفتنة أو الفُتُون، كما قيل: ليس له معقول ولا معقود رأي، بمعنى: ليس له عقل ولا عقد رأي، فكذلك وضع «المفتون» موضع الفتون. وسيرد القول بأن «المفتون» مصدر بمعنى الجنون قريباً.

(٣) وكذلك أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٥٣.

(٤) في (م): تخبيل.

(٥) الكتاب ١/ ٦٧-٦٨.

أو: الفتنة، فـ «المفتون» مصدرٌ كالمَعْقول والمَجْلود، أي: الجنون؛ كما أخرجه عَبْد بنُ حُميد عن الحسن وأبي الجوزاء[1]، وهو بناء على أنَّ المصدر يكون على وزن المفعول كما جوَّزه بعضُهم، والباءُ عليه للملابسة.

أو: بأيِّ الفريقين منكم الجنونُ، أبفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين، أي: في أيِّهما يوجد مَنْ يستحقُّ هذا الاسم، وهو تعريضٌ بأبي جهل والوليد بن المُغيرة وأضرابهما. والباءُ على هذا بمعنى «في»، وقُدِّر: بأيِّ الفريقين منكم؛ دفعاً لما قيل من أنَّ الخطابَ لرسول الله ﷺ وجماعةِ قريش، ولا يصحُّ أن يُقال لجماعةٍ وواحدٍ: في أيِّكم زيدٌ.

وأُيِّد الاعتراضُ بأنَّ قوله تعالى: «فستبصر ويبصرون» خطابٌ له عليه الصلاة والسلام خاصَّة.

وجوابُ التأييد: أنَّ الخطابَ بظاهره خُصَّ برسول الله ﷺ ليجري الكلامُ على نهجِ السَّوابق ولا يتنافر، لكنَّه ليس كالسوابق في الاختصاص حقيقةً؛ لدخول الأمَّة فيه أيضاً، فيصحُّ تقدير: بأيِّ الفريقين. وادَّعى صاحبُ «الكشف» أن هذا أوجهُ الأوجه؛ لإفادته التعريض، وسلامتِهِ عن استعمال النادر، يعني: زيادةَ الباء في المبتدأ، وكون المصدر على زِنَةِ المفعول، وإليه ذهب الفرَّاءُ[2]، ويُؤيِّده قراءةُ ابن أبي عَبْلة: «في أيكم»[3].

وأيّاً ما كان فالظاهرُ أن «بأيكم المفتون» معمولٌ لما قبلَه على سبيل التنازع، والمراد: فستعلم ويعلمون ذلك يومَ القيامة، حين يتبيَّنُ الحقُّ من الباطل. ورُوي ذلك عن ابن عباس.

وقيل: «فستبصرُ ويبصرون» في الدنيا بظهور عاقبة الأمر بغَلَبة الإسلام، واستيلائك عليهم بالقتل والنَّهب، وصيرورتِكَ مَهيباً معظَّماً في قلوب العالمين،

---

(١) كذا ذكر المصنف، والذي في الدر المنثور ٦/ ٢٥١ عن عبد بن حميد أن الحسن قال: المجنون، وأبا الجوزاء قال: الشيطان.

(٢) معاني القرآن ٣/ ١٧٣.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٠٩.

وكونهم أذلَّةً صاغرين، ويشملُ هذا ما كان يوم بدر. وعن مقاتل: أن ذلك وعيدٌ بعذابِ يوم بدر.

وقال أبو عثمان المازنيُّ: إنَّ الكلام قد تمَّ عند قوله تعالى: «ويبصرون»، ثم استأنَفَ قولَه سبحانه: «بأيكم المفتون» على أنه استفهامٌ يُراد به التَّردادُ بين أمرين معلومٌ نفيُ الحكم عن أحدهما، وتعيُّنُ وجودِهِ للآخر. وهو كما ترى.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾ استئنافٌ لبيان ما قبلَه، وتأكيدٌ لما تضمَّنه من الوعد والوعيد، أي: هو سبحانه أعلمُ بمَنْ ضلَّ عن سبيله المؤدِّي إلى سعادة الدارين، وهامَ في تيهِ الضلال متوجِّهاً إلى ما يقتضيه من الشقاوة الأبدية، ومَزِيد النَّكال، وهذا هو المجنونُ الذي لا يُفرِّقُ بين النفع والضرِّ، بل يحسِبُ الضرر نفعاً فيُؤْثره، والنفعَ ضرراً فيهجُره، وهو عزَّ وجلَّ أعلمُ بالمهتدين إلى سبيله، الفائزين بكلِّ مطلوبٍ، الناجين عن كلِّ محذورٍ، وهم العقلاءُ المراجيح، فيَجْزي كُلًّا من الفريقين حسبما يستحقُّه من العقاب والثواب.

وفي «الكشاف»(١): إنَّ ربك هو أعلم بالمجانين على الحقيقة، وهم الذين ضلُّوا عن سبيله، وهو أعلمُ بالعقلاء وهم المهتدون، أو يكونُ وعيداً ووعداً، وأنه سبحانه أعلمُ بجزاء الفريقين.

قال في «الكشف»: هو على الأول تذييلٌ مؤكِّد لِمَا رمز إليه في السابق من أنَّ المفتون: مَن قَرَفَك به، جارٍ على أسلوب المؤكد في عدم التصريح، ولكن على وجه أوضح؛ فإن قوله تعالى: «بأيكم المفتون» لا تعيين فيه بوجهٍ، وهذا بدل: هو أعلمُ بالمجنون وبالعاقل، يدلُّ على أن المجنون بهذا الاعتبار، لا بما توهَّموه، فأثبت لهم صرفَ الضلال في عينِ هذا الزَّعم. وعلى الثاني: هو تذييلٌ أيضاً، ولكن على سبيل التصريح؛ لأنَّ «بمن ضل» أُقيم مقامَ بهم، و«بالمهتدين» أُقيم مقامَ بكم.

ولعلَّ ما اعتبرناه أملأُ بالفائدة، وكأنَّ تقديم الوعيدِ ليتَّصلَ بما أشعر به أولاً،

---

(١) ٤/ ١٤٢.

والتعبير في جانب الضلال بالفعل للإيماء بأنه خلافُ ما تقتضيه الفِطْرة، وزيادة «هو أعلم» لزيادة التقرير، مع الإيذان باختلاف الجزاء.

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾ لترتيب النهي على ما يُنبئُ عنه ما قبلَه من اهتدائه ﷺ وضلالهم، أو على جميع ما فصّل من أول السورة، وهذا تهييجٌ وإلهابٌ للتصميم على معاصاتهم، أي: دُمْ على ما أنتَ عليه من عدم طاعتهم، وتصلَّبْ في ذلك.

وجُوِّز أن يكون نهياً عن مداهنتهم ومداراتهم بإظهار خلافِ ما في ضميره ﷺ استجلاباً لقلوبهم، لا عن طاعتهم حقيقةً، ويُنبئُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ﴾ لأنه تعليلٌ للنهي، أو للانتهاء، وإنما عبَّر عنها بالطاعة للمبالغة في التنفير، أي: أَحَبُّوا لو تُلاينُهم وتُسامحهم في بعض الأمور ﴿فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ أي: فهم يدهنون حينئذٍ، أو: فهم الآن يدهنون طمعاً في إدهانك، فالفاءُ للسببية داخلةٌ على جملة مسبَّبة عمَّا قبلها، وقُدِّر المبتدأ لمكان رفع الفعل.

والفرق بين الوجهين: أنَّ المعنى على [الأول][1] أنهم تمنَّوا لو تُدهن، فتترتَّب مداهنتُهم على مداهنتك، ففيه ترتُّبُ إحدى المُداهنتين على الأخرى في الخارج، و«لو» فيه غيرُ مصدرية، وعلى الثاني هي مصدريةٌ، والترتُّبُ ذهنيٌّ على وَدَادتهم وتمنِّيهم.

وجُوِّز أن تكون الفاءُ لعطف «يدهنون» على «تدهن»، على أنه داخلٌ معه في حيِّز «لو» مُتَمَنَّى مثلُه، والمعنى: ودُّوا لو يدهنون عَقِيب إدهانك. وما تقدَّم أبعدُ عن القيل والقال.

وأيَّاما كان فالمعتبَرُ في جانبهم حقيقةُ الإدهان الذي هو إظهارُ المُلاينة، وإضمارُ خلافها، وأما في جانبه عليه الصلاة والسلام فالمعتبرُ بالنسبة إلى وَدَادتهم هو إظهارُ المُلاينة فقط، وأمَّا إضمارُ خلافها فليس في حيِّز الاعتبار، بل هم في غاية الكراهة له، وإنما اعتبارُه بالنسبة إليه عليه الصلاة والسلام.

(١) قوله: الأول، ساقط من (م).

وفي بعض المصاحف ـ كما قال هارون ـ: «فيدهنوا» بدون نون الرفع[1]. فقيل: هو منصوبٌ في جواب التمنِّي المفهومِ من «ودُّوا»، وقيل: إنه عطفٌ على «تدهن»، بناءً على أن «لو» بمنزلة «أنْ» الناصبة، فلا يكونُ لها جوابٌ، وينسَبِكُ منها وممَّا بعدها مصدرٌ يقع مفعولاً لـ «ودُّوا»، كأنه قيل: ودُّوا أن تُدهن فيدهنوا، ولعلَّ هذا مرادُ من قال: إنه عطفٌ على توهُّم «أنْ».

وجمهورُ النُّحاة على أنَّ «لو» على حقيقتها، وجوابها محذوفٌ، وكذا مفعولُ «ودُّوا»، أي: ودُّوا إدْهانَكَ، لو تُدْهن فيُدهنون لسُرُّوا بذلك.

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ كثيرِ الحلف في الحقِّ والباطل. وكفى بهذا مزجرةً لمن اعتادَ الحلف؛ لأنه جُعل فاتحة المَثالب، وأساسَ الباقي، وهو يدلُّ على عدم استشعار عظمةِ الله عزَّ وجلَّ، وهو أُمُّ كلِّ شرٍّ عقداً وعملاً. وذكر بعضُهم أن كثرةَ الحلف مذمومةٌ ولو في الحقِّ؛ لما فيها من الجُرأة على اسمه جلَّ شأنُه.

وهذا النهيُ للتهييج والإلهاب أيضاً، أي: دُمْ على ما أنتَ عليه من عدم طاعة كلِّ حلَّافٍ ﴿مَّهِينٍ ۝١٠﴾ حقيرِ الرأي والتدبير. وقال الرُّمَّانيُّ: المهينُ: الوضيعُ؛ لإكثاره من القبيح، من المَهانة وهي القلَّة. وأخرج ابنُ المنذر وعَبْد بنُ حُميد عن قتادة أنه قال: هو المِكْثارُ في الشرِّ[2]. وأخرج ابنُ جريرٍ وغيرُه عن ابن عباس أنه الكذَّاب[3].

﴿هَمَّازٍ﴾ عيَّاب طعَّان. قال أبو حيان[4]: هو من الهَمْز، وأصلُه في اللغة: الضَّرْب طعناً باليد، أو بالعصا ونحوِها، ثم استُعير للذي يَنال بلسانه. قال مُنْذِر بنُ سعيد: وبعينه وإشارته.

﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾ نقَّال للحديث من قومٍ إلى قوم على وجهِ الإفساد بينهم؛ فإنَّ

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٠٩. وهارون: هو ابن موسى الأزدي العتكي، روى عن أبي عمرو بن العلاء، وعنه شعبة، توفي قبل المئتين. طبقات القراء ٢/ ٣٤٨، وتهذيب التهذيب.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٥١-٢٥٢.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٥٣، وتفسير الطبري ٢٣/ ١٥٨.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٠٥.

النميمَ والنميمةَ مصدران بمعنى السّعاية والإفساد. وقيل: النميمُ جمعُ نميمة، يريدون به الجنس، وأصلُ النميمة: الهمسُ والحركةُ الخفيفة، ومنه: أسكَتَ الله تعالى نامَّتَه، أي: ما ينمُّ عليه من حركته.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي: بخيل مُمْسكٍ، مِن منَعَ معروفه عنه: إذا أمسَكَه، فاللامُ للتقوية، و«الخير» ـ على ما قيل ـ المالُ، أو منَّاع الناس الخير: وهو الإسلام، من منعتُ زيداً من الكفر: إذا حملتَه على الكفِّ، فذَكَر الممنوعَ منه، كأنه قيل: منَّاع من الخير، دون الممنوع، وهو الناس، عكس الوجه الأول، والتعميمُ هنالك، وعدمُ ذِكْر الممنوع منه أوقعُ.

﴿مُعْتَدٍ﴾ مجاوزٍ في الظلم حدَّه.

﴿أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ كثيرِ الآثام: وهي الأفعالُ المبطئةُ عن الثواب، والمرادُ بها المعاصي والذنوب.

﴿عُتُلٍّ﴾ قال ابنُ عباس: الشديدُ الفاتكُ، وقال الكلبيُّ: الشديد الخُصومة بالباطل، وقال مَعْمَر وقتادة: الفاحشُ اللئيم، وقيل: هو الذي يَعْتُل الناس، أي: يجرُّهم إلى حبسٍ أو عذاب بعنفٍ وغِلْظة. ويقال: عتَنَه بالنون، كما يقال: عتَلَه باللام، كما قال ابنُ السِّكِّيت. وقرأ الحسن: «عتلٌّ» بالرفع على الذمِّ(١).

﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكور من مَثَالبه وقبائحه، و«بعد» هنا كـ «ثمَّ» الدالَّةِ على التفاوت الرُّتبيِّ، فتدلُّ على أنَّ ما بعدُ أعظمُ في القَباحة.

وفي «الكشف»: أشعر كلامُ الزمخشريِّ أنه متعلِّقٌ بـ «عتل» فلزِمَ تبايُنُه من الصفات السابقة، وتبايُنُ ما بعدَه أيضاً، لأنه في سِلْكه(٢).

﴿زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ دَعِيٍّ، مُلْحَقٍ بقومٍ ليس منهم كما قال ابنُ عباس، والمراد به ولدُ الزِّنى كما جاء بهذا اللفظ عنه رضي الله عنه، وأنشد لحسان:

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٩، والبحر المحيط ٨/ ٣١٠.
(٢) انظر الكشاف ٤/ ١٤٢-١٤٣.

زنـيــمٌ تــداعَــتْــه الــرجــالُ زيــادةً كما زِيْدَ في عَرْض الأديمِ الأكارعُ[١]

وكذا جاء عن عكرمة، وأنشد:

زنـيــمٌ لــيــس يُــعــرف مَــنْ أبــوه بَــغِــيُّ الأمِّ ذو حَــسَــبٍ لــئــيــمِ[٢]

من الزَّنَمَة بفتحات: وهي ما يتدلَّى من الجلد في حَلْق المعز، والفَلْقةُ من أذنه تُشَقُّ فتُترك معلَّقةً، وإنما كان هذا أشدَّ المَعَايب لأن الغالب أنَّ النطفة إذا خبثت خبث الناشئُ منها، ومن ثَمَّ قال ﷺ: «فَرْخُ الزنى - أي: ولدُه - لا يدخل الجنة»[٣]، فهو محمولٌ على الغالب؛ فإنه في الغالب لِخَباثة نطفته يكون خبيثاً لا خيرَ فيه أصلاً، فلا يعمل عملاً يدخل به الجنة. وقال بعض الأجلَّة: هذا خارجٌ مخرَجَ التهديد والتعريض بالزاني، وحُمِلَ على أنه لا يدخل الجنةَ مع السابقين؛ لحديث الدارِميِّ عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «لا يدخل الجنةَ عاقٌّ، ولا ولدُ زَنْيةٍ، ولا منَّانٌ، ولا مدمنُ خمرٍ»[٤]؛ فإنه سُلِكَ في قرن العاقِّ والمنَّان ومدمن الخمرِ، ولا ارتيابَ أنهم عند أهل السُّنة ليسوا من زمرةِ مَنْ لا يدخل الجنة أبداً. وقيل: المرادُ أنه لا يدخلُ الجنةَ بعملِ أبويه إذا ماتَ صغيراً، بل يدخُلُها بمحضِ فضلِ الله تعالى ورحمته سبحانه، كأطفال الكفار عند الجمهور.

وروى ابنُ جُبير عن ابن عباس أن الزَّنيم هو الذي يُعرف بالشرِّ كما تُعرف الشاةُ بالزَّنمة. وفي رواية ابن أبي حاتم عنه: هو الرجل يمرُّ على القوم فيقولون: رجل سوْء[٥]. والمآلُ واحد. وعنه أيضاً أنه المعروف بالأُبْنَة، ولا يخفى أنَّ المأبون

---

(١) البيت ليس في ديوان حسان، وقد نسبه له المبرد في الكامل ٣/ ١١٤٦، والزمخشري في الكشاف ٤/ ١٢٤. والخبر أخرجه عن ابن عباس الطستيُّ كما في الدر المنثور ٦/ ٢٥٢، والسيوطي في الإتقان ١/ ٣٩٤، وورد البيت فيهما دون نسبة.

(٢) البيت في تفسير الطبري ٢٣/ ١٦٤، وتفسير القرطبي ٢١/ ١٥٤.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ١٢٨٦، وابن الجوزي في الموضوعات (١٤٣٧) وقال: فيه مَن لا يعرف.

(٤) مسند الدارمي (٢١٣٨)، وأخرجه كذلك أحمد (٦٨٩٢)، وإسناده ضعيف، إلا أن له شواهد تصححه دون قوله: «ولا ولد زينة»، وينظر الكلام عليه في حاشية المسند.

(٥) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٥٣.

معدنُ الشرور، بل مَنْ لم يصل في ذلك الأمر الشنيع إلى تلك المرتبة كذلك في الأغلب، ولا حاجة إلى كثرةِ الاستشهاد في هذا الباب، وفي قول الشاعر الاكتفاءُ، وهو:

وَلَكَمْ بذلتُ لك المودَّةَ ناصحاً فغدوتَ تسلُكُ في الطريق الأعوجِ
ولكم رجوتُكَ للجميل وفِعْلِهِ يوماً فناداني النُّهى لا تَرْتَجِ

وأخرج ابنُ جرير وابن مَرْدويه عنه أنه قال: نزل على النبيِّ ﷺ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ إلخ، فلم يُعرف حتى نزل عليه ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾ فعرفناه، له زَنَمةٌ في عنقه كزَنَمة الشاة[1].

واستُشكل هذا بأنَّ الزَّنيم عليه ليس صفةَ ذمٍّ، فضلاً عن كونه أعظمَ فيه من الصفات التي قبل ذلك على ما يُفيده «بعد ذلك»، ولا يكاد يَحسُنُ تعليلُ النهي به.

على أنَّ من المعلوم أَنْ ليس المرادُ بالموصوف بهذه الصفات شخصاً بعينه؛ لمكان «كلّ»، ويُحمل ما جاء في الروايات من أنه الوليد بنُ المغيرة المخزوميُّ[2]، وكان دَعِيّاً في قريش، ليس من سِنْخِهم[3]، ادَّعاه أبوه بعد ثماني عشرة من مولده، أو الحَكَم طريدُ رسولِ الله ﷺ، أو الأخنسُ بنُ شَريق، وكان أصلُه من ثقيف وعِدادُه في زُهْرة، أو الأسود بنُ عبد يغُوث، أو أبو جهل = على بيانِ سبب النزول.

وقيل في ذلك: إن المرادَ ذَمُّه بقبح الخَلْق بعد ذَمِّه بما تقدَّم. وهو كما ترى، فتأمَّل فلعلَّك تظفَرُ بما يُريح البال، ويُزيح الإشكال.

وقوله تعالى ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤﴾ بتقدير لام التعليل، متعلِّقٌ بقوله سبحانه: «لا تطع»، أي: لا تطع مَنْ هذه مَثالبُه؛ لأَنْ كان متموّلاً متقوّياً بالبنين.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٥٢، وتفسير الطبري ٢٣/ ١٦٦.

(٢) جاء في هامش الأصل ما نصه: كان موسراً، له عشرة بنين، وكان يقول: من أسلم منكم منعته رفدي. اهـ منه وعزاه الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٤٢ لابن عباس.

(٣) السِّنْخ: الأصل. القاموس: (سنخ). وجاء في هامش الأصل ما نصه: قال مجاهد: كان له في كلِّ يد إبهام زائدة. اهـ منه.

وقولُه سبحانه: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ استئنافٌ جارٍ مجرى التعليل للنهي، وجُوِّز أن يكون لـ «أنْ» متعلّقاً بنحو: كذَّبَ، ويدلُّ عليه الجملةُ الشرطية، ويُقدَّر مقدَّماً؛ دفعاً لتوهُّم الحصر؛ كأنه قيل: كذَّب لأنْ كان. . إلخ، والمرادُ أنه بَطِرَ نعمة الله تعالى، ولم يَعْرِفْ حقَّها، ولم يُجَوِّز تعلُّقُه بـ «قال» المذكور بعدُ؛ لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبلَه، ولعلَّ من يقول باطِّراد التوسُّع في الظرف يُجوِّز ذلك، وكذا من يجعل «إذا» هنا ظرفيةً.

وقال أبو عليٍّ الفارسيُّ: يجوز تعلُّقه بـ «عتلٍّ»، وإن كان قد وُصف. وتعقَّبه أبو حيان[1] بأنه قولٌ كوفي، ولا يجوز ذلك عند البصريين.

وقيل: متعلِّق بـ «زنيم»، ويحسُن ذلك إذا فُسِّر بقبيح الأفعال.

وقرأ الحسن، وابنُ أبي إسحاق، وأبو جعفر، وأبو بكر، وحمزة، وابنُ عامر: «أأن كان» على الاستفهام، وحقَّق الهمزتين حمزةُ، وسهَّل الثانية باقيهم على ما في «البحر»[2]. وقال بعضٌ: قرأ أبو بكر وحمزةُ بهمزتين، وابنُ عامر بهمزة ومدَّة. والمعنى: أكذَّب بها لأنْ كان ذا مال، أو: أتطيعه لأنْ كان. . إلخ.

وقرأ نافعٌ في رواية اليزيديِّ عنه: «إن كان» بالكسر[3] على أنَّ شرطَ الغنى في النهي عن الطاعة كالتعليل بالفقر في النهي عن قتل الأولاد[4]؛ لأن[5] النهي في غير ذلك يُعلم بالطريق الأَولى، فيثبُتُ بدلالة النصِّ، والشرط والعلَّة في مثله ممَّا

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣١٠.

(٢) ٨/ ٣١٠، وكذلك حقَّق الهمزتين أبو بكر ويعقوب في رواية روح، وفصل بينهما بألف مع تسهيل الثانية أبو جعفر وهشام (راوية ابن عامر)، وبالتسهيل من غير فصل قرأ رويس وابن ذكوان. ينظر التيسير ص٢١٣، والنشر ١/ ٣٦٧، والبدور الزاهرة ص٣٢٥.

(٣) القراءات الشاذة ص١٥٩، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٨/ ٢٢٩.

(٤) يعني أن شرط الغنى في النهي عن الطاعة ليس لتقييد النهي به كما أن النهي عن الوأد في قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] غير مقيد بذلك. حاشية الشهاب ٨/ ٢٢٩، والكلام منه.

(٥) في الأصل و(م): بمعنى، بدل: لأن، والمثبت من حاشية الشهاب.

لا مفهوم له. أو على أنَّ الشرط للمخاطب، وحاصلُ المعنى: لا تطع كلَّ حلافٍ. . إلخ شارطاً يَسَارَه[١]؛ لأنَّ إطاعةَ الكافر لغناه بمنزلة اشتراط غناه في الطاعة، وفيه تنزيلُ المخاطب منزلةَ مَنْ شَرَطَ ذلك وحقَّقه؛ زيادةً للإلهاب والثبات، وتعريضاً بمن يحسِبُ الغنى مكرمةً.

والظاهر أن الجملة الشرطيةَ بعدُ استئناف، وقيل: هذا مما اجتمع فيه شرطان، وليسا من الشروط المترتِّبة الوقوع، فالمتأخِّرُ لفظاً هو المتقدِّم، والمتقدِّم لفظاً هو شرطٌ في الثاني، فهو كقوله:

فإن عثرتُ بعدَها إنْ وأَلَتْ نفسي مِنْ هاتا فقولا لا لَعَا[٢]

وقرأ الحسن: «أئذا»[٣] على الاستفهام، وهو استفهامُ تقريعٍ وتوبيخٍ على قوله: أساطير الأولين.

﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ سنجعل له سِمَةً وعلامةً ﴿عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ أي: على الأنف، وهو من بابِ إطلاق مشفر على شفةٍ غليظة لإنسان؛ كما سنشير إليه إن شاء الله تعالى، وعبَّر بذلك عن غاية الإذلال؛ لأن السِّمة على الوجه شَيْنٌ، حتى إنه ﷺ نهى عنه في الحيوانات، ولعن فاعلَه[٤]، فكيف على أكرمِ موضعٍ منه وهو الأنف؛ لتقدُّمه.

وقد قيل: الجمال في الأنف، وعليه قولُ بعض الأدباء:

وحسنُ الفتى في الأنف والأنفُ عاطل فكيف إذا ما الخالُ كان له حَلْيا[٥]

وجعلوه مكان العزَّة والحميَّة، واشتقوا منه الأنَفَة، وقالوا: الأنف في الأنف،

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: فلا يرد أن الجملة الشرطية لا تقع حالاً. اهـ منه.
(٢) البيت لابن دريد، وهو في مقصورته بشرح ابن هشام اللخمي ص١٦٧. وقوله: وألت: أي: نجت وخلصت، وهاتا بمعنى هذه، ولعاً كلمة تقال عند العثرة، أو يدعى بها للعاثر، ومعناها الانجبار والارتفاع، و: لا لعاً، نفي للدعاء.
(٣) القراءات الشاذة لابن خالويه ص١٥٩-١٦٠، والبحر ٨/ ٣١١.
(٤) سلف ٤/ ٣١٤.
(٥) البحر ٨/ ٣١١.

وحمى أنفَه، وفلانٌ شامخُ العِرْنِين[١]، وقالوا في الذليل: جدع أنفه، ورَغِم أنفُه، ومنه قولُ جرير:

لمَّا وضعتُ على الفرزدق مِيْسَمي وعلى البَعيثِ جَدَعتُ أنفَ الأخطل[٢]

وفي لفظ «الخرطوم» استهانةٌ؛ لأنه لا يُستعمل إلا في الفيل والخنزير، ففي التعبير عن الأنف بهذا الاسم ترشيحٌ لِمَا دلَّ عليه الوَسْمُ على العضو المخصوص من الإذلال، والمرادُ: سنهينُه في الدنيا ونذلُّه غايةَ الإذلال.

وكونُ الوعيد المذكور في الدنيا هو المرويُّ عن قتادة، وذهب إليه جمعٌ، إلا أنهم قالوا: المعنى: سنفعل به في الدنيا من الذمِّ، والمَقْتِ، والاشتهار بالشرِّ، ما يبقى فيه ولا يخفى، فيكونُ ذلك كالوسم على الأنف ثابتاً بيِّناً، كما تقول: سأطوِّقُكَ طوقَ الحمامة، أي: أُثبتُ لك الأمر بيِّناً فيك، وزاد ذلك حُسْناً ذِكْر الخرطوم. انتهى. وبينه وبين ما تقدَّم فرقٌ لا يخفى.

وقال بعضٌ: هو في الآخرة، ومن القائلين بأنَّ هذا وعيدٌ بأمرٍ يكونُ فيها مَنْ قال: هو تعذيبٌ بنار على أنفه في جهنَّم، وحُكي ذلك عن المبرّد. وقال آخرون منهم: يُوسَمُ يوم القيامة على أنفه بِسِمَة يُعرف بها كفرُه وانحطاطُ قدرِه.

وقال أبو العالية ومُقاتل ـ واختاره الفرَّاء[٣] ـ: المراد: يُسوَّد وجهُهُ يوم القيامة قبل دخول النار، وذُكر «الخرطوم» ـ والمرادُ الوجه ـ مجازاً.

ومن القائلين بأنه يكون في الدنيا مَنْ قال: هو وعيدٌ بما أصابَه يومَ بدرٍ؛ فإنه خُطم فيه بالسيف، فبقيت سِمَة على خرطومه، ورُوي هذا عن ابن عباس. والمعروفُ في كتب السِّيَر والأحاديث أنَّ أبا جهلٍ قُتل يوم بدر، والباقين ما عدا

---

(١) العرنين: أول الأنف حيث يكون الشمم، وهو تحت مجتمع الحاجبين. مختار الصحاح: (عرن).

(٢) البيت في ديوان جرير ٢/ ٩٤٠ بشرح ابن حبيب، وروايته: وضغا البعيث. والبعيث: هو خداش بن بشر الشاعر، نشب الهجاء بينه وبين جرير والفرزدق، وسقط البعيث. خزانة الأدب ٢/ ١٨٨ و٢٧٩.

(٣) معاني القرآن ٣/ ١٧٤.

الحَكَم ماتوا قبلَه، فلم يُسَم أحدٌ منهم بذلك الوَسْم، وكذا الحَكَم لم يُعلم أنه وُسِمَ بذلك، وإن كان لم يمت قبل.

وعن النضر بن شُمَيل أن الخرطوم الخمر، وأنشد:

تظلُّ يومَكَ في لهوٍ وفي لعبٍ وأنتَ بالليل شَرَّابُ الخَراطيم[1]

وأن المعنى: سَنَحُدُّه على شُرْبها. وتُعقِّب بأنه تنفيه الرواية بأنَّ أولئك الكَفَرةَ هَلَكوا قبل تحريم الخمر ما عدا الحَكَم، وهو لم يثبت أنه حُدَّ، على أنهم لم يكونوا ملتزمي الأحكام، والدرايةُ أيضاً؛ لتعقيد اللفظ، وفواتِ فخامة المعنى.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ أي: أصبنا أهلَ مكة ببليَّةٍ، وهي القحطُ، بدعوة رسول الله ﷺ، وقولِه: «اللهمَّ اشدُدْ وطأتَكَ على مُضَر، واجعلها عليهم سنين كسِني يوسف»[2].

﴿كَمَا بَلَوْنَآ﴾ أي: مثل ما بلونا، فالكافُ في محلِّ نصبِ صفةِ مصدرٍ مقدَّرٍ، و«ما» مصدريةٌ، وقيل: بمعنى «الذي»، أي: كالبلاء الذي بلوناه ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ المعروفِ خيرُها عندهم، كانت بأرض اليمن بالقرب منهم، قريباً من صنعاء، لرجلٍ كان يؤدِّي حقَّ الله تعالى منها، فمات، فصارت إلى ولده، فمنعوا الناسَ خيرَها، وبخلوا بحقِّ الله تعالى منها، فكان ما ذَكَره الله تعالى، وكانت ـ على ما أخرج ابنُ المنذر وغيرُه عن ابن جُبير ـ بأرضٍ في اليمن يقال لها: ضَرَوان[3]، بينها وبين صنعاء ستَّةُ أميال.

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن ابن عباس: هم ناسٌ من الحبشة، كانت لأبيهم جنَّةٌ، وكان يُطعم منها المساكين، فمات، فقال بنوه: إنْ كان أبونا لَأحمق حين يُطعم المساكين، فأقسموا على أن لا يُطعموا منها مسكيناً[4].

---

(١) البيت للأعرج المَعْنيّ كما في البحر ٨/ ٣٠٥، وأورده القرطبي ٢١/ ١٥٩ من غير نسبة.
(٢) سلف ١٨/ ١٠٨.
(٣) في الأصل و(م): صوران، والمثبت من الدر المنثور ٦/ ٢٥٣، وتفسير عبد الرزاق ٢/ ٣٠٩، وتفسير الطبري ٢٣/ ١٧٥، والخراج ليحيى بن آدم (٤٢٦)، وينظر معجم البلدان ٣/ ٤٥٦، ومعجم ما استعجم ٣/ ٨٥٩.
(٤) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٥٣.

وأخرج عَبْد بنُ حُميد عن قتادة أنه قال: كانت لشيخٍ من بني إسرائيل، وكان يُمسك قوتَ سَنَته ويتصدَّق بالفضل، وكان بنوه ينهونَه عن الصدقة، فلما مات أقسموا على منع المساكين[1].

وفي رواية: أنها كانت لرجلٍ صالحٍ على فَرْسَخَين من صنعاء، وكان يترك للمساكين ما أخطأه المِنْجَل، وما في أسفل الأكداس، وما أخطأه القِطاف من العنب، وما بقي على البِساط تحت النخلة إذا صُرِمت، فكان يجتمعُ لهم شيء كثيرٌ، فلما مات قال بنوه: إنْ فعلنا ما كان يفعلُ أبونا ضاقَ علينا الأمر، ونحن أُولو عِيال، فحلفوا لَيَصْرِمُنَّها وقتَ الصباح خفيةً عن المساكين، كما قال عزَّ وجل.

﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ معمول لـ «بَلَونا»: ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ ليقطعُنَّ من ثمارها بعد استوائها ﴿مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ داخلين في الصباح. وهذا حكايةٌ لقَسَمهم لا على منطوقهم، وإلا لقيل: لنصرمُنَّها، بنون المتكلِّمين، وكلا الأمرين جائزٌ في مثله.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ قيل: أي: ولا يقولون: إن شاء الله تعالى، وتسميتُه استثناءً مع أنه شرطٌ من حيث إن مؤدَّاه مؤدَّى الاستثناء؛ فإنَّ قولك: لأخرجنَّ إن شاء الله تعالى، و: لا أخرجُ إلا أَنْ يشاء الله تعالى، بمعنى واحدٍ.

وقال الإمام[2]: أصلُ الاستثناء من الثَّني: وهو الكفُّ والردُّ، وفي التقييد بالشرط ردٌّ لانعقاد ذلك اليمين، فإطلاقُه عليه حقيقة.

وقيل: أي: ولا ينثنون عمَّا همُّوا به من منع المساكين.

والظاهر على القولين عطفُه على «أقسموا»، فمقتضى الظاهر: وما استثَنوا، وكأنه إنمَّا عدَلَ عنه إليه استحضاراً للصورة؛ لما فيها من نوع غرابةٍ؛ لأن اللائقَ في الحلف على ما يلزمُ منه تركُ طاعة الاستثناءُ.

وفي «الكشف»: هو حالٌ، أي: غيرَ مستثنين، وفي العُدول إلى المضارع نوعُ تعييرٍ وتنبيهٍ على مكان خطئهم، وفيه رمزٌ إلى ما ذكرنا.

---

(١) الدر ٦/٢٥٣، وأخرجه عبد الرزاق ٢/٣٠٩.

(٢) تفسير الرازي ٣٠/٨٨.

وقيل: المعنى: ولا يستثنون حصَّة المساكين كما كان يُخرِج أبوهم. وعليه هو معطوفٌ على قوله تعالى: «ليصرمُنَّها»، ومُقْسَمٌ عليه، أو على قوله سبحانه: «مصبحين» الحال، وهو معنًى لا غبارَ عليه.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾ أي: أحاطَ نازلاً على الجنة ﴿طَآئِفٌ﴾ أي: بلاءٌ محيطٌ، فهو صفةٌ لمحذوفٍ، وقولُ قتادة: «طائف» أي: عذابٌ، بيانٌ لحاصل المعنى، ونحوُه قولُ ابن عباس أي: أمرٌ، وعن الفرَّاء[1] تخصيصُ الطائف بالأمر الذي يأتي بالليل، وكان ذلك ـ على ما قال ابن جُرَيج ـ عُنقاً من نار خرج من وادي جنَّتهم[2].

وقيل: الطائفُ هو جبريل عليه السلام، اقتلَعَها وطاف بها حول البلد، ثم وضعَها قربَ مكة حيث مدينة الطائف اليوم، ولذلك سُمِّيت بالطائف، وليس في أرض الحجاز بلدةٌ فيها الماءُ والشجر والأعناب غيرُها. ولا يصحُّ هذا عندي، كالقول بأن الطائف المدينةَ المذكورةَ كانت بالشام، فنقَلَها الله تعالى إلى الحجاز بدعوةِ إبراهيم عليه السلام، وكذا القول بأنها طافت على الماء في الطّوفان. ولو قيل: كلُّ ذلك على ظاهره حديثُ خُرافة، لا يعدُّ حديثَ خُرافة.

وقرأ النخَعيُّ: «طيف»[3].

﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ مبتدئٌ من جهته عزَّ وجلَّ ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾ في موضع الحال، والمراد: أتاها ليلاً، كما روي عن قتادة. وقيل: المراد: وهم غافلون غفلةً تامَّة عمَّا جرت به المقاديرُ. والأولُ أظهر من جهة السِّباق واللحاق.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ كالبستان الذي صُرمت ثمارُه بحيث لم يبقَ فيها شيء، ففعيل بمعنى مفعول. وقال ابنُ عباس: كالرَّماد الأسود، وهو بهذا المعنى لغةُ خُزَيمة. وعنه أيضاً: «الصريم» رَمْلةٌ باليمن معروفةٌ لا تنبت شيئاً. وقال مُؤَرِّج:

---

(١) معاني القرآن ٣/ ١٧٥.
(٢) أورد كلام ابن جريج القرطبي في تفسيره ٢١/ ١٦٣، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٥٣، وجاء فيهما: من وادي جهنم. وقوله: عنقاً من نار، أي: قطعة من نار. اللسان: (عنق).
(٣) القراءات الشاذة ص١٦٠، والبحر المحيط ٨/ ٣١٢.

كالرملة انصرَمَتْ من معظم الرَّمل وهي لا تنبت شيئاً ينفع[١].

وقال منذرٌ والفرَّاء وجماعةٌ: «الصريم»: الليل، والمراد: أصبحت محترقةً تُشبه الليلَ في السواد. وقال الثوريُّ: كالصبح من حيث ابيضَّت كالزَّرع المحصود. وقال بعضهم: يُسمَّى كلٌّ من الليل والنهار صريماً؛ لانصرام كلٍّ عن صاحبه، وانقطاعه عنه.

﴿فَتَنَادَوْا﴾ نادى بعضُهم بعضاً ﴿مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ لقَسَمهم السابق: ﴿أَنِ اغْدُوا﴾ أي: أي اخرجوا، على أنَّ «أنْ» تفسيرية، و«اغدوا» بمعنى اخرجوا، أو: بأن اغدوا، على أنَّ «أنْ» مصدرية، وقبلها حرفُ جرٍّ مقدَّر، وهي يجوز أن تُوصَلَ بالأمر على الأصحِّ.

﴿عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ أي: بستانكم ﴿إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: قاصدين للصَّرْم وقطعِ الثمار فاغدوا. وقيل: يحتمل أن يكون المراد: إن كنتم أهلَ عزمٍ وإقدام على رأيكم، من قولهم: سيفٌ صارمٌ. وليس بذاك.

وظاهرُ كلام جارِ الله[٢] أنَّ غدا بمعنى بكَّر، يتعدَّى بـ «إلى»، وعُدِّي هاهنا بـ «على»؛ لتضمين الغدوِّ معنى الإقبال، كما في قولهم: يُغدى عليه بالجَفْنة ويُراح، أي: فأَقْبِلوا على حرثكم باكرين.

ويجوز أن يكون من غدا عليه: إذا غار، بأن يكون قد شبّه غدوّهم لقطع الثمار بغدوِّ الجيش على شيء؛ لأن معنى الاستعلاء والاستيلاء موجودٌ فيه، وهو الصَّرْمُ والقَطْع، ويكون هناك استعارة تبعية، وجوِّز أن تعتبر الاستعارةُ تمثيلية، وقال أبو حيان[٣]: الذي في حفظي أن غدا يتعدَّى بـ «على»، كما في قوله:

وقد أغدو على ثُبَةٍ كرامٍ نَشاوَى واجِدِين لما نَشاءُ[٤]

---

(١) أورده عن مؤرج القرطبي ٢١/ ١٦٥، وأبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٣١٢، وفي كتاب التفسير من صحيح البخاري: «الصريم» كل رملة انصرمت من معظم الرمل.

(٢) الكشاف ٤/ ١٤٤.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣١٢.

(٤) البيت لزهير، وهو في ديوانه ص٧٢.
والثبة: الجماعة من الناس، ونشاوى، أي: سكارى. اللسان: (ثوب) و(نشا).

وكذا: بَكَرَ، مرادفُه، كما في قوله:

بَكَرتُ عليهم غُدوةً فرأيتُه قُعوداً لديه بالصَّريم عَواذِلُه[١]

﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: يتشاورون فيما بينهم بطريقِ المُخافَتَة، وخَفَى بفتح الفاء، وخَفَتَ، وخَفَدَ، ثلاثتُها في معنى الكتم، ومنه الخُفْدُود للخفاش، والخَفُود للناقة التي تُلقي ولدَها قبل أن يستبين خَلْقُه.

﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ﴾ أي: الجنة ﴿عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾ «أن» مفسِّرةٌ لما في التخافت من معنى القول، أو مصدريةٌ، والتقدير: بأنْ، ويؤيِّد الأولَ قراءةُ عبد الله وابن أبي عَبْلة بإسقاطها، وعليه قيل: هو بتقدير القول، وقيل: العامل فيه «يتخافتون»؛ لتضمُّنه معنى القول، وهو المذهب الكوفي فيه وفي أمثاله.

وأيّاً ما كان فالمرادُ بنهي المسكين عن الدخول المبالغةُ في النهي عن تمكينه منه، كقولهم: لا أرينَّك هاهنا.

﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي: منع، كما قال أبو عُبيدة[٢] وغيره، من قولهم: حارَدَت الإبلُ: إذا قلَّت ألبانُها، وحاردت السَّنَة: قلَّ مطرُها وخيرُها.

والجارُّ متعلِّق بقوله تعالى: ﴿قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ قُدِّم للحصر، ورعاية الفواصل، أي: وغدوا قادرين على منعٍ لا غير. والمعنى: أنهم عزموا على منع المساكين، وطلبوا حرمانَهم ونكدهم وهم قادرون على نفعهم، فَغَدَوا بحالٍ لا يقدرون فيها إلا على المنع والحِرْمان، وذلك أنهم طلبوا حرمانَ المساكين، فتعجَّلوا الحرمان.

أو غدوا على محاردة جنَّتهم وذهاب خيرِها بدَل كونهم قادرين على إصابة خيرِها ومنافعها، أي: غدوا حاصلين على حرمان أنفسهم مكانَ كونهم قادرين على الانتفاع. والحصرُ على الأول حقيقيٌّ، وعلى هذا إضافيٌّ بالنسبة إلى انتفاعهم من جنتهم، والحرمانُ عليه خاصٌّ بهم.

وجُوِّز أن يكون «على حرد» متعلِّقاً بـ «غدوا»، والمراد بالحَرد: حَرد الجنة،

---

(١) البيت لزهير كذلك، وهو في ديوانه ص١٤٠، وفيه: بكرت عليه، وكذلك جاء في البحر.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ٢٦٥. وانظر رد ابن جرير عليه في تفسيره ٢٣/ ١٧٩.

جيءَ به مشاكلةً للحَرْث، كأنه لما قالوا: اغدوا على حَرْثكم، وقد خبثت نيَّتهم، عاقَبَهم الله تعالى بأن حارَدَت جنَّتهم، وحُرِموا خيرَها، فلم يغدوا على حرث، وإنما غَدَوا على حَرْد، و«قادرين» من عكس الكلام؛ للتهكُّم، أي: قادرين على ما عزموا عليه من الصِّرام وحرمان المساكين.

وقيل: الحَرْد: الحَرَد بفتح الراء، وقد قُرئ به[1]، وهو بمعنى الغيظ والغضب كما قال أبو نَصْر أحمد بنُ حاتم صاحبُ الأصمعي، وأنشد:

إذا جِيادُ الخيلِ جاءت تَرْدِي   مملوءةً من غضبٍ وحَرْدِ[2]

أي: لم يقدروا إلا على إغضاب بعضهم لبعض كقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ [القلم: ٣٠]، ورُوي هذا عن سفيان والسُّدي، والحصرُ حقيقيٌّ ادِّعائيٌّ أو إضافي. وقيل: بمعنى القَصْد والسرعة، وأنشد:

أقبَلَ سَيْلٌ جاء من أمر اللَّهْ   يَحْرِدُ حَرْدَ الجنَّة المُغِلَّهْ[3]

أي: غَدَوا قاصدين إلى جنَّتهم بسرعة، قادرين عند أنفسهم على صِرامها، ورُوي هذا عن ابن عباس، فـ «على حرد» ظرفٌ مستقرٌّ حال من ضمير «غدوا»، و«قادرين» حالٌ أيضاً، إلا أنها حالٌ مقدَّرة على ما قيل، وقيل: حال حقيقيةٌ بناءً على القيد بعند أنفسهم، وإنما قيِّد به لأن ثمارَ جنتهم هالكةٌ، فلا قدرةَ لهم على صِرامها وقد فنيت.

وقال الأزهريُّ: «حرد»: اسمُ قريتهم[4]. وفي رواية عن السُّديِّ: اسمُ جنَّتهم. ولا أظنُّ ذلك مراداً.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٦٠.

(٢) نسب لقبيصة بن النصراني في حماسة أبي تمام ص٦٩، وللأعرج المَعْنيّ، في اللسان والتاج (حرد)، وأورده أبو حيان في البحر ٨/ ٣٠٥ من غير نسبة.

(٣) الرجز في مجاز القرآن ٢/ ٢٦٦، والبحر ٨/ ٣٠٥ دون نسبة.
وقال السيوطي في المزهر ١/ ١٨١-١٨٢ بعد أن ذكر نسبته لحنظلة بن مطيح: ويقال: إنه مصنوع، صنعه قطرب بن المستنير.

(٤) أورد الأزهري ٤/ ٤١٤ عدة أقوال في تفسير الآية، ثم قال: وروي في بعض كتب التفسير أن قريتهم كان اسمها: حرد.

وقيل: الحرد: الانفرادُ، يقال: حَرَد عن قومه: إذا تنحَّى عنهم ونزل منفرداً، وكوكبٌ حرود: معتزلٌ عن الكواكب[1].

والمعنى: وغدوا إلى جنَّتهم منفردين عن المساكين، ليس أحدٌ منهم معهم، قادرين على صِرامها. وهو من باب التهكُّم. وقيل: «قادرين» على هذا القول، من التقدير بمعنى التضييق، أي: مضيِّقين على المساكين إذ حَرَموهم ما كان أبوهم يُنيلهم منها، وهو حالٌ مقدَّرة.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أولَ ما وقع نظرُهم عليها ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾﴾ طريقَ جنَّتنا، وما هي بها، قاله قتادةُ. وقيل: لضالُّون عن الصواب في غدوِّنا على نيَّة منع المساكين. وليس بذاك.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ قالوه بعدما تأمَّلوا ووقَفُوا على حقيقة الأمر، مُضْرِبين عن قولهم الأول، أي: لسنا ضالِّين، بل نحن محرومون، حُرِمنا خيرَها بجنايتنا على أنفسنا.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي: أحسنُهم، وأرجَحُهم عقلاً ورأياً، أو أوسطُهم سنّاً: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: لولا تذكُرون الله تعالى وتتوبون إليه من خُبْث نيَّتكم، وقد كان قال لهم حين عزَموا على ذلك: اذكروا الله تعالى وتوبوا إليه عن هذه النية الخبيثة من فَوْرِكم، وسارعوا إلى حَسْم شرِّها قبل حلول النِّقمة، فعَصَوه، فعيرَّهم.

ويدلُّ على هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ لأنَّ التسبيح ذِكْرٌ لله تعالى، و«إنا كنَّا» إلخ ندامةٌ واعترافٌ بالذنب، فهو توبةٌ. والظاهر أنهم إنما تكلَّموا بما كان يدعوهم إلى التكلُّم به على أثر مقارَفَة الخطيئة، ولكن بعد خراب البصرة.

وقيل: المرادُ بالتسبيح الاستثناءُ؛ لالتقائهما في معنى التعظيم لله عزَّ وجلَّ؛ لأن الاستثناءَ تفويضٌ إليه سبحانه، والتسبيحُ تنزيهٌ له تعالى، وكلُّ واحدٍ من التفويض والتنزيه تعظيمٌ، فكأنَّه قيل: ألم أقل لكم: لولا تستثنون؟ أي: تقولون:

---

(١) البحر ٨/ ٣٠٥.

إن شاء الله تعالى. وأخرج ابنُ أبي حاتم عن السُّديِّ، وابنُ المنذر عن ابن جُرَيج[١]، وحكاه في «البحر»[٢] عن مجاهد وأبي صالح أنهما قالا: كان استثناؤهم في ذلك الزمان التسبيحَ، كما نقول نحن: إن شاء الله تعالى.

وجعله بعضُ الحنفية استثناءَ اليوم، فعنده لو قال لزوجته: أنت طالقٌ سبحان الله، لا تطلُق، ونُسب إلى الإمام ابن الهُمام، وادُّعي أنه قاله في فتاويه[٣]، ووُجِّه بأنَّ المرادَ بسبحان الله فيما ذُكر: أُنزِّه الله عزَّ وجل من أن يخلق البغيضَ إليه، وهو الطلاقُ، فإنه قد ورد: «أبغضُ الحلال إلى الله تعالى الطلاق»[٤]، وأنكر بعضُ المتأخِّرين نسبته إلى ذلك الإمام المتقدِّم، ونَفَى أن يكون له فتاوى[٥]، واعتَرض التوجيه المذكور بما اعتَرض، وهو لَعمْري أدنى من أن يُعترض عليه.

وأنا أقول: أولى منه قولُ النحَّاس في توجيه جعل التسبيح موضعَ الاستثناء: إنَّ المعنى تنزيه الله تعالى أن يكون شيءٌ إلا بمشيئته.

وقد يقال: لعلَّ مَنْ قال ذلك بنى الأمرَ على صحَّة ما رُوي، وأنَّ شَرْعَ مَنْ قبلنا شَرْعٌ لنا إذا قصَّه الله تعالى ورسولُه ﷺ علينا من غير نكير، وهذا على عِلَّاته أحسنُ مما قيل في توجيهه كما لا يخفى.

وقيل: المعنى: لولا تستغفرون. ووجه التجوُّز يُعلم مما تقدَّم.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ٣٠﴾ يلومُ بعضُهم بعضاً، فإن منهم ـ على ما قيل ـ مَنْ أشار بذلك، ومنهم من استصوبه، ومنهم من سكَتَ راضياً به، ومنهم من أنكره، ولا يأبى ذلك إسنادُ الأفعال فيما سبَقَ إلى جميعهم؛ لما عُلم في غير موضع.

---

(١) كما في الدر ٦/ ٢٥٤.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣١٣.

(٣) الدر المختار شرح تنوير الأبصار ٣/ ٣٧١ مع حاشية ابن عابدين.

(٤) سلف ٣/ ٢٩٣.

(٥) ينظر حاشية ابن عابدين ٣/ ٣٧١.

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ۝٣١﴾ متجاوزين حدودَ الله تعالى ﴿عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا﴾ أي: يعطينا بدلاً منها ببركة التوبة والاعترافِ بالخطيئة ﴿خَيْرًا مِّنْهَا﴾ أي: من تلك الجنَّة ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ لا إلى غيره سبحانه ﴿رَاغِبُونَ ۝٣٢﴾ راجون العفوَ، طالبون الخيرَ، و«إلى» لانتهاء الرغبةِ، أو لتضمُّنها معنى الرجوع.

وعن مجاهد أنهم تابوا، فأُبدلوا خيراً منها. ورُوي أنهم تعاقدوا وقالوا: إن أبدَلَنا الله تعالى خيراً منها لنصنعنَّ كما صنع أبونا، فدعوا الله عزَّ وجل وتضرَّعوا إليه سبحانه، فأبدَلَهم الله تعالى مِنْ ليلتهم ما هو خيرٌ منها.

وقال ابنُ مسعود: بلغني أنَّ القومَ دعوا الله تعالى وأخلصوا، وعلمَ الله تعالى منهم الصِّدقَ، فأَبدَلَهم بها جنةً يقال لها: الحَيَوان، فيها عنبٌ يُحمل على البغل منها عنقودٌ.

وقال أبو خالد اليماني: رأيتُ تلك الجنةَ، وكلُّ عنقودٍ منها كالرجل الأسود القائم.

واستظهر أبو حيَّان[1] أنهم كانوا مؤمنين أصابوا معصيةً وتابوا، وحَكَى عن بعض أنهم كانوا من أهل الكتاب، وعن القُشَيري أن المعظمَ يقولون: إنهم تابوا وأخلصوا. وتوقَّف الحسنُ في إيمانهم، فقال: لا أدري أكان قولهم: «إنا إلى ربنا راغبون» إيماناً، أو على حدِّ ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشِّدةُ؟

وسُئل قتادة عنهم: أَهُم من أهل الجنة أم من أهل النار؟ فقال للسائل: لقد كلَّفتني تعباً.

وقرأ نافعٌ وأبو عَمرٍو: «يبدِّلنا» مشدَّداً[2].

﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ﴾ جملةٌ من مبتدأ وخبر مقدَّم؛ لإفادة القَصْر، و«أل» للعهد، أي: مِثْلُ ذلك العذابِ الذي بَلَونا به أهلَ مكة من الجَدْب الشديد، وأصحابَ الجنة مما قُصَّ، عذابُ الدنيا.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣١٣.

(٢) التيسير ص١٤٥، والنشر ٢/ ٣١٤ وكذلك قرأ بالتشديد أبو جعفر المدني من العشرة.

والكلام؛ قيل: واردٌ تحذيراً لهم، كأنه لمَّا نهاه سبحانه عن طاعة الكفَّار، وخاصَّة رؤساءهم، ذَكَر عزَّ وجلَّ أن تمرُّدَهم لِمَا أُوتوه من المال والبنين، وعقَّب جلَّ وعلا بأنهما إذا لم يُشكَر[١] المنعِمُ عليهما يؤول حالُ صاحبهما إلى حال أصحاب الجنة مدمجاً فيه أنَّ خُبْثَ النية والزَّويَ عن المساكين إذا أفضى بهم إلى ما ذُكر، فمعاندةُ الحقِّ تعالى بعنادِ مَنْ هو على خُلُقه وأشرف الموجودات، وقطعُ رَحِمِه، أَولى بأن يُفضي بأهل مكة إلى البَوار.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي: أعظم وأشدُّ، تحذيرٌ عن العِناد بوجهٍ أبلغ.

وقوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ نعْيٌ عليهم بالغفلة، أي: لو كانوا من أهل العلم لعلموا أنه أكبرُ، ولأخذوا منه حِذْرَهم.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: من الكفر كما في «البحر»[٢]، أو منه ومن المعاصي كما في «الإرشاد»[٣] ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: في الآخرة؛ فإنها مختصَّة به عزَّ وجل؛ إذ لا يتصرَّف فيها غيرُه جلَّ جلالُه، أو في جوار قُدْسه ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾ جناتٍ ليس فيها إلا النعيمُ الخالص عن شائبة ما ينغِّصُه من الكُدورات وخوفِ الزوال. وأُخِذَ الحصرُ من الإضافة إلى النعيم؛ لإفادتها التميُّزَ من جنات الدنيا، والتعريض بأنَّ جنات الدنيا الغالبُ عليها النغص:

طُبِعَتْ على كَدَرٍ وأنتَ تريدُها صَفْواً من الأقذار والأكدار[٤]

وقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ تقريرٌ لما قبله من فوز المتقين، وردٌّ لما يقولُه الكَفَرة عند سماعهم بحديث الآخرة وما وعَدَ الله تعالى: إن صحَّ أنَّا نُبعث كما يزعمُ محمدٌ ومَنْ معه لم يكن حالُنا وحالُهم إلا مثل ما هي في الدنيا، وإلا لم يَزِيدوا علينا، ولم يَفْضُلونا، وأقصى أمرِهم أن يُساوونا.

---

(١) في (م): يشكرا.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٣١٥.
(٣) تفسير أبي السعود ٩/ ١٧.
(٤) البيت للتهامي أبي الحسن علي بن محمد، من قصيدة يرثي بها ابنه؛ كما في الوافي بالوفيات ٢٢/ ١٢١، ونسبه ابن مفلح في الفروع ٣/ ٣٩٩ إلى ابن هانئ.

والهمزةُ للإنكار، والفاءُ للعطفِ، والعطفُ على مقدَّر يقتضيه المقال[١]، أي: فيَحِيفُ في الحكم فيجعل[٢] المسلمين كالكافرين؟! ثم قيل لهم بطريق الالتفاتِ لتأكيد الردِّ وتشديده: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ تعجيباً من حكمهم، واستبعاداً له، وإيذاناً بأنه لا يصدُرُ من عاقل؛ إذ معنى «ما لكم»: أيُّ شيء حصل لكم من خَلَل الفكر وفسادِ الرأي؟!

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ﴾ نازلٌ من السماء ﴿فِيهِ﴾ أي: في الكتاب، والجارُّ متعلِّق بقوله تعالى: ﴿تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: تقرؤون فيه، والجملةُ صفةُ «كتاب»، وجُوِّز أن يكون «فيه» متعلِّقاً بمتعلّق الخبر، أو هو الصفةُ، والضميرُ للحكم أو الأمر، و«تدرسون» مستأنَفٌ، أو حالٌ من ضمير الخطاب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أي: لَلَّذي تختارونه وتشتهونه، يقال: تخيَّر الشيءَ واختاره: أخذ خيرَه، وشاع في أخذ ما يريدُه مطلقاً، مفعول «تدرسون»؛ إذ هو المدروس، فهو واقعٌ موقعَ المفرد، وأصلُه: أنَّ لكم فيه ما تخيَّرون، بفتح همزة «أنَّ» وتركِ اللام في خبرها، فلمَّا جيء باللام كُسرت الهمزةُ، وعُلِّق الفعل عن العمل، ومن هنا قيل: إنه لا بد من تضمين «تدرسون» معنى العلم ليجري فيه العملُ في الجمل والتعليق.

وجُوِّز أن يكون هذا حكايةً للمدروس كما هو عليه، فيكونُ بعينه لفظَ الكتاب من غير تحويلٍ من الفتح للكسر، وضمير «فيه» على الأول للكتاب، وأُعيد للتأكيد، وعلى هذا يعودُ لأمرهم، أو للحكم، فيكونُ محصَّلُ ما خُطَّ في الكتاب أنَّ الحكم أو الأمر مفوَّضٌ لهم، فسقط قولُ صاحب «التقريب»: إن لفظ «فيه» لا يساعدُه؛ للاستغناء بـ«فيه» أولاً، من غير حاجةٍ إلى جعل ضمير «فيه» ليوم القيامة بقرينة المقام، أو للمكان المدلول عليه بقوله تعالى: «عند ربهم». وعلى الاستئناف هو للحكم أيضاً.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وفي تفسير أبي السعود ٨/ ١٧ (والكلام منه): المقام.
(٢) كذا وقعت العبارة في الأصل و(م)، وفي تفسير أبي السعود: أَنَحيف في الحكم فنجعل. . . ، وهو الصواب.

وجُوِّز الوقف على «تدرسون»، على أن قوله تعالى: «إن لكم» إلخ استئنافٌ على معنى: إن كان لكم كتابٌ فلكم فيه ما تتخيرَّون، وهو كما ترى.

والظاهرُ أنَّ «أم لكم» إلخ مقابلٌ لما قبله نظراً لحاصل المعنى؛ إذ محصّله: أفَسَد عقلُكم حتى حكمتُم بهذا، أم جاءكم كتابٌ فيه تخييرُكم وتفويضُ الأمر إليكم؟!

وقرأ طلحةُ والضحَّاك: «أنَّ لكم» بفتح الهمزة، واللام في «لَمَا» زائدةٌ، كقراءة من قرأ: «ألا أنهم ليأكلون الطعام» [الفرقان: ٢٠] بفتح همزة «أنهم». وقرأ الأعرجُ: «أئنَّ لكم» بالاستفهام على الاستئناف[1].

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا﴾ أي: أقسامٌ، وفُسِّرت بالعهود، وإطلاقُ الأيمان عليها من إطلاق الجزء على الكلِّ، أو اللازمِ على الملزوم.

﴿بَٰلِغَةٌ﴾ أي: أقصى ما يمكنُ، والمراد متناهيةٌ في التوكيد.

وقرأ الحسنُ وزيد بنُ عليٍّ: «بالغةً»[2] بالنصب على الحال من الضمير المستتر في «علينا»، أو «لكم»، وقال ابنُ عطية: من «أيمان»؛ لتخصيصها بالوصف[3]. وفيه بُعْد.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ متعلِّق بالمقدَّر في «لكم» أي: ثابتةٌ لكم إلى يوم القيامة، لا نخرج عن عهدتها إلا يومئذٍ إذا حكمناكم وأعطيناكم ما تحكمون. أو متعلِّق بـ «بالغة»، أي: أيمانٌ تبلُغ ذلك اليوم وتنتهي إليه وافرةً لم يبطل منها يمينٌ، فـ «إلى» على الأول لغاية الثبوت المقدَّر في الظرف، فهو كأجَل الدَّين، وعلى الثاني لغاية البلوغ، فهي قيد اليمين، أي: يميناً مؤكَّداً لا ينحلُّ إلى ذلك اليوم، وليس من تأجيل المقسَم عليه في شيء؛ إذ لا مدخَلَ لـ «بالغة» في المقسَم عليه، فتأمل.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٥١، والبحر ٨/ ٣١٥، والدر المصون ١٠/ ٤١٥، وقراءة الأعرج قيدها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦٠ بالمد، أي: «آئن».

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٥٢، والبحر المحيط ٨/ ٣١٥.

(٣) المحرر ٥/ ٣٥٢، وفيه: وهي حال من النكرة ـ يعني قوله: «أيمان» ـ لأنها نكرة مخصصة بقوله: «علينا».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ جوابُ القسم؛ لأنَّ معنى «أم لكم أيمان علينا»: أم أَقْسَمنا لكم؟ وهو جارٍ على تفسير الأيمان بمعنى العهود؛ لأن العهد كاليمين من غير فرقٍ، فيجاب بما يُجاب به القَسَم.

وقرأ الأعرجُ: «أئنَّ لكم» بالاستفهام أيضاً[١].

﴿سَلْهُمْ﴾ تلوينٌ للخطاب، وتوجيهٌ له إلى رسولِ الله ﷺ بإسقاطهم عن رتبة الخطاب، أي: سَلْهم مبكِّتاً لهم: ﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ﴾ الحكم الخارج عن دائرة العقول ﴿زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ قائمٌ يتصدَّى لتصحيحه. والجملةُ الاستفهامية في موضع المعمول الثاني لـ «سل»، والفعلُ عند أبي حيَّان[٢] وجماعةٍ معلَّقٌ عنها؛ لمكان الاستفهام، وكونُ السؤال منزَّلاً منزلةَ العلم لكونه سبباً لحصوله.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ يُشاركونهم في هذا القول، ويذهبون مذهَبَهم ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾﴾ في دعواهم؛ إذ لا أقلَّ من التقليد.

وقد نبَّه سبحانه وتعالى في هذه الآيات على نفي جميع ما يمكنُ أن يتعلَّقوا به في تحقيق دعواهم، حيث نبَّه جلَّ شأنُه على نفي الدليل العقليِّ بقوله تعالى: «ما لكم كيف تحكمون» وعلى نفي الدليل النقليِّ بقوله سبحانه: «أم لكم كتاب» إلخ، وعلى نفي أن يكون الله تعالى وعَدَهم بذلك ـ ووعدُ الكريم دَيْنٌ ـ بقوله سبحانه: «أم لكم أيمان علينا» إلخ، وعلى نفي التقليد الذي هو أوهنُ من حبال القَمَر بقوله عزَّ وجل: «أم لهم شركاء».

وقيل: المعنى: أم لهم آلهةٌ عدُّوها شركاء في الألوهية تجعلُهم كالمسلمين في الآخرة.

وقرأ عبدُ الله وابنُ أبي عَبْلة: «فليأتوا بشِرْكهم»[٣]، والمراد به ما أُريد بـ «شركائهم».

---

(١) انظر التعليق على قراءة الأعرج في الآية السابقة.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣١٥.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٥١، والبحر ٨/ ٣١٥.

﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾ متعلِّقٌ بقوله تعالى: «فليأتوا» على الوجهين، ويجوزُ تعلُّقه بمقدَّر ك: اذكُر، أو: يكون كيتَ وكيتَ. وقيل: بـ «خاشعة». وقيل: بـ «ترهقهم». وأيّاً ما كان فالمرادُ بذلك اليوم عند الجمهور يومُ القيامة.

والساقُ: ما فوق القدم، وكشفُها والتشميرُ عنها مَثَلٌ في شدَّة الأمر وصعوبةِ الخَطْب، حتى إنه يُستعمل بحيث لا يُتصوَّر ساقٌ بوجهٍ، كما في قول حاتم:

أخو الحرب إن عضَّت به الحربُ عضَّها وإن شمَّرت عن ساقها الحربُ شمَّرا(١)

وقول الراجز:

عجبتُ من نفسي ومن إشفاقها
ومن طواء الخيل عن أرزاقها
في سَنَةٍ قد كشَفَتْ عن ساقها
حمراءَ تَبْري اللحمَ عن عُرَاقها(٢)

وأصلُه: تشميرُ المخدَّرات عن سُوقهنَّ في الهرب؛ فإنَّهن لا يفعلن ذلك إلا إذا عظُمَ الخَطْبُ، واشتدَّ الأمر، فيذهلن عن السَّتر بذيل الصيانة. وإلى نحو هذا ذهب مجاهدٌ، وإبراهيم النخَعيُّ، وعكرمةُ، وجماعة، وقد رُوي أيضاً عن ابن عباس؛ أخرج عَبْد بنُ حُميد، وابنُ المنذر، وابنُ أبي حاتم، والحاكم وصحَّحه، والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات» من طريق عكرمة عنه، أنه سُئل عن ذلك، فقال: إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر؛ فإنه ديوانُ العرب، أما سمعتُم قولَ الشاعر:

---

(١) البيت في ديوانه ص٤٩، ونسبه صاحب الحماسة البصرية ١/ ٧٨ لزيد الخيل وهو في ديوانه ص٦١، ونسبه صاحب العقد الفريد ٥/ ٢٤٥ لحذيفة بن أنس.

(٢) الرجز لأعرابي كان يطرد الطير عن الزرع في سنة جدب، كما في غريب الحديث لابن قتيبة ١/ ٦٦-٦٧، وورد أيضاً في الزاهر لابن الأنباري ٢/ ٣٧١، وأساس البلاغة (سوق)، وتفسير القرطبي ٢١/ ١٧٥، وجاء في المصادر: ومن طراد الطير، بدل: ومن طواء الخيل. قال ابن قتيبة: العُراق: العظم.

صـــبـــراً عـــنـــاق إنـــه شـــرٌّ بـــاقْ
قـــد ســنَّ لــي قـــومُــك ضــربَ الأعــنــاقْ
وقــامــت الــحــربُ بــنــا عــلــى ســاقْ[1]

والرواياتُ عنه ﷺ بهذا المعنى كثيرةٌ.

وقيل: ساقُ الشيء: أصلُه الذي به قوامُه، كساق الشجر، وساق الإنسان، والمراد: يوم يُكشف عن أصل الأمر، فتظهَرُ حقائقُ الأمور وأصولُها بحيث تصيرُ عِياناً، وإليه يُشير كلامُ الربيع بن أنس؛ فقد أخرج عَبْد بنُ حُميد عنه[2] أنه قال في ذلك: يوم يُكشَفُ الغطاءُ. وكذا ما أخرجه البيهقيُّ عن ابن عباس أيضاً، قال: حين يُكشف الأمرُ وتبدو الأعمال[3]. وفي الساق على هذا المعنى استعارةٌ تصريحيةٌ، وفي الكشف تجوُّزٌ آخر، أو هو ترشيحٌ للاستعارة باقٍ على حقيقته.

وتنكير «ساق»؛ قيل: للتهويل على الأول، وللتعظيم على الثاني، وقيل: لا يُنظر إلى شيء منهما على الأول؛ لأن الكلامَ عليه تمثيلٌ، وهو لا يُنظر فيه للمفردات أصلاً.

وذهب بعضُهم إلى أنَّ المراد بالساق ساقُه سبحانه وتعالى، وأنَّ الآيةَ من المتشابِه، واستدَلَّ على ذلك بما أخرجه البخاريُّ، ومسلمٌ، والنسائيُّ، وابنُ المنذر، وابنُ مردويه عن أبي سعيد قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «يكشفُ ربُّنا عن ساقه، فيسجُدُ له كلُّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ، ويبقى مَنْ كان يسجُدُ في الدنيا رياءً وسمعةً، فيذهبُ ليسجُدَ فيعودُ ظهرُه طَبَقاً واحداً»[4]. وأنكر ذلك سعيد بنُ جُبَير؛ أخرج

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٥٤، والمستدرك للحاكم ٢/ ٤٩٩-٥٠٠، والأسماء والصفات للبيهقي (٧٤٦)، وأورده أبو حيان في البحر ٨/ ٣١٦، والبيتان الأخيران من الرجز في العقد الفريد ٤/ ٤١٨ وجاء في المصادر: اصبر عناق...

(٢) كما في الدر المنثور ٦/ ٢٥٥.

(٣) الأسماء والصفات (٧٤٩).

(٤) الدر المنثور ٦/ ٢٥٥، وصحيح البخاري (٤٥٨١)، وصحيح مسلم (١٨٣): (٣٠٢)، ولم نقف عليه في سنن النسائي.

عَبْد بنُ حُميد، وابنُ المنذر عنه أنه سُئل عن الآية، فغضب غضباً شديداً، وقال: إن أقواماً يزعمون أنَّ الله سبحانه يَكشِفُ عن ساقه! وإنما يُكشف عن الأمر الشديد[١]. وعليه يُحمل ما في الحديث على الأمر الشديد أيضاً. وإضافتُه إليه عزَّ وجل لتهويل أمره، وأنه أمرٌ لا يقدِرُ عليه سواه عزَّ وجل.

وأربابُ الباطن من الصوفية يقولون بالظاهر، ويدَّعون أنَّ ذلك عند التجلِّي الصوريِّ، وعليه حملوا أيضاً ما أخرجه إسحاق بنُ راهويه في «مسنده»، والطبرانيُّ، والدارقطنيُّ في «الرؤية»، والحاكم وصحَّحه، وابنُ مردويه، وغيرُهم عن ابن مسعود، عن النبيِّ ﷺ قال: «يجمعُ الله الناسَ يوم القيامة، ويَنزلُ الله في ظُلَلٍ من الغَمام، فينادي منادٍ: يا أيُّها الناس، ألَمْ ترضَوا من ربِّكم الذي خلقَكم وصوَّركم ورزقَكم أن يُولِّي كلَّ إنسانٍ منكم ما كان يعبُدُ في الدنيا ويتولَّى؟ أليس ذلك عدلاً من ربكم؟ قالوا: بلى. قال: فلينطلق كلُّ إنسانٍ منكم إلى ما كان يتولَّى في الدنيا. ويتمثَّلُ لهم ما كانوا يعبدون في الدنيا، ويُمثَّل لمن كان يعبُد عيسى عليه السلام شيطانُ عيسى، وكذا يُمثَّل لمن كان يعبد عُزَيراً، حتى تُمثَّل لهم الشجرةُ، والعود، والحجر، ويبقى أهلُ الإسلام جُثُوماً، فيتمثَّل لهم الربُّ عزَّ وجل، فيقال لهم: مالكم لم تنطلقوا كما انطلَقَ الناس؟ فيقولون: إن لنا ربّاً ما رأيناه بعد، فيقول: فبِمَ تعرفون ربَّكم إن رأيتموه؟ قالوا: بيننا وبينه علامةٌ، إن رأيناه عرفناه. قال: وما هي؟ قالوا: يكشف عن ساقٍ، فيكشِفُ عند ذلك». الحديث[٢]. وهو ونظائرُه من المتشابه عند السلف.

وقرأ ابنُ مسعودٍ وابنُ أبي عَبْلة: «يَكشِفُ» بفتح الياء مبنيّاً للفاعل، وهي روايةٌ عن ابن عباس، وقرأ ابنُ هُرْمز: «نَكشِفُ» بالنون، وقُرئ: «يُكشِفُ» بالياء التحتيَّة مضمومةً، وكسر الشين، من أكشَفَ: إذا دخَلَ في الكشف، ومنه: أكشف الرجلُ فهو مكشف: انقلبت شفتُه العليا. وقُرئ: «تكشِفُ» بالتاء الفوقيَّة والبناء للفاعل،

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٥٥.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٥٥، والمعجم الكبير للطبراني (٩٧٦٣)، والرؤية للدارقطني (١٦٠)، والمستدرك للحاكم ٢/ ٤٠٨ وأخرجه أيضاً عبد الله بن أحمد في السنة (١١٣٣).

وهو ضميرُ الساعة المعلومة من ذِكْر يوم القيامة، أو الحال المعلومة من دلالة الحال، وبها والبناء للمفعول[1]، وجُعل الضمير للساعة، أو الحال أيضاً.

وتُعقِّب بأنه يكونُ الأصل حينئذٍ: يكشف الله الساعةَ عن ساقها مثلاً، ولو قيل ذلك لم يستقم؛ لاستدعائه إبداء الساقِ وإذهاب الساعة، كما تقول: كشفَتْ عن وجهها القناعَ، والساعةُ ليست ستراً على الساق حتى تُكشف.

وأُجيب أنها جُعلت ستراً مبالغةً؛ لأن المخدَّرة تُبالغ في الستر جَهْدها، فكأنها نفسُ الستر، فقيل: تكشف الساعةُ، وهذا كما تقول: كشفتُ زيداً عن جهله: إذا بالغتَ في إظهار جهله؛ لأنه كان ستراً على جهله يسترُ معايبَه، فأَبَنْتَه وأظهرتَه إظهاراً لم يَخْفَ على أحد. وقيل عليه: إنَّ الإذهاب حينئذٍ ادِّعائيٌّ، ولا يخفى ما فيه من التكلُّف، ولا عبرةَ بما ذُكر من المثال المصنوع، وأقلّ تكلُّفاً منه جَعْلُ «عن ساق» بدلَ اشتمالٍ من الضمير المستتر في الفعل بعد نزعِ الخافض منه، والأصلُ: يكشف عنها، أي: عن الساعة، أو الحال، فنُزعَ الخافضُ، واستتر الضميرُ. وتُعقِّب بأن إبدالَ الجارِّ والمجرور من الضمير المرفوع لا يصحُّ بحسب قواعد العربية، فهو ضغث على إبَّالة، وتكلُّف على تكلُّف.

وقيل: إن «عن ساق» نائبُ الفاعل. وتُعقِّب بأن حقَّ الفعل التذكيرُ، كـ: صُرِفَ عن هند، ومرَّ بدَعْد.

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ توبيخاً وتعنيفاً على تركهم إيَّاه في الدنيا، وتحسيراً لهم على تفريطهم في ذلك ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ لزوالِ القدرة عليه. وفيه دلالةٌ على أنهم يقصدونَه فلا يتأتَّى منهم، وعن ابن مسعود: تعقم أصلابُهم، أي: تردُّ عظاماً

---

(١) قوله: وبها، أي: وبالتاء، والقراءات مفرقة في القراءات الشاذة ص١٦٠، والكشاف ٤/ ١٧٤، وتفسير القرطبي ٢١/ ١٧٥-١٧٦، والبحر المحيط ٨/ ١١٦.
وقراءة: «نَكشِف» نسبها ابن خالويه إلى ابن عباس، وزاد أبو حيان نسبتها إلى ابن مسعود وابن عباس، وقراءة: «يُكشِف» نسبها ابن خالويه إلى الحسن، وقراءة: «تَكشِف» نسبها القرطبي ٢١/ ١٧٥ إلى ابن عباس، وقراءة: «تُكشَف» نسبها القرطبي ٢١/ ١٧٦ إلى ابن عباس والحسن وأبي العالية.

بلا مفاصل، لا تنثني عند الرفع والخفض. وتقدَّم في حديث البخاريِّ ومَنْ معه ما سمعتَ، وفي حديث: «تصيرُ أصلابُ المنافقين والكفار كصَياصي البقر؛ عظماً واحداً»[١].

والظاهر أن الداعيَ اللهُ تعالى، أو الملك، وقيل: هو ما يرونه من سجود المؤمنين.

واستدلَّ أبو مسلم بهذه الآية على أنَّ يوم الكشف في الدنيا، قال: لأنه تعالى قال: «ويدعون إلى السجود»، ويومُ القيامة ليس فيه تعبُّد ولا تكليف، فيُراد منه إما آخرُ أيام الشخص في دنياه حين يرى الملائكة، وإما وقتُ المرض والهَرَم والمَعْجزة[٢]. ويُدفع بما أشرنا إليه.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ حالٌ من مرفوع «يدعون» على أنَّ «أبصارهم» مرتفع به على الفاعلية. ونسبةُ الخشوع إلى الأبصار لظهور أَثَره فيها.

﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ تلحقُهم وتغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ شديدةٌ. ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ في الدنيا. والإظهار في موضع الإضمار لزيادةِ التقرير، أو لأنَّ المراد به الصلواتُ المكتوبة، كما قال النَّخعيُّ والشَّعبي، أو جميعُ الطاعات كما قيل، والدعوةُ دعوة التكليف، وقال ابنُ عباس وابن جُبَير: كانوا يسمعون الأذان والنداءَ للصلاة فلا يُجيبون.

﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ متمكِّنون منه أقوى تمكُّن، أي: فلا يُجيبون إليه ويأبونه، وتُرِكَ ذِكْر هذا ثقةً بظهوره.

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: إذا كان حالُهم ما سمعتَ فَكِلْ مَنْ يُكذِّب بالقرآن إليَّ، واستكفنيه، فإنَّ فيَّ ما يفرغ بالَكَ، ويُخلِّي همَّكَ. وهو من بليغ

---

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه (١٠)، والطبري في تفسيره ٢٣/ ١٩٤-١٩٥ من حديث أبي هريرة ﷺ. وأورده ابن حجر في المطالب العالية ٤/ ٣٦٥-٣٦٦ من حديث ابن مسعود مطولاً، وعزاه لإسحاق، وقال عقبه: هذا إسناد صحيح متصل رجاله ثقات.

(٢) المَعْجزة بفتح الجيم وكسرها، من العجز: عدم القدرة. النهاية: (عجز).

الكلام، يفيد أنَّ المتكلِّم واثقٌ بأنه يتمكَّن من الوفاء بأقصى ما يدور حولَ أمنية المخاطَب وبما يزيد عليه، وقد حقَّقه جارُ الله[١] بما حاصلُه أنَّ من استكفى أحداً تركَ الأمر إليه، وإلا كان استعانةً لا استكفاءً، فأُقيم الرادِفُ ـ أعني التخليةَ، وأن يَذَره وإياه ـ مقامَ الاستكفاء؛ مبالغةً، وإنباءً عن الكفاية البالغة، كيف وهذا الكافي طَلَبَ الاستكفاء بقوله: «ذرني»، وأبرز تركَ الاستكفاء في صورةِ المنع مبالغةً على مبالغة، فلو لم يكن شديدَ الوثوق بتمكُّنه من الوفاء أقصى التمكُّن، وفوقَ ما يحوم حولَ خاطر المستكفي لَمَا كان للطلبِ على هذا الوجه الأبلغ وجهٌ.

و«مَن» في موضع نصبٍ إما عطفاً على المنصوب في «ذرني»، أو على أنه مفعولٌ معه.

وقوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيان كيفية التعذيب المستفاد من الكلام السابق إجمالاً، والضميرُ لـ «مَن» والجمعُ باعتبار معناها، كما أن الإفراد في «يكذِّب» باعتبار لفظها، أي: سنستنزلُهم إلى العذاب درجةً فدرجة بالإمهال، وإدامةِ الصحةِ، وازدياد النعمة ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أنه استدراجٌ، بل يزعمون أن ذلك إيثارٌ لهم وتَفْضيلٌ على المؤمنين، مع أنه سببٌ لهلاكهم.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ وأُمهِلُهم ليزدادوا إثماً، وهم يزعمون أن ذلك لإرادة الخير بهم.

﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ لا يُدفَع بشيء. وتسميةُ ذلك كيداً ـ وهو ضربٌ من الاحتيال ـ لكونه في صورته؛ حيث إنه سبحانه يفعل معهم ما هو نفعٌ لهم ظاهراً، ومرادُه عزَّ وجل به الضررُ؛ لِمَا علم من خُبْث جِبِلَّتهم، وتماديهم في الكفر والكفران.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ على الإبلاغ والإرشاد ﴿أَجْرًا﴾ دنيويّاً ﴿فَهُم﴾ لأجل ذلك ﴿مِّن مَّغْرَمٍ﴾ أي: غرامةٍ مالية ﴿مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ مكلَّفون حملاً ثقيلاً فيُعرضون عنك؟ وهذه الجملة ـ على ما قاله ابنُ الشيخ ـ معطوفةٌ على قوله تعالى: «أم لهم شركاء».

---

(١) ينظر الكشاف ٤/١٤٧.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أي: المغيَّبات، أو: اللوح، وأُطلق الغيبُ عليه مجازاً؛ لأنه محلٌّ لكتابة المغيَّبات، أو لظهورِ صورها بناءً على الخلاف المعروف فيه، والقرينة ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ ما يَحكمون به، ويَستغنون بذلك عن علمك.

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهالُهم، وتأخيرُ نصرتِك عليهم، رُوي أنه ﷺ أراد أن يدعوَ على ثقيف لمَّا آذَوْه حين عرض عليه الصلاةُ والسلام نفسَه على القبائل بمكة، فنزلت. وقيل: أراد عليه الصلاةُ والسلام أن يدعوَ على الذين انهزموا بأُحُد حين اشتدَّ بالمسلمين الأمرُ، فنزلت، وعليه تكونُ الآية مدنيةً.

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ هو يونس عليه السلام، كما أنه المراد من ذي النون، إلا أنه فرِّق بين ذي وصاحب بأن ذي أبلغُ من صاحب، قال ابنُ حَجَر: لاقتضائها تعظيمَ المضافِ إليها والموصوفِ بها، بخلافه، ومن ثَمَّ قال سبحانه في معرض مَدْح يونس عليه السلام: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ [الأنبياء:٨٧]، والنهيِ عن اتِّباعه: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾، إذ النونُ لكونه جُعِلَ فاتحةَ سورةٍ أفخمُ وأشرفُ من لفظ الحوت، ونقل مثلَ ذلك السّرمينيُّ عن العلامة السُّهيلي، وفرَّق بعضُهم بغير ذلك مما هو مذكورٌ في «حواشينا على رسالة ابن عصام في علم البيان».

﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ في بطن الحوت ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ أي: مملوءٌ غيظاً على قومه، إذ لم يؤمنوا لمَّا دعاهم إلى الإيمان، وهو من كظَمَ السِّقاء: إذا ملأه، ومن استعماله بهذا المعنى قولُ ذي الرُّمة:

وأنتَ من حبِّ ميٍّ مُضْمِرٌ حُزناً ... عاني الفؤادِ قَريحُ القلب مَكْظومُ(١)

والجملةُ حالٌ من ضمير «نادى»، وعليها يدور النهيُ لا على النداء؛ فإنه أمرٌ مستحسَنٌ، ولذا لم يُذكَر المنادى، و«إذ» منصوبٌ بمضاف محذوف، أي: لا يكن حالُكَ كحاله وقتَ ندائه، أي: لا يوجَدْ منك ما وُجد منه من الضَّجَر والمُغَاضَبة، فتُبتلى بنحو بلائه عليه السلام.

---

(١) لم نقف على البيت في ديوان ذي الرمة، وهو في البحر ٨/ ٣١٧، والدر المصون ١٠/ ٤١٩.

﴿لَوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وهو توفيقُه للتوبة وقَبولُها منه. وقُرئ: «رحمةٌ»[1]، وتذكيرُ الفعل على القراءتين؛ لأن الفاعل مؤنَّثٌ مجازيٌّ مع الفصل بالضمير. وقرأ عبدُ الله وابنُ عباس: «تداركَتْه» بتاء التأنيث، وقرأ ابنُ هُرْمُز، والحسن، والأعمش: «تدّاركه» بتشديد الدال، وأصلُه تتداركه، فأبدل التاءَ دالاً، وأُدغمت الدالُ في الدال[2]. والمرادُ حكايةُ الحال الماضية، على معنى: لولا أن كان يُقال فيه: تتداركه ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾ بالأرض الخالية من الأشجار، أي: في الدنيا.

وقيل: بعراء القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤]. ولا يخفى بُعْدُه.

﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾ في موضع الحال من مرفوع «نُبذ»، وعليها يعتمد جوابُ «لولا»؛ لأن المقصودَ امتناعُ نَبْذه مذموماً، وإلا فقد حصل النبذُ، فدلَّ على أن حالَه كانت على خلاف الذمِّ، والغرضُ أن حالةَ النبذ والانتهاء كانت مخالفةً لحالةِ الإلامة والابتداء؛ لقوله سبحانه: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات:١٤٢] وفي «الإرشاد»[3] أن الجملة الشرطية استئنافٌ واردٌ لبيان كون المنهيِّ عنه أمراً محذوراً مستتبِعاً للغائلة.

وقولُه سبحانه: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ عطفٌ على مقدَّر، أي: فتداركته نعمةٌ من ربِّه، فاجتباه، أي: اصطفاه بأن ردَّ عزَّ وجل إليه الوحيَ وأرسلَه إلى مئة ألفٍ أو يزيدون، وقيل: استنبأه، إن صحَّ أنه لم يكن نبيّاً قبل هذه الواقعة وإنما كان رسولاً لبعض المرسلين في أرض الشام.

﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ من الكاملين في الصلاح بأن عصَمَه سبحانه من أن يفعل فعلاً يكونُ تركُه أَولى. وظاهرُ كلام بعضهم أنَّ الجَعْل من الصالحين تفسيرٌ للاجتباء. قيل: وفُسِّر «الصالحين» بالأنبياء، وهو مبنيٌّ على أنه لم يكن قبلَ الواقعة نبيّاً.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٦٠، والكشاف ٤/ ١٤٨.

(٢) القراءات الشاذة ص١٦٠، والكشاف ٤/ ١٤٨، والبحر المحيط ٨/ ٣١٧.

(٣) تفسير أبي السعود ٩/ ١٩.

واستُدلَّ بالآية على خلق الأفعال؛ لأن جَعْلَه صالحاً بجَعْل صلاحه وخلقه فيه، وهو من جملة الأفعال، ولا قائلَ بالفرق، والمعتزلةُ يؤوِّلون ذلك تارةً بالإخبار بصلاحه، وأُخرى باللُّطف به حتى صَلُح، على أنه يحتمل أن يُراد بـ «الصالحين» الأنبياء كما قيل، فلا تفيدُ الآيةُ أكثر من كون النبوَّةِ مجعولةً، وهو مما اتفق عليه الفريقان، فتدبَّر.

﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ «إنْ» هي المخفَّفةُ، واللامُ دليلُها؛ لأنها لا تدخل بعد النافية، ولذا تُسمَّى الفارقة على عُرفٍ عند النحاة، والمعنى: أنهم لشدَّة عداوتهم ينظرون إليك شَزَراً، بحيث يكادون يُزِلُّون قدمَكَ فيرمونك، من قولهم: نظر إليَّ نظراً يكادُ يصرعُني، أو: يكاد يأكُلني، أي: لو أمكنَه بنظره الصَّرعُ أو الأكلُ لفعله، وجعل مبالغةً في عداوتهم، حتى كأنَّها سَرَتْ من القلب والجوارح إلى النظر، فعاد يعمَلُ عمَلَ الجوارح، وأنشدوا قولَ الشاعر:

يتقارضون إذا التقوا في موطنٍ نظراً يُزِلُّ مَواطئَ الأقدام[1]

أو أنهم يكادون يُصيبونَكَ بالعين؛ إذ رُوي أنه كان في بني أسد عيَّانون، فأراد بعضُهم أن يَعين رسولَ الله ﷺ، فنزلت.

وقال الكلبيُّ: كان رجلٌ من العرب يمكُثُ يومين أو ثلاثة لا يأكُلُ، ثم يرفع جانبَ خبائه، فيقول: لم أرَ كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه، فتسقُطُ طائفة منها وتهلك، فاقترح الكفار منه أن يُصيب رسولَ الله ﷺ، فأجابهم وأنشد:

قد كان قومك يحسبونك سيِّدا وإخالُ أنك سيِّد مَعْيونُ[2]

فعَصَم الله تعالى نبيَّه ﷺ، وأنزل عليه هذه الآية.

وقد قيل: إن قراءَتَها تدفعُ ضررَ العين، ورُوي ذلك عن الحسن، وفي كتاب «الأحكام»[3] أنها أصلٌ في أنَّ العين حقٌّ. والأولى الاستدلالُ على ذلك بما ورد وصحَّ

---

(١) البيت في الكشاف ٤/ ١٤٨، وتفسير القرطبي ٢١/ ١٨٧ من غير نسبة.
(٢) البيت لعباس بن مرداس، وهو في الحماسة البصرية ١/ ١٠، والحيوان للجاحظ ٢/ ١٤٢.
(٣) وهو كتاب الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي ص٢٧٢.

من عدة طرق أنَّ العين تُدخل الرجل القبر والجمَلَ القِدْر[١]، وبما أخرجه أحمد بسندٍ رجالُه - كما قال الهيثميُّ - ثقاتٌ، عن أبي ذرٍّ مرفوعاً: «إنَّ العينَ لَتُولَعُ بالرجل بإذن الله تعالى، حتى يصعد حالقاً، ثم يتردَّى منه»[٢]. إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة. وذلك من خصائص بعضِ النفوس، ولله تعالى أن يخصَّ ما شاء منها بما شاء، وإضافتُه إلى العين باعتبار أنَّ النفسَ تؤثِّر بواسطتها غالباً، وقد يكون التأثيرُ بلا واسطتها، بأن يوصَفَ للعائن شيء فتتوجَّه إليه نفسُه فتُفسده. ومن قال: إنَّ الله تعالى أجرى العادةَ بخَلْق ما شاء عند مقابلة عينِ العائن من غير تأثيرٍ أصلاً، فقد سدَّ على نفسه باب العلل والتأثيرات، والأسبابِ والمسبَّبات، وخالف جميعَ العقلاء. قاله ابنُ القيِّم[٣].

وقال بعضُ أصحاب الطبائع: إنه ينبعث من العين قوَّة سُمِّيَّة تؤثِّر فيما نظره، كما فصّل في «شرح مسلم»[٤]. وهذا لا يتمُّ عندي فيما لم يَرَه، ولا في نحو ما تضمَّنه حديثُ أبي ذرٍّ المتقدِّم آنفاً، ولا في إصابة الإنسان عينَ نفسه كما حكاه المناوي[٥]؛ فإنه لا يقتل الصِلَّ سُمُّه[٦].

ومن ذلك ما حكاه الغسَّانيُّ قال: نظر سليمان بنُ عبد الملك في المرآة فأعجبتْه نفسُه، فقال: كان محمدٌ ﷺ نبيّاً، وكان أبو بكر صدِّيقاً، وكان عمر فاروقاً، وعثمانُ حييّاً[٧]، ومعاوية حليماً، ويزيد صبوراً[٨]، وعبدُ الملك سائساً، والوليد

(١) سلف ١٢/ ٤٠٦.
(٢) مسند الإمام أحمد (٢١٣٠٢)، وقول الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ١٠٦، وقوله: «التولع بالرجل»، قال السندي في شرحه على المسند: يقال: أُولع بالشيء على بناء المفعول، أي: علق به، والمراد: إن العين لتصيب الرجل. اهـ. والحالق: الجبل العالي. النهاية: (حلق).
(٣) زاد المعاد ٤/ ١٦٦.
(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ١٤/ ١٧١، وما بعدها.
(٥) قال في فيض القدير ٤/ ٣٩٦: قال الحكماء: والعائن يبعث من عينه قوة سمية تتصل بالمعان، فيهلك، أو يهلك نفسه.
(٦) الصِّل: الحية التي لا تنفع منها الرُّقى. الصحاح: (صلل).
(٧) جاء في هامش الأصل ما نصه: عدم التعرض لعلي كرم الله تعالى وجهه، بأن يقال: وعلي وصيّاً مثلاً؛ لما أودع في قلوب أكثر بني أمية من ظلمة عداوته، لعن الله تعالى من يعاديه. اهـ منه.
(٨) جاء في هامش الأصل: أي: كالكلب، ثم إنه حريٌّ بأن يقال: كفوراً، بدله. اهـ. وفي هذا الكلام نظر!.

جبَّاراً، وأنا الملكُ الشاب، وأنا الملكُ الشاب. فما دار عليه الشهرُ حتى مات.

ومثل ذلك ما قيل: إنه من باب التأثير في القوة المعروفة اليوم بالقوَّة الكهربائية عند الطباعيين المحدَثين[١]، والكلامُ على ما فيها من العجائب مفصَّل في كتبهم، فقد صحَّ أن بعضَ الناس يكرِّر النظرَ إلى بعض الأشخاص من فَرقه إلى قدمه، فيصرعه كالمغشيِّ عليه، وربَّما يقفُ وراءه جاعلاً أصابعه حذاءَ نقرةِ رأسه، ويوجِّه نفسَه إليه حتى يُضعفَ قُواه، فيغشاه نحوُ النوم، ويتكلَّم إذ ذاك بما لا يتكلَّم به في وقتٍ آخر.

وأنا لا أزيدُ على القول بأنه من تأثيرات النفوس، ولا أُكيِّفُ ذلك؛ فالنفسُ الإنسانيةُ من أعجب مخلوقات الله عزَّ وجل، وكم طُوي فيها أسرارٌ وعجائب تتحيَّر فيها العقول، ولا ينكرُها إلا مجنون أو جَهول، ولا يسعُني أن أُنكرَ العين؛ لكثرة الأحاديث الواردة فيها، ومشاهدةِ آثارها على اختلاف الأعصار، ولا أخصُّ ذلك بالنفوس الخبيثة كما قيل، فقد يكون من النفوس الزَّكيَّة، والمشهورُ أنَّ الإصابةَ لا تكونُ مع كراهة الشيء وبُغْضه، وإنما تكون مع استحسانه، وإلى ذلك ذهب القشيريُّ، وكأنه يُشير بذلك إلى الطعن في صحَّة الرواية ها هنا؛ لأن الكفَّار كانوا يُبغضونه عليه الصلاة والسلام، فلا تتأتَّى لهم إصابتُه بالعين، وفيه نظر.

وحكمُ العائن ـ على ما قال القاضي عِياض[٢] ـ أن يُجتنَب، وينبغي للإمام حبسُه ومنعُه عن مخالطة الناس؛ كفًّا لضرره ما أمكن، ويرزقُه حينئذٍ من بيت المال.

هذا وقرأ نافع: «ليَزْلِقونك» بفتح الياء[٣]، من زلقه بمعنى أزلقه. وقرأ عبدُ الله، وابنُ عباس، والأعمش، وعيسى: «ليزهقونك» بالهاء بدل اللام[٤]، أي: ليهلكونك.

---

(١) بعده في الأصل بياض بمقدار نصف سطر، وسقط من (م) من هنا إلى قوله: فقد صح... إلخ.

(٢) إكمال المعلم ٧/ ٨٥.

(٣) التيسير ص٢١٣، والنشر ٢/ ٣٨٩. وكذلك قرأ بها أبو جعفر من العشرة.

(٤) القراءات الشاذة ص١٦٠، والبحر المحيط ٨/ ٣١٧.

﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ أي: وقتَ سماعهم القرآن، وذلك لاشتداد بُغْضهم وحَسَدهم عند سماعه. و«لما» ـ كما أشرنا إليه ـ ظرفيةٌ متعلِّقة بـ «يزلقونك»، ومن قال: إنها حرفُ وجوبٍ لوجوب ذهب إلى أن جوابَها محذوفٌ؛ لدلالة ما قبلُ عليه، أي: لمَّا سمعوا الذِّكر كادوا يزلقونك.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ لغاية حَيْرتهم في أمرِه عليه الصلاة والسلام، ونهايةِ جَهْلهم بما في تضاعيف القرآن من عجائب الحِكَم وبدائع العلوم، ولتنفير الناس عنه: ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ۝٥١﴾.

وحيث كان مَدارُ حكمهم الباطل ما سمعوا منه ﷺ ردَّ ذلك ببيان علوِّ شأنه، وسطوعِ برهانِه، فقيل: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٥٢﴾ على أنه حالٌ من فاعل «يقولون»، والرابطُ الواو فقط، أو مع عمومِ «العالَمين» كما قيل مفيدٌ لغاية بطلان قولهم، وتعجيبٌ للسامعين من جَراءتهم على التفوُّه بتلك العظيمة، أي: يقولون ذلك والحال أنه ذِكْرٌ للعالمين، أي: تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمور دينهم، فأين من أنزل عليه ذلك، وهو مطلَّعٌ على أسراره طرّاً، ومحيطٌ بجميع حقائقه خُبْراً مما قالوه. وقيل: معناه: شرف وفضل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] وعموم «العالمين» لما فيه من الاعتناءِ بما ينفعُهم.

وقيل: الضميرُ لرسول الله ﷺ وكونه مذكِّراً وشرفاً للعالمين لا ريب فيه. ورُجِّح بأن الجملة عليه تكون صريحةً في ردِّ دعواهم الباطلة، وأنتَ تعلمُ أنَّ الأول أولى، والله تعالى أعلم.